صوت اللاجئ

سرد القصص المفقودة

للمحرر

د. طارق الشرقاوي

ترجمة

هيا الأتاسي

التدقيق اللغوي

أ. صبحي ناشد

TRT WORLD research centre

صوت اللاجئ
سرد القصص المفقودة

للمحرر

د. طارق الشرقاوي

ترجمة

هيا الأتاسي

التدقيق اللغوي

أ. صبحي ناشد

TRT WORLD research centre

مركز أبحاث تي آر تي العالمية
جميع الحقوق محفوظة

الناشر
مركز أبحاث تي آر تي العالمية
مايو 2019

صوت اللاجئ
سرد القصص المفقودة

المحرر:
د. طارق الشرقاوي

ترجمة:
هيا الأتاسي

التدقيق اللغوي:
أ. صبحي ناشد

منسق المشروع:
هاجرة مريم

فكرة المشروع:
زمرد سوغميز

الغلاف:
وكالة الأناضول

التصميم:
أكرم يو إس

تي آر تي العالمية إسطنبول
شارع أحمد عدنان سايغون رقم ٣٨
٧٤٣٤٣ أولوس، بشكتاش
إسطنبول/تركيا
www.trtworld.com

تي آر تي العالمية لندن
بورتلاند هاوس
شارع ٤ غرايت بورتلاند رقم ٤
لندن/المملكة المتحدة

تر آر تي العالمية واشنطن العاصمة
شارع ٠٢٦١ آي ستريت نورثويست الطابق العاشر
سويت ٠٠٠١، ٦٠٠٠٢
واشنطن العاصمة/الولايات المتحدة
www.trtworld.com

researchcentre.trtworld.com
www.trtworld.com

طباعة:
حي جيهانغير شارع غوفيرجن رقم ١/٣ مركز بها إش بلوك A طابق ٢
٠١٣٤٣ هاراميديري/إسطنبول

رقم الشهادة: ٦٢٠٢١

ISBN: 978-605-9984-28-7

صوت اللاجئ
سرد القصص المفقودة

TRT WORLD research centre

الكلمة الأولى

كلّ فـردٍ هـو عالَـمٌ بحـد ذاتـه. نعـم، نتشـارَكُ ميّـزاتٍ لامعـدودة مـع مواطنينـا وزملائنـا وعائلاتنـا وأصدقائنـا، ولكـن كلّ إنسـانٍ فريـدٌ مـن نوعـه. وعنـد الحديـث عـن اللاجئـين، تتمثـلُ إحـدى المشـكلات في تبسـيطهم إلى أعـداد، أو أنهـم ينتمـون إلى مجموعـاتٍ كبـيرة فقـط يتـم فيهـا تهميـشُ أفرادِهـم. تسـتخدم معظـم الأعـمال الأكاديميـة والصحفيـة الاسـتدلال والمخططـات الذهنيـة التـي يمكـن التعبـير عنهـا بسـهولة لعـرضِ حالتهـا بشـكلٍ عـام. لذلـك، حتـى عندمـا تُسرد قصـص الأفـراد، فـإن الحديـث عنهـا يجـري كأنهـا قصـصٌ جانبيـة بالنسـبة للأزمـة التـي أنتجتهـا. وبالتركيـزِ عـلى الظـروفِ العامـة التـي يجـدون أنفسـهم داخلهـا، تُهمـل فرديتهـم ويُقلّـل مـن شـأنهم.

وهـذا مـا يزيـد مـن أهميـة هـذا الكتـاب. ففـي محتويـات هـذا المجلـد، يحـاول زمـلائي في تي آر تي العالميـة اسـتعادة فكـرة أنّ لـكلّ لاجـئ كيانـه وأنـه يملـك القـدرة عـلى التأثـير واتخـاذ القـرارات. صحيـحٌ أنّ كونهـم لاجئـين هـو جـزءٌ مـن هويتهـم. وعـلى الرغـم مـن وضعهـم في بوتقـة واحـدة مـع عـدم مراعـاة كلّ فـردٍ عـلى حـدة، فهنـاك حقيقـة يتـم تجاهلهـا وهـي أنّ كلّ فـردٍ منهـم لديـه خصوصيّتـه. إنهـم نسـاء، لاعبـو كـرة قـدم طموحـون، علـماء، أمهـات، آبـاء، أطفـال، مشـجّعون، مخترعـون، موسـيقيون.

عندمـا ابتكرنـا مـشروع تي آر تي العالميـة لأول مـرة، تعهّدنـا بمراعـاة هـذا الواقـع في كل خطـوة. في تغطيتنـا اليـوم، نحـاول احـترام هـذا العهـد قـدر الإمـكان. نحـن نؤمـن بمسـؤولية راوي القصـة؛ نحـن الذيـن يحملـون الميكروفـون، نحـن الذيـن وراء الكاميـرا. ومـع ذلـك، نحـن لسـنا نجـوم هـذه القصـة بـل هـم النجـوم.

قبل أن أترككم مع هذا الكتاب، يجب التأكيد على أنّ الحاجة إلى نظامٍ عالمي جديد لمعالجة ظاهرة اللاجئين قد طال انتظارها. يعاني اللاجئون في جميع أنحاء العالم ظروفاً مُماثلة تخلقُ ظروفهم وتتركهم تحت رحمة المجتمعات التي غالباً ما تكون غير مُرحِّبة بهم أو معادية لهم تمامًا. بما أنّ المشكلة أصبحت بالفعل عالمية، فنحن بحاجة إلى حلّ عالمي. إنّ التعصب والحواجز بين الناس والمجتمعات آخذة في الازدياد، وعلى ذلك فمن الضروري أن يتوصّل المجتمع الدولي إلى تفاهمٍ مشترك يواجه هذه التيّارات السلبية ويُسهّل التعاون العالمي في الدرجة الأولى بشأن ظاهرة اللاجئين المُلحّة. ليس لدينا طريقة أخرى للمُضي قدمًا.

بناءً على ذلك، يُشرّفني أن أقدم لكم هذا الإنجاز الضروري والحديث الذي أجراه مركز أبحاث تي آر تي العالمية والقصص الحيّة التي قدمّها صحفيّونا.

إبراهيم إيرين،

المدير العام ورئيس مجلس إدارة تي آر تي

المقدمة

من أهم اهتمامات تي آر تي العالمية هو تخصيص الوقت والتغطية لأكثر القضايا حساسيّة في عصرنا والتي تُهملها العديد من المنصّات الإعلامية، إذ إن من واجبنا أن نكون صوتاً لمن لا صوت له. ومن أهم تلك القضايا هي ظاهرة اللاجئين. هذا الكتاب هو ثمرة هذا الجهد فهو يُقدّم عددًا من القصص التي يرويها صحفيو تي آر تي العالمية عن تجربتهم في تغطية اللاجئين في جميع أنحاء العالم. كلّ فصلٍ هو سردٌ يُقدم منحًى مُعينًا لظاهرةِ اللاجئين و يهدفُ إلى أن يكون غنياً بالمعلومات دون إغراق الموضوع بتفاصيل مُجرّدة. تعمل هذه القصص الشخصيّة على إظهارِ الحالة الإنسانية التي نعتقدُ أنها أهم عنصر في هذه الظاهرة. بينما يحاولُ زملاؤنا أن يكونوا موضوعيين حول طبيعةِ الأحداث وأن يكونوا مُنصِفين للحقيقة، فإنهم لا ينكرون الذاتية الموروثة في كلّ قصة، كما أنّهم يحاولون تغطية تفاصيل القصة ومقارنتها بقصصٍ أخرى دون إغفال الأحداث الرئيسية من أجل إبراز حقيقة الأشياء.

على الرغم من أننا نقدمُ قصصًا من جميعِ أنحاء العالم، فإننا الأقرب لإسطنبول، مقرنا الرئيسي. نحن نعيشُ في مدينة تسكنها عائلات لديها ذكريات النزوح والهجرة من الماضي القريب أو حتى البعيد. لقد كانت إسطنبول لطيفة مع كلّ من سكنها هنا واحتضنته بأذرعها الممتدة من أوروبا إلى آسيا.هذه المدينة هي مصدر إلهامنا. عندما بدأت الحرب الأهلية في سوريا، تبنّت تركيا سياسة الباب المفتوح التي وفّرت الملجأ لأولئك الذين تمكنوا من الهروب من أهوال الحرب. ومنحت العديد من المدن في تركيا، إلى جانب اسطنبول، المأوى لأولئك الذين طُردوا من أوطانهم. وعلى ذلك نحن نُكرّسُ هذا الكتاب لأولئك الذين يتوقون إلى منازلهم وكذلك إلى مُضيفيهم، الذين رحبّوا بهم بكلّ إخلاص.

يحتـوي كتابنـا عـلى ثلاثـةِ أغـراضٍ رئيسـية. أولاً، نريـدُ تفعيـل قـوة هـذه القصـص وهـذا هـو السـبب في قيامنـا بهـذا العمـل. نحـن نؤمـن بـأنّ القصـص لهـا القـدرة عـلى إنهـاء وصـم اللاجـئ وضحايـا الحـرب عـلى الصعيـد العالمـي. عـلاوة عـلى ذلـك، غرضنـا الأسـاسي ليـس تقديـم محنتهـم وإظهارهـم كأشـخاصٍ بؤسـاء، بـل إنّنـا نعتقـدُ أنّ القـارئ سـيجدُ الحيويـة والسـعادة في قصصهـم أيضًـا. نحـن عـلى ثقـة بـأن قصصنـا سترسـمُ صـورةً كاملـة لظاهـرة اللاجئـين. ثانيـاً، نريـدُ أن نعطـي الكلمـة للشـخصيات الرئيسـية: اللاجئـين أنفسـهم. نحـن لسـنا في صـددِ محاولـة فـرض معنـى جديـد لتجربتهـم؛ بـل إنّنـا نـدعُ النـاس يـروون قصصهـم الخاصـة. أخـيرًا، نعتقـدُ أنّ عملنـا سيسـاعدُ عـلى بنـاءِ جسـورٍ بـين النـاس واختلافاتهـم المفترضـة، وسـوف نؤكـدُ إنسـانيتنا المشـتركة ونركّـزُ عـلى نـشرِ السـلام والحـب بـدلاً مـن بنـاء جـدرانٍ بينهـم.

هـذا الكتـاب هـو التقـاء عـدة رحـلات. إنهـا مجموعـة مختـارة مـن القصـصِ المتميـزة. لقـد تعلمنـا الكثـير أثنـاء إعـداد هـذا الكتـاب، وأكـثر مـن ذلـك، فقـد أحسسـنا بـه واكتسـبنا رؤيـة جديـدة. أتقـدّمُ بالشـكرِ لـكلّ صحفـي شـاركَ في مشروعنـا، وكذلـك فريقنـا في مركـز أبحـاث تي آر تي العالميـة الـذي بـذل مجهـودًا كبـيرًا لأجلـه. فشـغفهم هـو الـذي جعـل هـذا العمـل ممكنـاً. أشـكرُ أيضًـا أصحـاب الضمـير الذيـن يبذلـون قصـارى جهدهـم لإظهـار أنّ الـشر لا يتجـوّل حـرًا في هـذا العـالم، وهـذا مـا يجعلنـا نتمسـك بأملنـا في مسـتقبلٍ أفضـل.

بينار كانديمير،
مديـرة الأبحاث، تي آر تي العالمية

جدول المحتويات

الكتاب	٩
ملحوظة المحرر / بقلم الدكتور طارق الشرقاوي	١٤
أزمة لاجئي الروهنغيا: أفضل مثال للتطهير العرقي / بقلم شميم شودري	٢٢
نساء الحرب - زوجات بوكو حرام / بقلم أديسيوا جوش	٣٦
غازي عنتاب - جنوب تركيا: وجهة نظر مراسل / بقلم سارة فيرث	٥٦
تشـييء اللاجئين: لماذا يجب علينا ألا نخسر إنسانيتنا لأجل البحث عن نبأ مثير / بقلم تانيا غودسوزيان	٧٠
اللاجئ إليَّ مُعلّمي / بقلم فرانسيس كولينغز	٨٦
قافلة المهجّرين: قصة من أمريكا الوسطى عن الفارين من عنف العصابات / بقلم إديز تيانسان	١٠٠
تقرير من الهاوية: الصدمة في عصر الصحافة / بقلم علي مصطفى	١٢٠
تقارير اللاجئين والمهاجرين: رؤية من خط المواجهة / بقلم ميريام فرانسوا	١٤٠
رحلتي كصحفي / بقلم أحمد علي أوغلو	١٥٠
عرائس سوريا في سهل البقاع اللبناني / بقلم ماري صليبا	١٧٠

المساهمون

أحمد علي أوغلو

أحمد علي أوغلو / البرعي باحث وصحافي فلسطيني-تركي. وهو حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة إسطنبول التقنية في التسويق السياسي. قام بالتدريس في جامعات فلسطينية وتركية، وهو محرر عام في تي آر تي العالمية. عمل مع بي بي سي وورلد سيرفيس تراست ولوس أنجلوس تايمز في غزة. يعمل حاليًا في المملكة المتحدة ويهتم بشكل أساسي بقضايا الشرق الأوسط.

د. طارق الشرقاوي

الدكتور طارق الشرقاوي هو مدير مركز أبحاث تي آر تي العالمية في إسطنبول، تركيا. وهو مؤلف كتاب «أخبار وسائل الإعلام في الحرب: صراع الشبكات الغربية والعربية في الشرق الأوسط» (I.B. Tauris, 2017). وهو حاصل على درجة الماجستير في الدراسات الاستراتيجية من جامعة ماليزيا الوطنية، وشهادة الدكتوراه في دراسات الإعلام والاتصال من جامعة أوكلاند للتكنولوجيا (نيوزيلندا) - تشمل موضوعات أبحاثه الأوسع نطاقًا التواصل الدولي والدبلوماسية العامة، تأطير الأخبار، والعلاقات العسكرية والإعلامية - وتحديدا في سياق الشرق الأوسط.

شميم آرا شودري

عملت شميم شودري في الأخبار التلفزيونية الدولية لأكثر من ٥١ عامًا. كانت المراسلة الرئيسية لتي آر تي العالمية في تغطية أزمة الروهنغيا في بنغلاديش، التي ذهبت إليها عدة مرات خلال عامي 2017 و 2018، بما في ذلك عندما رافقت وزير الخارجية التركي، مولود جاويش أوغلو، ورئيس الوزراء التركي بن علي يلدريم. كما قدمت تقارير من سوريا والعراق وجنوب وجنوب شرق آسيا وعبر أوروبا.

فرانسيس كولينغز

فرانسيس كولينجز هو صحفي نشأ في إقليم جبل طارق البريطاني، وعاش في ثمانية بلدان حتى الآن، بما في ذلك تركيا. قبل العمل في تي آر تي العالمية، عمل مع تلفزيون وإذاعة بي بي سي لسنوات عديدة في لندن.

سارة فيرث

سارة فيرث مراسلة وصحفية أجنبية وتعمل في شبكة تي آر تي العالمية كمراسلة في الشرق الأوسط منذ عام 2017. وقد غطّت الحرب في سوريا منذ البداية، سواء على أرض الواقع في البلاد أو في المنطقة بشكل عام، بالإضافة إلى المناطق التي هرب إليها اللاجئون.

د. ميريام فرانسوا

عملت ميريام فرانسوا كمراسلة تي آر تي العالمية لأوروبا لسنوات عديدة. كما عملت بشكل مكثف على الإبلاغ عن «أزمة المهاجرين في أوروبا» ، وبشكل أساسي من فرنسا والمملكة المتحدة مع العديد من الرحلات إلى معسكر في كاليه فرنسا والذي يُعرف بـ «كاليه جانغل».

تانيا غودسوزيان

تانيا جودوزيان، صحفية كندية غطّت منطقة الشرق الأوسط وأفغانستان لأكثر من 15 عامًا. هي محررة رأي سابقة للموقع الإلكتروني للجزيرة الانجليزية، وهي حاليًا رئيسة قسم المقابلات في تي آر تي العالمية.

أديسيوا جوش

منذ ما يقارب من عقد من الزمن، روت أديسيوا جوش قصص المجتمع في إفريقيا وغيرها. كما أمضت السنوات الخمس الماضية في إعداد التقارير النقدية عن التأثير الاجتماعي لتمرد بوكو حرام على النساء والأطفال، بالإضافة إلى إجراء مقابلات مع رؤساء الدول والسيدات الأُوليات. تخرجت من كلية كولومبيا للصحافة في نيويورك. تعملُ أديسيوا على رسمِ منظورٍ جديد ومفيد للسياسة والتنمية والعلاقات الدبلوماسية في إفريقيا. وقد تم اختيارها كواحدة من أكثر النساء نفوذاً في نيجيريا لعام 2019. إنها كذلك العضو المؤسس لمنظمة Project Smile Africa، وهي منظمة غير حكومية تشجع تعليم الفتيات وتهتم بصحّتهن في إفريقيا.

هاجرة ميريام ميرزا

هاجـرة مريـم مـيرزا باحثـة في مركـز أبحـاث تي آر تي العالميـة. تتركـز اهتماماتهـا حـول شـؤون جنـوب آسـيا والعلاقـات التركيـة الباكسـتانية والدبلوماسـية العامـة والآثـار الإعلاميـة والإعـلام والمجتمـع والإعـلام والـرأي العـام. تهتـم هاجـرة أيضًـا بتقاطـع البحـوث الأكاديميـة وروايـة القصـص الرقميـة والتواصـل مـع الجمهـور.

علي مصطفى

عـلي مصطفـى مقـدم ومراسـل بشـبكة تي آر تي العالميـة. لقـد عمـل عـلى تغطيـة السياسـة والأمـن والمجتمـع في قنـاة الجزيـرة الإنجليزيـة و سي بي سي راديـو / كنـدا، و فايـس نيـوز، و سي إن بي سي منـذ عـام 2004. وتخـرج عـلي مـن برنامـج الفنـون في جامعـة كولومبيـا، حيـث حصـل عـلى شـهادات في السياسـة والصحافـة.

ماري صليبا

مـاري صليبـا هـي صحفيـة أخبـار دوليـة مـع تي آر تي العالميـة. لديهـا خـبرة خاصـة في الشـؤون السياسـية والأمنيـة والقانونيـة والإنسـانية في الـشرق الأوسـط. سـاهمت مـاري عـلى نطـاق واسـع في تغطيـة الجزيـرة للربيـع العـربي وقامـت بتنظيـم حلقـات نقـاش دوليـة حـول بنـاء السـلام، بالإضافـة إلى تقديـم تعليقـات حـول التناغـم الدينـي والتنـوع الثقـافي.

زمرد سوئميز

زمـرد سـوئميز هـي صحافيـة وكاتبـة تعمـل في تي آر تي العالميـة منـذ عـام 2015. تعمـل كمنتجـة ومحـررة برامـج لـتي آر تي العالميـة في إسـطنبول ولنـدن وواشـنطن العاصمـة. وهـي حاصلـة عـلى درجـة البكالوريـوس في اللغـة العربيـة وآدابهـا وشـهادتي الماجسـتير في دراسـات الـشرق الأوسـط مـن جامعـة مرمـرة ودراسـات الهجـرة والشـتات مـن جامعـة SOAS في لنـدن.

إدز تيانسان

يعيـش إدز تيانسـان حاليًـا في لـوس أنجلـوس، كمراسـل تي آر تي العالميـة لأمريـكا اللاتينيـة. وقـد سـبق لـه أن قـدم تقاريـر مـن إسرائيـل وفلسـطين منـذ سـبع سـنوات، حيـث قـدم تغطيـة مكثفـة للحـروب في غـزة وليبيـا وسـوريا. كـما أنـه عـاش في سـبع دول، ويتحـدث سـبع لغـات، ويسـتخدم التعاطـف باعتبـاره القـوة الدافعـة الرئيسـية في قصصـه.

هيا الأتاسي

هيـا الأتـاسي هـي باحثـة مشـاركة في مركـز أبحـاث تي آر تي العالميـة. حصلت عـلى درجـة البكالوريـوس في الدراسـات السياسـية مـن الجامعـة الأمريكيـة في بـيروت وشـهادة الماجسـتير في العلاقـات الدوليـة مـن جامعـة البوسـفور في إسـطنبول. كانـت هيـا ناشـطة في العمـل الإنسـاني منـذ عـام 2011 حيـث تطوعـت مـع الهـلال الأحمـر العـربي السـوري. كـما عملـت في هيئـة الإغاثـة الإنسـانية الدوليـة. تشـمل اهتمامـات هيـا البحثيـة الـشرق الأوسـط وعلـم النفـس السـياسي وحـل النزاعـات والسياسـة والديـن والهويـة.

ملحوظة المحرر

في أوائلِ التسعينيات، قام أكاديميون في الدراساتِ الإعلامية والعلومِ السياسية بصياغةِ تعبير «تأثير سي أن أن» على أنه انعكاسٌ للتأثيرِ الملحوظ للتغطية الإخبارية على مدارِ 24 ساعة على صُنّاع القرار. هذا التعبير تسبّب في أن تصبح أخبار التلفزيون بشكلٍ عام، وشبكة سي أن أن بشكلٍ خاص، ذات دورٍ مؤثّر للغاية في تشكيلِ أجندة السياسة الخارجية الأمريكية. التدخل الأميركي في شمال العراق في أوائل عام 1991 وفي الصومال في ديسمبر 1992 يصبّان في هذه النقطة تحديدًا. ومع ذلك، هذا الحماس لم يدم طويلاً. فقد أظهرت سلسلة من الدراسات الكمية المُتعمقة أنّه قد تمّ استخدام هذه الروايات الإنسانية لدوافع الخدمة الذاتيّة وأنّ أجندة الولايات المتحدة كانت في الغالب تدخّلية وعسكرية بطبيعتها.

وبعد أن أصبح العالمُ متصّلاً رقميًا، لم تعد شبكة سي أن أن هي منفذ الأخبار الدولية الوحيد البارز. ذلك بأنّ عدّة محطّاتٍ تلفزيونية تبث الأخبار حاليًا باللغة الإنجليزية كما أنّها تبث في الوقت الفعلي على مدار الساعة. وهذه القنوات تشمل: بي بي سي نيوز (المملكة المتحدة)، سكاي نيوز العالمية (المملكة المتحدة)، إن إتش كاي العالمية (اليابان)، الجزيرة الانجليزية (قطر)، فرانس 24، دي دبليو-تي في (ألمانيا)، يورونيوز، آر تي (روسيا اليوم)، بريس تي في (إيران)، شبكة التلفزيون العالمية في الصين (سابقًا سي سي تي في العالمية)، كاي بس سي وورلد (جنوب كوريا)، شانيل نيوز آسيا (سنغافورة)، تي في سي نيوز (إفريقيا)، أستراليا بلس، أستراليا تشانيل، وغيرها الكثير. فبفضلِ قدرة المذيعين على عبورِ الحدود الوطنية، استطاع التلفزيون الإخباري توسيع بصمته. وبالتالي، أصبح المليارات من الناسِ يعتمدون على شاشة التلفزيون من أجل الحصولِ على الأخبار ووجهات النظر العالمية وللترفيه أيضًا. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ القدرة على التواصل مع الجماهير الأخرى حول العالم أصبحت مؤشرًا رئيسيًا لجهود الدبلوماسية العامة الفعّالة لجميع الدول.

منذ بداية الألفية الجديدة، سعت تركيا إلى الظهورِ بين الدول الرائدة في العالم وحققت في ذلك تقدّمًا ملحوظًا. على الرغم من عدم الاستقرار الكبير في الشرق الأوسط الناتج عن الحروب في العراق وسوريا وأماكن أخرى، تفوّقت تركيا اقتصاديًا وحقّقت معدّلات نمو مرتفعة لفترة طويلة حتى منتصفِ عام 2018. في غضون ذلك، تجاوزت أنقرة كل التوقعات ليس فقط من خلالِ استضافة أعداد كبيرة من اللاجئين (أربعة ملايين) على أراضيها، بل وأيضًا من خلال المساهمة بحوالي 8 مليارات دولار لمشاريع المساعدات الإنسانية في جميع أنحاء العالم. وقد وضعت هذه الأرقام تركيا في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة في التصنيف العالمي، وهو أمرٌ مثيرٌ للإعجاب للغاية بالنظرِ إلى أنّ الدول الأكثر ثراءً قد فشلت في الوفاء بالتزاماتها المتعهِدة بها، ناهيك عن تجاوزها.

في موازاة ذلك، أصبحت تركيا مُدافعًا حقيقيًا عن قضايا المناطق الجنوبية من العالم، من خلال توفير الدعم الإنساني للمناطقِ والشعوب المنسيّة من دون مقابل أو أي عوائد اقتصادية، والأهم من ذلك، دون وجودِ جدولِ أعمالٍ عسكري، وهو الأسلوب الذي كانت تعتمدُه، للأسف، القوى العالمية. في الوقتِ نفسه، دافعت القيادة التركية أيضًا عن قضايا العديد من الدول النامية في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وعبّرت عن استيائها المتزايد تجاه الفجواتِ المتّسعة والانهيارات في الأوضاع الاقتصادية العالمية الحالية والنظام السياسي.

وعلى أثرِ ذلك، تم تأسيس تي آر تي العالمية، كأول إذاعةٍ دولية للغة الإنجليزية في تركيا في مايو 2015 والتي مقرّها في إسطنبول، حيث توفر القناة تغطية على مدار الساعة طوال الأسبوع للأخبار العالمية والشؤون الحالية. كما أنّها تستهدفُ المتابعين في جميع أنحاء العالم ويتم بثها عبر الأقمار الصناعية ومشغلي الكابلات وعبر المنصات الرقمية. بالإضافة إلى مقرها في إسطنبول، فإنّ تي آر تي العالمية لديها مراكز للبث في كلّ من واشنطن ولندن.

على الرغمِ من أن تأسيس تي آر تي العالمية حديث نسبيًا، فإنه أصبحَ بالإمكان استشعارُ تأثيرها. فقد قامَ خط التحرير والتغطية المتلاحقة بمنحِ الأولوية للبُعد الإنساني للنزاعاتِ التي تحدثُ في جميعِ أنحاء العالم. ولهذا السبب فإنّ هذه الشبكة التي مقرها في إسطنبول تخصّصُ الكثير من الوقت لبث معاناة المدنيين. بل إنّ عملية تسليط الضوء على معاناة المدنيين تزداد طردًا عندما يتم محاصرتهم في المناطق المدنية التي تشهدُ اقتتالاً وعنفاً، خصوصًا في المعاركِ التي تدورُ داخل المدن، وحتى أكثرَ من ذلك عندما تتعرضُ للقصف الجوي الهائل أو القصف المدفعي العشوائي. وهكذا، في حين أنّ العديد من المنظمات الإخبارية تغطي هذه الخطوط الأمامية من منظورِ الخطاب السائد، مُفضّلة التركيز على الأبعادِ العسكرية والسياسية، فإنّ تي آر تي العالمية تؤكّدُ على التكلفة الإنسانية لهذه الصراعات وتسلّطُ الضوءَ على المعاناةِ الإنسانية والضحايا والظلم.

وبالتالي، فإنّ تي آر تي العالمية قد وضعت نفسها بين عددٍ قليلٍ جدًا من القنواتِ التي تدافعُ عن قضايا الجنوب العالمي، وتتجنب ليس فقط بعض الصور السياسية والثقافية النمطيّة التي تنشرها وسائل الإعلام الرئيسية للشركات ولكن أيضًا تقوم بتحدّيها. وقد أدى ذلك إلى قيامِ مؤسسة الأخبار هذه التي تتخذُ من إسطنبول مقراً لها بتنظيم خطّها التحريري وبرامج الأخبار ونظام التشغيل، وتخصيص وقت البث وعدد القصص بطريقة تعكسُ الزوايا والمنظورات والقصص التي تعبرُ عن مناطق الجنوب العالمي. وهكذا، فإنّ تي آر تي العالمية تسيرُ في الطريق التي حاول العديد من القنوات المُضي بها ولكن لم تتكلّل محاولاتها بالنجاح. من خلالِ القيام بذلك، تُمثلُ تي آر تي العالمية نقلاً حقيقياً للمعلوماتِ التي تهدفُ إلى تغييرِ المفاهيم، وتوفير القيادة والمشاركة في وضعِ أجندة الأخبار العالمية على أمل أن يُعزّز ويُمكّن ذلك شعوب وثقافات الجنوب العالمي.

في هذا الكتاب، اجتمع بعض صحفيي وصانعي الأخبار والمنتجين المبدعين في تي آر تي العالمية لتبادلِ خبراتهم من جميع أنحاء العالم، فأعطوا صوتًا لمن لا صوت له، وأعطوا

المجال للعُزّل لإبراز فرديتهم ورؤيتهم للأمور، وكانوا الضمير الحي للقضايا والناس المنسيين. وهنا يسعى مجتمع تي آر تي العالمية الصحفي ليس فقط لتقديمِ تغطية متعمّقة وفي الصميم للحروب والصراعات ولكن أيضًا للإدلاء بشهادته على محنةِ المدنيين في هذه الخطوطِ الأمامية خارجِ قاعة الأخبار. يُغطي القسم الأول أزمة لاجئي الروهنغيا، حيث تحاولُ شميم شودري، التي عملت على نطاقٍ واسع في وكالات الأنباء التليفزيونية الدولية وغطّت العديد من مناطق العالم بشكلٍ شامل، رسم المسار المأساوي الذي يعاني منه لاجئو الروهنغيا وسطَ إبادةٍ جماعية مُمنهجة. هذا الصراع الذي اعتُبر بمثابة «أفضل مثال» للتطهيرِ العرقي، حسب التعريف الذي تبنّته الأمم المتحدة، هو صراعٌ وحشي حطم حياة الملايين. حيث تصفُ شودري بشكلٍ مؤثر التطهير العرقي المستمر من وجهة نظر الضحية، وتُسلّطُ الضوء على محنة الضحايا وكفاحهم اليومي في مخيمات اللاجئين.

يغطي القسم التالي صراعًا آخر ذا تكلفة بشرية عالية كذلك، وهو تمرد بوكو حرام في شمال نيجيريا. أديسيوا جوش، اختيرت كإحدى أكثر النساء تأثيراً في نيجيريا في عام 2019، إذ لها سجلٌ حافل في سردِ القصص من إفريقيا، كما قضت سنواتٍ عديدة في تقديم التقاريرِ النقدية عن تمرّدِ بوكو حرام، وكشفت عن تأثيرها المريع على النسيجِ الاجتماعي للبلد. حاولت هذه الجماعة الإرهابية اللعب على الخلافاتِ العرقية والدينية في البلاد، كما أنها استخدمت مزيجًا من سياسات الهوية والدعاية الدينية والمشكلاتِ الاقتصادية للحصولِ على الدعمِ في الجزء الشمالي من نيجيريا. تصفُ جوش زاوية مختلفة في هذه الحرب الوحشية؛ فهي تركّزُ على التكاليف الاجتماعية لهذا التمرّد من خلالِ تسليطِ الضوءِ على مأساةِ الفتياتِ والشابات اللاتي يتم أسرهن من قِبلِ بوكو حرام لاستخدامهن للاستعباد الجنسي وكمُفجّرات انتحاريات.

سارة فيرث هي مراسلة حرب بارزة، اعتادت على مواجهةِ مخاطر كبيرة وصعوبات أثناء عملها في الخطوطِ الأمامية. في الفصل الذي كتبته، تنقلُ فيرث وجهة نظرها حول اللاجئين السوريين الذين فرّوا من نظامِ الأسد القاتل. من جانبٍ آخر، تستضيفُ تركيا حوالي أربعة ملايين سوري في أراضيها، ولدى جميعهم قصص مأساوية يروونها عن أقاربهم وأصدقائهم الذين عانوا طويلاً على أيدي جنود الأسد والميليشيات الأجنبية وغيرها من الجماعاتِ الإرهابية مثل داعش. تتحدثُ فيرث أيضًا عن مغامرتها داخل سوريا، حيث بحثت في الأسبابِ الكامنة وراء النزاع، والإجراءات المُتواضعة التي اتخذها المجتمع الدولي، فضلاً عن التدخلات الأجنبية المختلفة وأثرها على الناس في النزاع الذي

تسبّب في ما لا يقلُّ عن 400 ألف حالة وفاة، وجرحِ العديد، وإزهاق ملايين الأرواح. علاوة على ذلك، هناك أكثر من 6 ملايين سوري تم نفيهم إلى الخارج، فضلًا عن 6.6 مليون نازح داخل سوريا نفسها.

في القسم التالي، تانيا غودسوزيان، التي جاءت إلى تي آر تي العالمية بخبرةٍ كبيرة من وسائل الإعلامِ الإخبارية في الشرق الأوسط وخارجه، تناقشُ المُعضلة الحساسة التي تواجه الصحفيين الذين يقومون بتغطيةِ الشؤون الإنسانية. غودسوزيان تقومُ بتشريحِ المخاوف الأخلاقية التي تواجه الصحفيين المعاصرين، وخاصة كيفية تجنب تشييء الضحايا الذين يعانون فقط من أجل الحصول على قصةٍ «جيّدة». أصبحت مواجهة هذه القضية ضرورية في القرن الحادي والعشرين حيث خلقت وسائل الإعلام، على حدٍّ تعبيرِ جورج دبليو إس ترو، «سياقاً من دون سياق». وبذلك تنضم إلى المراسل برنت ستابلز، الذي كتبَ في الماضي أنّ «لدى العصر الحديث إيماناً بأنّ صور المعاناة تحفّز الحساسية لتلك المعاناة.» لكنه أضاف أنّ هذه الصور ستؤدي في أغلب الأحيان إلى «التطبيع» مع الوحشية، وتحوّل «تشابه هذه الأحداث إلى شكل من أشكال الوحشية في حد ذاتها».

في الفصلِ الخامس، يقدمُ فرانسيس كولينجز، وهو صحفيٌّ إخباري دولي يتمتعُ بخبرةِ سنواتٍ عديدة مع هيئة الإذاعة البريطانية وغيرها من المؤسسات الاعلامية، رواية مؤثرة عن رحلته لتعلم اللغة العربية في دمشق في عام 2009. وصفه للوقت الذي أمضاهُ في العاصمة السورية هو خلفية لسردِ قصة الأشخاص الذين قابلهم هناك عندما بدأت الحرب منذ عام 2011 فصاعدًا. يصفُ كولينغز مسار العديد من أصدقائه ومعارفه وكيف كان للحرب تأثيرٌ كبير على حياتهم، حيث أصبح العديد منهم لاجئين في ألمانيا. تتعمقُ هذه القصة في الروابط الإنسانية والتفاعلات المجتمعية التي نادرًا ما ترتبط بأي تغطية إخبارية. وهكذا فهو يؤكّدُ أنّ اللاجئين ليسوا مُجرّد إحصاءات؛ بل إنهم بشرٌ يعيشون حياة عادية ويتطلّعون إلى حياةٍ أكثرَ كرامة وإنصافًا رغم كل الصعاب.

يستحضرُ إدز تيانسان عنصرًا رئيسيًا آخر للمعادلة، ألا وهو تدفّق لاجئي أمريكا اللاتينية. تيانسان، وهو مراسلٌ دولي مُتمرس، يفحصُ الأسباب الجذرية والديناميات المُعقّدة لتدفّقِ الهجرة المُستمر، والذي يُشار إليه أيضا باسم «قافلة المهاجرين». بينما يدورُ الخطاب المُنبثقُ عن الجماعاتِ اليمينية الأمريكية حول عاملِ الخوف، مُدّعين أنّ الولايات المتحدة على وشكِ أن تُهزم من طرف حشد من الإرهابيين والمجرمين من

أمريكا الوسطى، يستكشفُ تيانسان الجانب الآخر من المعادلة. إذ إنه يفحصُ البُعد الإنساني لهذه «القافلة»، وحقيقة أنّها مجرد أشخاصٍ أبرياء وعاجزين؛ بل والأكثر ضعفًا هم الأشخاص الفارّين من عنفِ العصابات، والاضطهادِ السياسي، والعوزِ الشديد.

في الفصلِ التالي، يُقدّمُ علي مصطفى، وهو مذيعٌ بارعٌ ومراسلٌ دولي، وجهة نظره حول العلاقاتِ السياسية في مناطق الحرب وكذلك التكلفة البشرية الناتجة والتي لا تُحصى والتي لا تزالُ تُدفع حتى اليوم. إحدى القضايا الهامة التي يبرزُها مصطفى هي التأثير السلبي على الصحفيين الذين يُغطون هذه القصص. عادَ مؤخَرًا من مُهمّة صحفيّة إلى كرايستشيرش، نيوزيلندا، حيث أصدرَ بعض التقارير المؤثّرة التي لا تُنسى حول الهجمات الإرهابية على المساجد في تلك المدينة. لا ينبغي لأحد أن ينسى أنّ اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD) لا يؤثرُ فقط على الأفرادِ العسكريين؛ بل يمكن أن يؤثر أيضًا على المراسلين الذين يغطون أحداث الحروب والهجمات الإرهابية. يفكّرُ مصطفى في مسألة كيف يمكن للمراسل التصالح مع حقيقة كونه شاهدًا ورسولًا لأحداثِ المعاناة والمآسي المتتالية. هذا صراعٌ حقيقي يواجه الصحفيين ويحتاجُ لأن يتم أخذه على محملِ الجد.

الدكتورة ميريام فرانسوا، كاتبة ومذيعة وأكاديمية تُعالجُ القضايا المرتبطة عادة بأزمة المهاجرين في أوروبا، تكشفُ عن محنة الآلاف من المهاجرين المحاصرين في ما يُسمى «كاليه جانغل» أو أدغال كاليه. في حين أنّ السلطات الفرنسية قامت بكلّ ما في وسعها لاقتلاعِ» الأدغال «في كاليه وما حولها بفعل أنّها قد تكونُ» بمثابةِ قاعدةٍ خلفية لعصاباتِ الاتجار بالبشر«، فإن الكثيرَ من المهاجرين عانوا كثيرًا بسبب الإهمالِ وظروفِ المعيشة غير السليمة. والأكثر من ذلك - كما طرحت المؤلفة - هي اللغة المُستخدمة في تصويرِ المهاجرين على أنهم آفة لا بدّ من إزالتها. زاوية أخرى مثيرة للاهتمام تمّت مناقشتُها في هذا القسم هي مُعضلة إضافية تواجه المراسلين، وهي كيفية نقل القصصِ دون التسبّب في «التعب من شعور التعاطف» أو «التعب من شعور الرحمة»، والتي تتسبب في تفكك و «تخدير» الجمهور المتلقي. تقدم فرانسوا بعض الكلمات الحكيمة والأفكار المفيدة للغاية في هذا الصدد.

في الفصل التالي، يروي أحمد علي أوغلو، المراسل المخضرم الذي تعلم أصول المهنة في غزة، وقدم تقارير ميدانية في خضم ظروفٍ صعبة للغاية خلال الحروب في غزة وسوريا. ففي سوريا، وسط الغارات الجوية وانقطاعِ التيار الكهربائي المستمر، كان على

عـلي أوغلـو مواكبـة جميـع الأحـداث الجاريـة واسـتخدام الحيلـة في مـراتٍ عديـدة، ومـن بينهـا حـين لجـأ إلى راديـو سـيارته لمواصلـةِ الاسـتماع إلى الأخبـارِ والمعلومـات المفيـدة مـن أجـل إعـداد تقاريـره. يوثـق عـلي أوغلـو الآثـار العنيفـة التـي يتعـرضُ لهـا ضحايـا غضـب إسرائيـل، مـما يتناقـضُ مـع أسـطورةِ الحـرب «النظيفـة» التـي تـروجُ لهـا الآلـة الدعائيـة للدولـة اليهوديـة.

أخـيرًا، تقـدمُ مـاري صليبـا، التـي تتمتـعُ بخـبرةٍ جيـدة في الشـؤون السياسـية والأمنيـة والقانونيـة والإنسـانية في الـشرق الأوسـط، رؤيتهـا وتجاربهـا حـول وضـعِ اللاجئـين السـوريين في لبنـان. نظـرت صليبـا، وهـي مُلمّـة بالطبيعـة المُعقـدة والديناميكيـة للسياسـة اللبنانيـة، مـن منطلـقٍ إنسـاني مـن خـلالِ منظـورِ الثقافـة والعمـلِ الجماعـي لمناقشـةِ هـذا الموضـوع الـذي يـدورُ حولـه نقـاشٌ سـاخن. إنّ اختيارهـا لأبطـالٍ مختلفـين يسـمحُ للقـرّاء بفهـمِ حجـمِ وتأثـيرِ المجتمـع وتنـوّعِ تدفّـقِ اللاجئـين الحـالي في لبنـان.

وبشـكلٍ عـام، يجمـعُ هـذا الكتـاب المدخـلات التـي أبرزهـا صحفيـو تي آر تي العالميـة في هـذا الموضـوع الهـام. كـون هـذه المسـاهمات قـد قُدمـت خـارج حـدود روتـين غرفـة الأخبـار وأضافـت المزيـد مـن الأصالـة والقيمـة. إنّ خلفيـات المؤلفـين المتنوّعـة جعلـت كلّ موقـفٍ مميّـزاً وكل تجربـة فريـدة مـن نوعهـا. وهـذا بـدوره يؤكّـدُ الفروقـات الدقيقـة التـي تصاحـبُ النقـاش حـول اللاجئـين، والحـركاتِ الإنسـانية بشـكلٍ عـام. هـذه المجموعـة مـن القصـص في هـذا المجلـد لا تسـهمُ فقـط في تحديـدِ السـياق، ولكـن أيضًـا لتشـجيعِ النقـاش التبـادلي حـول هـذا الموضـوعِ بشـكلٍ إنسـاني ذي رحمـة.

د. طارق الشرقاوي

مديـر مركز أبحاث تي آر تي العالمية

أزمة لاجئي الروهنغيا

أفضل مثال للتطهير العرقي

بقلم شميم شودري

أطفـال داخـل مخيّمي كوتوبالونغ وبالوكالي في جنـوب بنغلاديش بالقرب من كوكس بازار

قبل عدّة سنوات، صادفتُ صورة لامرأةٍ عجوز مجهولة، ربما في التسعينيات من عمرِها، مُرتدية فستانًا أزرق ومشبكًا صغيرًا في شعرها. أتذكّرُ أنني كنتُ أفكرُ في أنّ كلّ خط محفور في وجهها المجوّف يمثلُ قصة، ليس فقط لحياةٍ جيدة، ولكن أيضًا كان واضحًا أن له نصيباً من التجاربِ والمحن. ولكن أكثرَ ما أثارَ دهشتي هو حيوية أحمرِ الشفاه الوردي الفاتح على شفتيها، كما لو أنّ الحياة ما زالت، رغم كلّ شيء، متشبثة بالأمل.

تكمنُ شدة اللوحة في التذكيرِ بأنّ الطبيعة المؤقتة المأساوية لوجودنا تندمجُ دائمًا مع الرغبة الغالبة في البقاء. هذا الأملُ في مواجهةِ المحتومِ جزء منا جميعًا. تركت اللوحة انطباعًا دائمًا بداخلي، ووجدتُ نفسي أفكّرُ في الأمرِ مرة أخرى عندما زرتُ معسكراتِ الروهينغيا في بنغلاديش في خريف عام 2017.

كانت أوّل لمحة لي عن اللاجئين في شهر سبتمبر، عندما رافقتُ السيدة الأولى التركية، أمينة أردوغان، ووزير الخارجية التركي مولود تشاووش أوغلو، إلى المخيماتِ القريبة من مدينة كوكس بازار الجنوبية. قبل بضعةِ أسابيع فقط، كانت ميانمار قد شنت حملة عسكرية وحشيّة في الأجزاء الشمالية من ولاية راخين، مما أجبر حوالي 700 ألفٍ من مُسلمي الروهنغيا على الهجرة الجماعية.

في ذلك الوقت، كان فريقنا هو من أحد الفرق الإعلامية الدولية القليلة المسموح بدخولها إلى المخيمات، وذلك لأنّ تركيا تعهدّت بتقديمِ ملايين الدولارات كمساعداتٍ حيث كانت السيدة الأولى ستقومُ بتسليمِ الشحنة الأولى. كان يرافقنا في هذه الرحلة وسائل إعلام وطنية تركية، وأعضاء الصحافة البنغلاديشية، وعددٌ قليلٌ من وكالاتِ الأنباء الدولية وجميعهم كانوا مثلنا مرتبكين، حيث كنا نسيرُ على طولِ طريقٍ ترابي يمتدُّ إلى عمقِ المخيمات، جالسين بانتظارِ المجهول.

فور وصولنا، شاهدنا امرأة مُسنّة في حالة بائسة من رحلتها التي استمرّت تسعة أيامٍ عبر الحدود ومن الفظائعِ التي شهدتها وعانتها وقد ألقت ذراعيها حول رقبة السيدة الأولى وأخذت بالبكاء. في تلك اللحظة، فهمتُ معنى فقدان الأمل؛ كانت اللحظة التي تلاشى فيها أحمر الشفاه اللامع، وكل ما تبقى من ذلك الأمل هو ألَمٌ دائمٌ يعصفُ بعنف.

في ذلك اليوم، تركت مرارة القدر أثرها على الوجوه المضروبة من رجال الروهنغيا الذين وقفوا مرتدين السارونغ (لباسهم التقليدي) وهم يُحدّقون في حيرةٍ من أمرهم. هذا القدر الذي ترك بصماته على النساء، ووجوههن شبه مُغطاة بالساري القطني، كما لو كان ذلك يُخفي بطريقةٍ أو أخرى عار انتهاك أعراضهن بأيدي الجيش. هذا القدر الذي التفّ حول جثث الأطفال العارية المنتفخة والمليئة بالجوع والإهمال. في هذه الزيارة، لم أتمكن من سماعِ قصصهم لأنّ وقتنا داخل المخيمات كان قصيرًا ومُقيّدًا. لكن قضاء أربع وعشرين ساعة في بنغلاديش كان كافيا لإدراكِ أهمية نشر الجنود على الحدود. كانت هذه واحدة من أولى اللمحات التي سيحصلُ عليها العالم من أزمة الروهنغيا التي بدأت حديثًا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتمكن فيها كثيرٌ من اللاجئين من الحصول على الغذاء والدواء.

تركت هذه الرحلة الأولى انطباعًا لا يُمحى، لكن الوضع سوف يزداد سوءًا. بعد بضعة أسابيع، عدتُ إلى كوكس بازار، هذه المرة لمدة أسبوع ودون مرافقةِ أيّ مسؤول. في ذلك الوقت، كانت السلطات البنغلاديشية تمنحُ تأشيراتٍ للصحفيين بحرية. فقد أعطيت صلاحيات منح التأشيرات لجميعِ سفاراتهم في جميع أنحاء العالم دون الرجوع إلى أي سلطات عليا في العاصمة دكا. جاء ذلك في منعطفٍ صارم في سياسة بنغلاديش بشأن الصحفيين الأجانب الذين ينقلون تقاريرهم عن الروهنغيا؛-والتي كانت في الواقع مناطق مغلقة لسنوات عدّة إلى أن أصبحت الآن المخيمات مكتظّة بالصحافة الأجنبية.

كان سبب التخلي عن سياسة رفض الإعلام واضحًا. ففي الماضي، لم يكن من مصلحة بنغلاديش أن تكشفَ للعالمِ عن الظروف القاسية التي يعيشها الروهنغيا، البالغ عددهم حوالي 400 ألف، الذين أُجبروا على الفرارِ من ميانمار. ولكن مع تجاوزِ عدد المهجّرين أكثر من مليون شخص، احتاجت البلاد إلى قدرٍ كبير من الاهتمام والمساعدة. قامت رئيسة وزراء بنغلاديش، الشيخة حسينة، بزيارتها الأولى والوحيدة للمخيمات قُبيل زيارتنا الثانية، على الرغم من وجود مئات الآلاف من الروهنغيا في البلاد منذ سنوات. أثناء حضورنا، صادفنا العشرات من الملصقات التي تحملُ عبارة «أم الإنسانية» مكتوبة بحروفٍ كبيرة فوق صورِ وجهها المبتسم الذي يشبه العمّة. لكي نكون مُنصفين، ينبغي الثناء على بنغلاديش لأنها استقبلت أعدادًا كبيرة من الضحايا الذين وصفتهم الأمم المتحدة بأنهم يعيشون حالة واضحة من حالات التطهير العرقي. في وقتٍ سابق خصصت الحكومة آلاف الفدّانات من الأراضي التي سيُبنى فيها المزيد من المخيمات فيها، وأنشأت فرق عملٍ للتعاملِ مع اللاجئين. كما شهدنا العديد من شاحنات الجيش والجنود وهم يوزعون الطعام ويساعدون في جهود الإغاثة.

ولكن الكم الأكبر من المساعدات جاء من البنغلاديشيين المحليين، مجموعات من الرجال الذين وصلوا إلى المعسكرات في السيارات الصدئة المنعشة المُحمّلة عشوائياً بالبطانيات والأواني والمقالي وأكياس الأرز وغيرها من المساعدات. لقد كانوا في كلّ مكان، هؤلاء الأبطال المجهولون ذوي العيون المتعبة من جرّاء القيادة عبر أنحاء البلاد طوال الليل، وقمصانهم الباهتة وبناطيلهم المدعوكة يستقلّون وسائل نقلهم المتواضعة ويعملون ليلًا ونهارًا تحت أشعة الشمس الضاربة.

أخبرونا أنّه واجبٌ عليهم أن يقوموا بمساعدة من هم بحاجة أكثر منهم. أخبرونا كيف أنه فور سماعهم بالأزمة، قاموا بجمعِ أي شيء وكل شيء يمكن لأي شخصٍ أن يدّخره

قبل الخروج إلى الطريق، وهم يجهلون ما الذي كان بانتظارهم. ربما كانت مساهماتهم متواضعة بالنظر إلى حجم الكارثة، ومقارنة بجهود وكالات المعونة الدولية الكبرى، لكن بدا لنا أنّ هذا التعاطف من البنغلاديشيين العاديين كان له صدى أقوى مع الروهنغيا أكثر من أي شيء آخر.

قضينا معظم الأيام من الصباحِ حتى حلول الظلام في عمق المخيمات، ونحن نقومُ بتصويرِ وتسجيل قصة تلو أخرى. هكذا علمنا عن أهوال الحياة في ولاية راخين، وليس فقط في الآونة الأخيرة ولكن لعقودٍ من الزمن. من المعروفِ جيدًا أنّ الروهنغيا كانوا يعيشون في ميانمار منذ سنوات عديدة، ولكن هناك أدلة تاريخية كثيرة تشير إلى أنّ جذورهم الطويلة الأمد منذ قرون تعودُ إلى المنطقة المعروفة آنذاك باسم أراكان.

لقد عانى هؤلاء من التمييز العنصري لسنوات، حتى تم تجريدهم من جنسيتهم في عام 1982 مما جعلهم بدون جنسية. حتى إنّ ميانمار ترفضُ استخدامَ كلمةِ «روهنغيا» عند الإشارة إلى أكثرِ من مليون من هؤلاء الأشخاصِ الذين يعيشون في أراضيها، بدعوى أنهم من أصلٍ بنغالي وبالتالي فهم ينتمون إلى بنغلاديش.

سرد اللاجئون الذين قابلناهم العديد من الرواياتِ عن الاضطهاد المتّسقِ والمنظّم. أخبرتنا امرأة عجوز تدعى بودو زون: «عندما كنت صغيرة، اعتاد الجيش أن يأتي لمجرد تهديدنا»، «لكن هذا العام كان الاضطهاد غير مُحتمل. حقا لا يُطاق». بعد سنواتٍ من التحمّل، وبعد سماعِ أنّ الجيشَ قتل شقيقها، فرّت بودي زون أخيرًا من ولاية راخين وأخذت أحفادها الثلاثة معها.

قال عزيز الرحمن، وهو رجلٌ يبلغُ من العمرِ 23 عاماً: «إنهم لا يدعونا نصلي في المسجد ولا يسمحون لنا باستخدامِ الكهرباء في المساجد. لا يُسمحُ إلا بالشموع. إذا لم نتّبعَ تعليماتهم، فسيحرقون المساجد. كانت العصاباتِ البوذية دائمًا تقتحمُ قرانا. وكانوا يعاقبوننا بشكلٍ عشوائي، حتى في حالة عدم وجود أي جريمة». يهربُ الروهنغيا من ميانمار منذ سنوات بحثًا عن ملجأ، ليس فقط في بنغلاديش، ولكن أيضًا في باكستان والسعودية وماليزيا وبلدانٍ أخرى. ولكن أكبر نزوحٍ حدث في عامِ 2017. وقد اشتعلت الأزمة مع هجومٍ على عدة مراكز للشرطة على أيدي مجموعةٍ من شبابِ الروهنغيا الذين يطلقون على أنفسهم اسم آرسا، أو جيش أراكان روهنغيا للإنقاذ، الذي تقولُ

حكومة ميانمار إنها منظمة إرهابية. ثم جاء الغضب العظيم للجيش الذي استهدف، بمساعدة الجماعات البوذية المسلحة، الرجال والنساء والأطفال بشكلٍ عشوائي، وأحرق قرى بأكملها واغتصب وقتل الآلاف من الناس. «لقد أشعلوا النارَ في كلّ شيء»، تتذكر بودو زون، «لقد رأينا ذلك أثناء فرارنا. لم نعد نستطيعُ تحمّل الاضطهاد والتعذيب. ضربونا وقتلونا وأحرقوا منازلنا. وكان الجيش يفعل أشياء سيّئة للنساء.» وحتى يومنا هذا، لم تعترف زعيمة ميانمار والحائزة على جائزة نوبل للسلام، أونغ سان سو كي، بحجمِ الهجمات. لقد ذهبت إلى حدّ ادّعاء عدم وجودِ أيّ اشتباكات مسلحة، وأنّ الأحداث كانت مجرد «عملية استهداف للإرهابيين». وأضافت أنّ العملية انتهت بحلولِ 5 سبتمبر، لكننا عندما وصلنا بعد ذلك التاريخ، وفي أكثرِ من مناسبة عندما كنا على مقربةٍ من الحدود، كان من الممكنِ أن نرى أعمدة دخان تتصاعدُ باستمرار من جانب ميانمار.

وقد زعمَ الجيش أنّ الروهنغيا أنفسهم أشعلوا النار في منازلهم. حتى إنّ السلطات في ميانمار لم تسمح حتى الآن لصحفي واحد بدخول راخين، بل إنها رفضت الطلبات المتكررة من الأمم المتحدة لإجراء تحقيقٍ مستقل. ذلك لأنه لا توجد وسيلة للتحقّقِ من الأحداث التي وقعت هناك في صيف عام 2018 إلا من خلالِ الشهادات الشفهية للروهنغيا أنفسهم، بالإضافة إلى الأدلة الطبية.

في الأسابيعِ الستة الأولى بعد الهجمات، فرّ عشرات الآلاف من الروهنغيا من ميانمار كلّ يوم، وعبروا الحدود حُفاة حاملين معهم ما استطاعوا من الأشياءِ الصغيرة التي يمكنُ إنقاذها. اجتازَ اللاجئون من جميعِ الأعمار التضاريس الغادرة، وعبروا الأرض والنهر والبحر، حيث ساعدهم رجالُ قواربِ بنغلاديش المحليّون في قواربهم الخشبية الصغيرة.

عندما وصلنا كانت الأرقام التي تعبر إلى بنغلاديش قد بدأت بالانخفاض. ولكن في يومٍ من الأيام وصلتنا إفادة من رجلٍ يسكنُ في المنطقة قال بأن بعض الروهنغيا ما زالوا يتوافدون في الليل. وهكذا، تحت سماءٍ وردية غامقة تحملُ تحذيراً من عواصف تلوح في الأفق، انطلقت سيارتنا على طولِ طريقٍ ترابي لا نهاية له على ما يبدو باتجاهِ مسارٍ صغير على حافة حقل الأرز. وصلنا في النهاية إلى مكانٍ يُدعى بالونج كالي، على بعدِ كيلومترٍ واحد فقط من الحدود. لم يكن هناك أحدٌ غير الصحفيين. في البداية لم نرَ شيئا. ثم ببطءٍ شديد بدأنا نلاحظ نقاطاً صغيرة من الضوء تتجه نحونا بثباتٍ خلال ظلام الليل.

فجأةً أصبحوا بيننا. مئات من الروهنغيا يعبرون من خلالِ حقول الأرز والمستنقعات العميقة. كان مشهدًا يُرثى له. رجال ونساء وأطفال من جميعِ الأعمار، هياكل عظمية ونصف جوعى، انحنى بعضهم، مائلًا على العصي للحصولِ على الدعم، وجوههم الهزيلة تحكي المآسي التي مرّوا بها، وعيونهم الغائرة تعبّر عن الألمِ والخوف.

لكنّ ما أدهشني أكثرَ من أيّ شيءٍ آخر كان الصمت الذي رافقهم، وهو الهدوء الذي كان بعيدًا كلّ البعدِ عن الصفاء الذي يأتي مع راحةِ البال. كان المئاتُ من الروهنغيا يتوافدون باتجاهنا، لكن الصوت الوحيد الذي جاء في تلك الليلة كان من الصراصير والحشرات الأخرى التي عشعشت بين الغطاء النباتي. كل ما حدث على بعد بضعة كيلومترات من المكان الذي كنتُ أقف فيه قد كتم هؤلاء الناسِ بشكلٍ واضح.

على الرغمِ من تعبهم، استمرّ بعضهم في السيرِ إلى داخلِ المخيمات القائمة، أما البعض الآخر فقد استنفدوا طاقتهم لاتخاذِ خطوةٍ أخرى، فما كان منهم إلا أن لجأوا إلى مسجدٍ قريب، والبعض الآخر وجد حديقة مكتظة فألقى بنفسه فيها. شقّ آخرون طريقهم نحو منزلين خارجيين يُستخدمان عادة كمأوى للحيوانات. هنا، انهاروا على الأرض الرطبة والخرسانة وهم يتخبّطون في الظلام حتى وجدوا لنفسهم بقعة صغيرة بين القاذورات. أثناء محاولتنا لتصوير المشهد، كادت رائحة البراز والبول والعرق تخنقنا، في حينِ أنّ أنين الرجال والنساء وهياجِ الأطفالِ كانوا بمثابة الموسيقى التصويرية لفيلم رعب.

كانت الظلماء تنقطعُ بين الحين والآخر بوميضٍ من البرق، وتركت زخّاتُ المطرِ رطوبة بدت وكأنها تتسرّبُ إلى عظامنا. تحدّثَ عددٌ قليلٌ من الروهنغيا عن المذبحةِ التي شهدوها. كنا في كثيرٍ من الأحيانِ نسمعُهم يقولون: «كان علينا أن نسلكَ طريقًا أطول لتجنّبِ القتل»، هذا ما كشفه رجلٌ يدعى يونس، «إنهم يقتلون الناس أو يقطّعونهم إلى قطعٍ أو يحرقونهم. رأينا الكثير من الجثث في طريقنا إلى هنا.»

«لم نأكل بشكلٍ جيّد منذ سبعة أيام»، قالت السيدة الشابة رازو بيجوم، وهي تندبُ محاولة تهدئة صرخاتِ الطفلِ الرضيع بين ذراعيها، بينما كان أطفالُها الأربعة الآخرون جالسين بجانبها. «أخيرًا أكلنا شيئًا الليلة الماضية. وجدَ أحدُ أولادي بعض الفاكهة المجففة في الطريق إلى هنا. أطفالي جائعون وضعفاء»

أخبرنا إمام مسجدٍ في الجوار أنّ الإمدادات القليلة التي كان قد وضعها جانباً قد نفدت، والآن لم يعد لديه شيء ليقدِّمه لهم. لم يكن أمام اللاجئين خيار سوى الانتظار حتى وصولِ المساعدة. لم تكن ظروف المخيمات أفضلَ بكثير. فقد تركت الأمطارُ الموسميّة بصماتِها في كلّ مكان على شكلِ طينٍ سميك يُشبه العسل الأسود ولون الكراميل.

كان اللاجئون يعيشون في خيامٍ واهية مصنوعة من أغطيةٍ بلاستيكية موصولة معاً بعيدانٍ من الخيزران، والتي كانت بالكادِ تقي من الأمطار الغزيرة. مع القليلِ من المساعدة المتوفرة، كان الكثيرُ منهم يبنون منازلهم بأنفسهم على تلالٍ من الطينِ التي تبدو كما لو أنها ستنهارُ في أيّ لحظة.

كان الطعامُ شحيحًا. كلّ يوم، وفي جميع أنحاء المخيم، رأينا المئات من الناس ينتظرون في طوابير لساعات للحصولِ على حصص الأرز التي من المفترض أن تكفي عائلاتهم لمدة أسبوع كامل. في إحدى المرات، علقت إطارات شاحنة الإغاثة في الوحل، فتم سرقة محتويّاتها في غضون دقائق. كانت مياه الشرب تُجلب في براميلٍ كبيرة، إلا أنّها لم تكن تُغطّي الحاجة الكبيرة. كان الصرف الصحي غير موجود. كما كان الذباب يحتشد حول أواني الأرز قبل أن يشقّ طريقه نحو الصرف الصحي المفتوح.

في إحدى المرّات، صعدنا إلى قمة تلة حيث تم بناء معسكرٍ جديد. لقد كانت مشواراً مُتعبا. ثم نظرنا للأسفلِ على امتدادِ الخيام التي لا تنتهي أبدًا والتي امتدت أمامنا. كانت هذه هي اللحظة التي بدأنا فيها بالفعلِ فهمَ هولِ الأزمة.

في خضم كلّ هذا، كان السيناريو الأكثر إثارة للحزن هو مشاهدتنا مجموعات من الأطفال الصغار، بما في ذلك العديد من الفتيات الصغيرات، مرتدين ملابس تقليدية نابضة بالحياة. رأيناهم يلعبون في البرك القذرة المليئة بالأمراض، وهم يصرخون في فرحة بريئة، غافلين بوضوح عن حجمِ محنتهم. عادت إلى ذهني المرأة المُسنّة في اللوحة، كيف أنّ أحمر الشفاه الوردي واللباس الأزرق لم يتمكنا من الانتقاص من حزنها الأساسي. وبنفس الطريقة، فإنّ الفيروز والأرجواني والبرتقالي لفساتين البنات الصغيرات لم يكن سوى نبضات سعادة قصيرة بعيدة عن حقيقة وجودهنّ المؤلم.

شميم شـودري داخل مخيمي كاتابالونغ وبالوكالي

سـافرنا إلى المستشـفى المحـلي في كوكـس بـازار، حيـث تـم نقـل اللاجئـين المصابـين بجـراحٍ خطـيرة. كان مكتظـاً جـدًا. تـم إنشـاء جناحـين مُخصّصـين للروهنغيـا، ولكـن حتـى ذلـك الحـين، عولـج الكثـيرون عـلى أرضيـاتِ الممـرات بسـببِ نقـصِ الأسِرّة.

كانـت الإصابـات مُروّعـة. ومـن بـين الضحايـا العديديـن، وجدنـا امـرأة كان جـزء كبـير مـن جمجمتهـا مقطـوع مـن قبـل أفـراد مـن جيـش ميانمـار. كان وجـه امـرأةٍ أخـرى مُحترقًـا بشـكلٍ سيّء للغايـة لدرجـة أنـه بالـكاد يمكـن رؤيـة ملامحهـا. الكثـير مـن المشـاهد التـي قمنـا بتصويرهـا كانـت قاسـية للغايـة بحيـث لا يُمكـن بثهـا. أخبرَنـا الأطبـاء أنّ الغالبيـة العظمـى مـن الإصابـاتِ كانـت جروحـاً وكسـورا. جميـع أصابـع الاتهـام كانـت تُشـيرُ إلى جيـشِ ميانمـار. أحـد المـرضى، وهـو الإمـام حسـين، أُصيـب برصاصـة في القـدم بعـد أن دخـل الجيـش قريتـه وفتـحَ النـارَ بشـكلٍ عشـوائي.

يخبرُنـا الإمـام حسـين: «لم يبـقَ لـديّ أي دمـوع. لقـد هاجمَنـا جيـشُ ميانمـار عـدّة مـرات مـن قبـل، لكـن هـذا الهجـوم الأخـير كان الأسـوأ. عندمـا بـدأوا بإطـلاقِ النـار بشـكلٍ عشـوائي، أُصيـب شـخصٌ مـا بالرصـاصِ في سـاقه، كـما قُتـل شـخصٌ آخـر في رأسـه. لحسـن الحـظ، التجـأتُ إلى الغابـة واختبئـتُ فيهـا، لكـن الذيـن لم يختبـؤوا تـم ذبحهـم.» أخبرَنـا أنّ شـقيقه قـد لفّـه ببطانيّـة ونقلـه إلى بنغلاديـش.

كانـت الزيـارة الثالثـة التـي قمنـا بهـا إلى المخيـمات في ديسـمبر 2017، عندمـا كنـتُ أرافـقُ رئيـس الـوزراء الـتركي آنـذاك بـن عـلي يلدريـم في مهمـة لتوصيـل المسـاعدات. بحلـولِ ذلـك الوقـت، بـدت المخيـمات أكـثر تنظيـمًا واسـتقرارًا إلى حـدٍ مـا، كـما بـدت الخيـام أكـثر صلابـة بعـض الـشيء، وكان هنـاك المزيـد مـن خزانـات الميـاه، وقـد تـم حفـر شـبكات الـصرف الصحـي، وحتـى إنّـه بـات بإمكاننـا أن نـرى بعـض المراحيـض هنـا وهنـاك. وقـد تـم إنشـاء عـدد مـن وكالات الإغاثـة والمراكـز الطبيـة التـي تقـدمُ الرعايـة الصحيـة الأساسـية للحوامـل وللمـرضى الذيـن يعانـون مـن أمـراضٍ مختلفـة. بالإضافـة لمراكـزِ توزيـعِ المـواد الغذائيـة التـي قـد أصبحـت توجـدُ بشـكلٍ دائـم. كانـت الـوكالات الإغاثيـة بمـا في ذلـك الهـلال الأحمـر الـتركي و آفـاد وغيرهـا تُقـدّمُ وجبـاتٍ سـاخنة للغـداء والعشـاء. أخـبرني يلدريـم، وقـد أجريـتُ معـه مقابلـة مـن داخـل المخيـمات، أنّ الجمعيـات الخيريـة التركيـة تنـوي البقـاء مـا دامـت الحاجـة موجـودة.

لكـن المخيـمات كانـت لا تـزال محفوفـة بالمشـاكل. أودى تفـشي مـرض الدفتيريـا بحيـاةِ العـشرات مـن الأشـخاص، وبـدأ زواج القـاصرات مـن أجـلِ تخفيـفِ عـبء الآبـاء الذيـن لديهـم الكثـير مـن الأفـواه التـي لا يسـتطيعون إطعامهـا. ومـع اقـتراب نهايـة العـام، بـدأت بنغلاديـش وميانمـار بمناقشـة اسـتراتيجية مُحتملـة للسـماحِ للروهنغيـا بالعـودة إلى ديارهـم.

بعـد بضعـة أسـابيع مـن المحادثـات قامـوا بتوقيـع اتفـاق، ولكـن حتـى هـذا اليـوم، لم يبـدأ تطبيـق برنامـج العـودة الجماعيـة إلى الوطـن، لأسـبابٍ ليـس أقلّهـا أنّ ميانمـار لم تكـن قـادرة عـلى تقديـم ضـمانٍ كامـل بـأنّ الروهنغيـا سـيكونون قادريـن عـلى العيـش في أمـان ودون تعـرّض للقمـع. كذلـك فـإنّ مسـألة إعـادة تجنيسـهم، التـي لا تـزالُ عـلى رأسِ قائمـة مطالبهـم، لم تكـن مطروحـة للنقـاش. وبالرغـم مـن أنّ برنامـج الإعـادة إلى الوطـن كان مـن المفـترض أن يكـون طوعيـاً، لكـن في النهايـة، عـددٌ قليـل جـدًا مـن النـاس أراد العـودة.

كان نـزوح الروهنغيـا عـام 2017 بـلا شـكّ أحـدَ أكـبرِ الأزمـاتِ الإنسـانية في عصرنـا. وقـد وُصـف عـلى نطـاقٍ واسـع بأنـه إبـادة جماعيـة. ونقـلاً عـن الأمـين العـام للأمـم المتحـدة، أنطونيـو جوتيريـس : «لقـد تدهـورَ الوضـعُ إلى أن أصبـحَ حالـة الطـوارئ الأكـثر حـدةً في العـالم للاجئـين وكابوسـاً بحـق الإنسـانية وحقـوق الإنسـان.»

الوقـت الـذي قضيتـه في المخيـمات لم يـترك لي أيّ شـك حـول مـا حـدث داخـل ولايـة راخـين والأسـباب التـي دفعـت الروهنغيـا للفـرار. كانـت القصـص العديـدة التـي سـمعتُها مـن اللاجئـين مروّعـة مثـل جروحهـم. لا يوجـد سـببٌ للشـك في أيّ مـن شـهاداتهم. إلا أنّ صـور الأقـمار الصناعيـة التـي نشرتهـا مجموعـات حقـوق الإنسـان عـن القـرى المحترقـة وأعمـدةِ الدخـان قـد قدمـت دليـلًا إضافيًـا.

أخبرنـا عـددٌ قليـل مـن الروهنغيـا أنهـم سـيودّون يومًـا مـا العـودة، لكـن فقـط إذا تـم ضـمان حقوقهـم. غـير أنّـه لا يبـدو أنّ ذلـك سـيحدثُ في أيّ وقـتٍ قريـب. لكـن مـع تحـوّلِ الأسـابيع إلى شـهور سـتصبحُ الأشـهر بـلا شـكّ سـنوات، إلا أنّهـم يتشـبّثون بمـا تبقـى لديهـم مـن أمـل. تمامًـا مثـل المـرأة العجـوز في اللوحـة. يجـب عليهـم ذلـك، لأنهـم فقـدوا كلّ شيء والأمـل هـو كل مـا بقـي لديهـم.

نساء الحرب

زوجات بوكو حرام

بقلم جوش أديسيوا

طفـل يعـاني من نقص التغذية مع أمه في مخيم تديره منظمة الأونروا في غووسـا

هبّـتِ الريـحُ في كلّ الاتجاهـات، وألقـت غبـارًا برائحـةِ القرفـة، المعـروفِ في شـمالِ نيجيريـا، وهـو يُغطـي حجـاب هاديـزا وياكـورا. جلسـت الفتاتـان مكتوفتـي الأيـدي تحـت شـجرة النيـم، تحدّقـان في السـماء مـن خـلالِ الأوراق التـي تحميهـما مـن أشـعة الشـمس الحارقـة. لقـد أصبـح التجـول حـول معسـكر الاعتقـال هـذا، حيـث يتـم الاحتفـاظ بفتيـات مثلهـما، مـن أجـلِ بعـض الهـواءِ المُنعـشِ وإجـراء حديـثٍ مـع النفـس جـزءًا مـن روتـين حياتهـما اليومـي.

مـا هـي احتـمالات أن يتقاطـع مسـار هاتـين. . . مـرة أخـرى؟ كلتاهـما كانتـا متزوجتـين مـن مقاتـلي بوكـو حـرام عندمـا كانتـا في سـن المراهقـة. لقـد عاشـت كل واحـدة منهـما مـع زوجهـا في غابـة سـامبيزا، ولحسـن الحـظ، هربتـا رغـم وجـود أجهـزة متفجّـرة مرتجلـة مُثبتـة حـول خـصرِ كلّ منهـما. وبـدلاً مـن تفجـير نفسـيهما وقتـل الآلاف مـن المدنيـين وفقًـا للتعليـماتِ التـي أُعطيـت لهـما، استسـلمتا للجيـش النيجـيري.

ياكورا

مع حجابٍ أزرق ملفوف حول رأسِها ومنسدل على كتفها، لم يكن وجه ياكورا مكشوفًا، لكن مخاوفها كانت واضحة في محيطِ عينيها. بدت شاحبة ومُتألمة وأصابعها مُضطربة كما لو كانت تُصلي للآلهة لتغييرِ اليوم الذي تغيّرت فيه حياتها إلى الأبد؛ لإعادة طفولتها ـ غير البعيدة ـ التي كانت حبًا وترابطاً مع أشقائها.

عاشت ياكورا مع أسرتها في قرية في شمال نيجيريا تدعى بانكي، وهي مجرّد أكواخٍ من الطين وسقوفٍ من القش. كان الرجالُ في القرية يُمسكون راديو الترانزستور بيدٍ واحدة، في حين أن الراديو كان يفعلُ كلّ ما هو مطلوب. كانت النساء والفتيات يتجوّلن في مجموعات بينما الأطفال يلعبون في الرمال. كانت القرية في السابق مركزاً للتجارة تعجّ بالحركة، ومعروفة بأرقى الطماطم المجففة والفلفل الحلو واللحوم ورعي الماشية، حيث كانت تستقطبُ التجار من بعيدٍ وقريب، بما في ذلك الدول المجاورة مثل تشاد والنيجر. لكن تم القضاء على كل ذلك بعد وقتٍ قصير من قيامِ بوكو حرام بشنّ هجماتٍ مسلحة في عام 2009.

ركضت ياكورا مع أمها وإخوتها جميعًا بحثًا عن الأمان عندما انهالت عليهم طلقاتُ الرصاص من السماء، مما أدى إلى سماعِ صوتٍ يصمُّ الآذانّ والذي عكّرَ عقودًا من الهدوءِ المُتراكم. قام مقاتلو بوكو حرام بجمعِ الرجالِ من كلّ بيت. جلوساً على ركبهم، طُلب من الرجال أن يرفعوا أيديهم في الاستسلام التامّ للبنادق المُوجّهة إليهم. كان المقاتلون يسعون إلى الحصولِ على المُبايعة لقضيّتهم، والتي تضمّنت منذ ذلك الحين إنشاء الخلافة والإطاحة بالحكومة النيجيرية. وفي حالِ رفض أحد الرجال المُبايعة، فكان يُعدم فورًا وهو الأسلوب الذي اشتُهر به تمرّد بوكو حرام.

قالت ياكورا: «كان والدي أحد الرجال الذين قتلوا في اليوم الذي هاجم فيه بوكو حرام قريتنا». كانت نظراتها تتبّعُ حواف الحصيرة على الأرض، ذهابا وإيابًا، مُحدّقة بشكلٍ عشوائي.

بدأت النساء، اللاتي ترمّلن فجأة، بالهرب، بعضهن يسيرُ على الأقدام والبعض الآخر يركضُ إلى أقصى ما تستطيعُ العينُ رؤيته، بينما كان البعضُ ينزف بفعل الصدمة. لم تكن

مجموعة بوكو حرام تتفاعلُ مع النساء والفتيات باستثناء الاستمتاع بمعاناتهن، ولكن مع زيادة عدد النساء الأرامل والأطفال الأيتام في شمال نيجيريا، وجدت المجموعة طريقة للاستفادة من ذلك وهي اختطافهم ليتم استخدامهم كرقيق جنس وفي التفجيرات الانتحارية.

كانت والدة ياكورا قد سمعت عن اختفاء الفتيات بعد هجمات بوكو حرام. ومن أجلِ حماية ابنتها المراهقة قرّرت إرسالها إلى مكانٍ أكثر أمنًا. وقالت ياكورا: «أرسلتني أمي إلى كوسيري، وهي قرية قريبة في الكاميرون المجاورة لأعيش مع أقاربي بسببِ الخوف من الاختطاف». غريزة الأمومة هذه كانت مصدرَ إلهامٍ لقرارٍ شجاع اتخذته والدتها، لكن النظام الأبوي المحلي أجبرها أن تفعل غير ذلك. كان عليها أن تتجاهلَ حكمتها ومنطقها وتنتظرُ الرجل التالي المسؤول عن العائلة. في حالة ياكورا، تمت إعادة كتابة مصيرها من قِبل رجلٍ كان ينبغي عليه حمايتها.

مع وفاة ربّ الأسرة، أصبح من الضروري أن يتم تسليم مسؤولية العائلة للرجل المتبقي، وفي حالة ياكورا، استلم زمام المسؤولية رجلٌ من العائلة لم تكن هي أو والدتها على معرفة جيّدة به.

عندما رنّ هاتفها بعد يوم من وصولها إلى كوسيري، لم تستطع ياكورا أن تُصدق ما سمعته أذناها. فقد أمرها هذا الرجل بالعودة إلى قريتها التي فرّت منها. «أحد أعمامي، الذي كان غير مرتاح لقرار والدتي، اتصل هاتفيًا وأمرني بالعودة إلى بانكي». وقالت إنه حذر من أنه «سيتواجه مع أي شخصٍ يُعارض قراره»، ثم تابعت «تم إرسال شخصٌ لاحقًا لإعادتي إلى المنزل».

سلطة الرجال هي الثقافة المُسيطرة في شمال نيجيريا وهناك عواقب وخيمة على النساء اللائي يتّحدّينها. عندما يموتُ رجلٌ تصبح مسؤولية أرملته مع الرجلِ التالي في طابورِ العائلة بعد زوجها الراحل. لا تُعطى حرية الاختيار، ولا يُعطى لرأيها أهمية. في ثقافة يملك فيها الرجال مفاتيح المجتمع، يُنظر إلى القرار الفردي لوالدة ياكورا لحماية أطفالها على أنه غيرُ مناسب. وهكذا استسلمَ منطقها وغريزتها لقواعد المجتمع، ودفعت ثمن ذلك في العبء الكبير المتمثل في فقدان ابنتها المراهقة المحبوبة.

قرية غريبة

يبدو كلّ شيء مختلفًا الآن في ميدوجوري، عاصمة ولاية بورنو، مع وجود حواجز عسكرية على بعد كل كيلومترٍ تقريبًا من المطار إلى وسط المدينة. رجالٌ يرتدون الزي الرسمي في مركباتٍ أمنية مموّهة يقومون بدورياتٍ في كل مترٍ مربع، وتتدلى بنادقهم في جميع الاتجاهات. بصرفِ النظر عن عدم مبالاة الناس، يبدو هذا المكان بمثابة منطقة حرب، في تناقضٍ صارخ مع الإشارة التي ترحب بالقادمين لأوّل مرة: «بورنو موطن السلام. الإسلام من أجل السلام. الشريعة هي الإسلام».

كانت مايدوجوري عاصمة إقليمية معروفٌ عنها ترحيبها بالناس من جميعِ الأديان والأعراق؛ مدينة جامعية معروفة منذ فترة طويلة بحفلاتها، ومدينة نابضة بالحياة مع ثقافة شبابية جريئة ومُنفتحة في أغلبِ الأحيان، حتى بعد ما يقاربُ عقدٌ من الحرب والتي بدت وكأنه لا يُمكن إخمادها.

هذا التشابك السلس ـ للفن والثقافة والإيمان والدين ـ يقعُ في قلبِ المعركة الإيديولوجية في هذه المدينة، ويمتدّ بعيدًا إلى بقية الولايات الشمالية في نيجيريا. لكن دعاة الدين أرادوا أن ينفصلَ الإيمانُ عن هذا الخليطِ وتمجيد قدسيّته. في عام 2009، طالبَ أولئك الذين يعتبرون أنفسهم حماة للعقيدة الإسلامية الحكومة بتأسيسِ دولة بورنو كخلافة إسلامية، في محاولة لسحقِ ماضيها والمحافظة على مستقبلها الديني.

ولدت بوكو حرام من الحاجة إلى تطهيرِ المدينة من الشوائبِ والأوساخِ التي كان تتغلغلُ في الدين، في هذه الحالة، من الفن والثقافة والتاريخ، وأحيانًا الناس. مع استخدام العنف وسفك الدماء، دُمّرت القرى وأُجبر سكانها على النزوح. ومنذ ذلك الحين، فقد ما يقدر بنحو 35 ألف شخصٍ حياتهم، بينما لا يزالُ أكثر من مليوني شخص مُشرّدين داخليًا.

مررنا عبر دالوري وكاساجولا وكوندوغا وكابويري وصولاً إلى باما، حيث استمر حكم بوكو حرام الإرهابي لمدة خمسة عشر شهرًا. ذبح الرجال بالعشرات أمام مرأى عائلاتهم. ما تبقى من الأنقاض هو أشجار النيم والشجيرات الأخرى الشديدة الخضار.

كانـت الريـحُ تلامـسُ أذني وأنـا أنظـرُ مـن نافـذةِ السـيارة لأرى بوضـوحٍ هـذا المـكانِ الـذي كان الآلافُ مـن النـاسِ، وهـم الآن ميّتـون أو مـشردون، يعتبرونـه موطنهـم. مشـاهدُ الدمـارِ جعلتنـا نتسـاءلُ عـما شـعرَ بـه السـكان عندمـا اقتحـمَ تمـرد بوكـو حـرام منطقتهـم.

قالـت ياكـورا إنهـا شـعرت بالغرابـة في طريـقِ عودتهـا إلى منزلهـا في بانـكي بنـاءً عـلى طلـب عمهـا، وهـي تراقـبُ كل الدّمـار الـذي لحـقَ بهـا هنـاك. هـزّ الخـوفُ قلبهـا المراهـق وهـي تناضـلُ للحفـاظ عـلى هدوئهـا. قبـل أن تتمكـن مـن الحصـولِ عـلى الشـجاعة لاتخـاذِ مـا يمكـنُ أن يكـونَ قـرارًا يغـير حياتهـا، في وقـتٍ لاحـق، جـاءَ اتصـالٌ مـن عمّهـا يطالـبُ بإبقـاءِ ياكـورا في قريـة غريبـة لم تكـن تعرفُهـا. في البدايـة اعتقـدتُ أنهـا كانـت محطـة توقـف، وقالـت: «لم أكـن أعـرفُ أنّ عمـي كان مـن إرهـابيّ بوكـو حـرام» في ذلـك الوقـت.

العم بوكو حرام

هنـاك العديـد مـن المُتعاطفـين مـع بوكـو حـرام في شـمالِ نيجيريـا؛ حيـث يعيـشُ أكـثرَ مـن سـبعين في المائـة مـن السـكان عـلى أقـلّ مـن دولارٍ واحـد في اليـوم. بـدأت المجموعـة الإرهابيـة كمؤسسـة دينيـة تنتقـدُ فسـادَ الحكومـة حيـث قدمـت «نسـخة أنقـى مـن الإسـلام». عندمـا أعلنـت نفسـها منظمـة إرهابيـة في عـام 2009، بإعـلانِ الحـربِ عـلى الحكومـة النيجيريـة، كانـت مدعومـة بسـهولة مـن قبـل أعضـاءٍ سـابقين في جماعـة دينيـة. ثـم جـاءت الزيـادة التاليـة في العضويـة مـن خـلال التعاليـم الدينيـة التـي كانـت تلـوى أعناقهـا لتُبـشّر الإرهابيـين بجنـان الخلـد يتنعّمـون فيهـا بالحـور العـين.

بـدا لي هـذا النـوعُ مـن التفسـير الخاطـئ صعـب التصديـق لحـدٍ مـا، إلى أن أُتيحـت لي فرصـة نـادرة لمقابلـة أحـد مقاتـلي بوكـو حـرام السـابقين المُحتجزيـن الآن لـدى الجيـش. مصطفـى محمـد بيلـو ينتمـي إلى مـا يُعـرفُ الآن باسـم قسـم البرنـاوي مـن الجماعـة الإرهابيـة. شـهادته الشـخصية أجابـت عـن بعـض شـكوكي: «السـببُ في أنـني انضممـتُ إلى بوكـو حـرام هـو أنهـم أقنعونـا أننـا إذا اتّبعنـا طريقهـم فسـوف نُكافـأ بالجنـة. عندمـا بايعناهـم قامـوا بغسـيل دماغنـا بتعليماتهـم وعلّمونـا كيفيـة اسـتخدام الأسـلحة خـلال المعـارك في الميـدان. اعتدنـا عـلى دهـم القـرى والمـدن وقتـل الأبريـاء والاسـتيلاء عـلى ممتلكاتهـم بالقـوة».

هنـاك مجموعـة أخـرى مـن الأشـخاصِ الذيـن انضمـوا لأسـبابٍ اقتصاديـة. وفقًـا لتقريـر للأمـم المتحـدة، تسـتطيعُ بوكـو حـرام أن تدفـعَ لمقاتليهـا الأمـوال التـي تتلقاهـا مـن المانحـين الدوليـين والمحليـين المتعاطفـين مـع قضيتهـم. أخبرتنـي امـرأة لا يـزال زوجهـا مقاتـلاً نشـطًا أنـه انضـمّ لأنـه لم يسـتطع العثـور عـلى وظيفـة أو إعالـة أطفالـه التسـعة.

مـن الصعـبِ معرفـة مـا يكسـبه مقاتلـو بوكـو حـرام شـهريًا، لكـن جماعـة إرهابيـة مماثلـة مثـل داعـش كانـت تدفـع لمقاتليهـا مـا بـين 400 إلى 1300 دولار شـهريًا. كـما يعطونـه منـزلاً وسـيارة وزوجـة ووقـودا، وفقًـا لمـا وجدتـه خدمـة أبحـاث الكونجـرس. كان عـم ياكـورا عضـوًا يُدفـع لـه في بوكـو حـرام و كان يؤمِـنُ أيضًـا بقضيـة المجموعـة، وبالتـالي قـدم ابنـة أخيـه كهديـة. «لقـد احتجـزني كرهينـة في منزلـه لمـدة عـام تقريبًـا ثـم زوّجنـي مـن أحـد مقاتـلي بوكـو حـرام الـذي حملـتُ منـه في غابـة سـامبيزا».

حاولتُ الهرب مرات عديدة

كانـت غابـة سـامبيزا في السـابق محميّـة جميلـة. في سـبعينيات القـرن العشريـن، أي بعـد حـوالي عقـد مـن اسـتقلال نيجيريـا عـن بريطانيـا، تـم اسـتخدامها لرحـلات السـفاري. كان فيهـا عـددٌ كبـيرٌ مـن الفهـودِ والأسـودِ والفيلـة والضبـاع. وقـد اجتذبـت السـياح، بعضهـم مـن دولٍ إفريقيـة مجـاورة وعـددٌ قليـلٌ مـن المسـؤولين الاسـتعماريين المتبقـين الذيـن يمكنهـم الاسـتمتاع بهـا مـن أكـواخِ السـفاري. يـأتي اسـم الغابـة مـن قريـة سـامبيزا، التـي تقـع عـلى الحـدودِ مـع جـووزا في الـشرق. تقـع تـلال جـووزا عـلى ارتفـاعِ 1300 مـتر فـوق مسـتوى سـطح البحـر والتـي تشـكلُ جـزءًا مـن سلسـلة جبـال مانـدارا عـلى طـولِ الحـدودِ الكاميرونيـة النيجيريـة.

سـافرنا إلى أبعـدِ نقطـة حتـى غوسـا عـلى مـتنِ طائـرة مروحيـة تابعـة لليونيسـيف لأنّ الموجـز الأمنـي أظهـرَ خطـورة الألغـام الأرضيـة الموجـودة في حـال كنـا قادمـين عـن طريـق

ميدوجوري. كانت الجبالُ المتموّجة ذات الأشكالِ الخضراء الهادئة المتناثرة على حوافها الجامدة من شأنها أن تجعلَ غابات غوسا وسامبيسا الوجهة الأولى لرحلات السفاري في نيجيريا؛ وهي تجني الآن ملايين الدولارات، ولكن لمُحتلّيها الجدد.

في عام 1991، قامت حكومة ولاية بورنو بدمجِ هذا المحمية للحديقة الوطنية لحوضِ تشاد. لكنها تخلّت عن المشروع في أعقابِ وقوعِ سامبيزا بين أيدي متمردي بوكو حرام في فبراير 2013. اختفت الحيوانات تدريجيًا، ودُمرت النُزل، وتآكل الغطاءُ النباتي. وفي النهاية، جفّ نهرا يديرسرام ونغادا اللذان كانا يتدفّقان عبر الغابة.

غابة سامبيزا هي الآن معقل بوكو حرام، وهي الواجهة الجديدة للجيش النيجيري للحربِ على الإرهاب، كما كانت منزلَ ياكورا لمدة أربع سنوات. كزوجة ثانية كان عليها القيامُ بأعمالِ التنظيفِ ورعاية زوجها، وتقديم جسدها لممارسة الجنس عدة مرات كما هو مطلوبٌ منها. لقد فكّرت وخطّطت لهروبها عدة مرات، لكن اتّساع مساحة الغابة شوّش خيالها. حيث تقول: «حاولتُ كل شيء ممكن للفرار إلى والدتي، لكن لم تكن هناك طريقة للفرار». وكان القدرُ أن قُتل زوج ياكورا في غارة عسكرية، مما أتاحَ لها فرصة أكبر للتخطيطِ لهروبها. عندما ابتكرت أخيرًا خطة، كانت تلك الخطة ستأخذ أنفاسها.

بوكو حرام واستخدام النساء كمفجرات انتحاريات

تبين أنّ ياكورا لم تكن الفتاة الوحيدة التي تخطط بهدوء للهربِ من سامبيسا. كانت هاديزا ينوسا تخطّط لها أيضًا. وهي فتاة تزوجت من أحد مقاتلي بوكو حرام في سن الرابعة عشرة، وتبعته إلى سامبيزا إلا أنّها خسرته بعدما وجدَ لنفسه حبيبة أصغر منها. إنّ مساحة الغابات الواسعة لا تعطي الفرصة لهروبٍ غامض من هذا السجن، لذلك فمن نافلة القول أنّه إذا تم القبض عليهن، فسيتم ذبحهن وإطعامهن إلى النسور. لكنها استخلصت أنّ الموت بحدّ ذاته كان يستحقُ المخاطرة.

على الرغمِ من أنّ المجموعة اعتادت على تجنّب النساء والفتيات، وتركهن أرامل وأيتاماً بعد ذبحِ الرجالِ أمامَ أسرهم لرفضهم الانضمام إلى بوكو حرام كما فعلوا في باما. فإن التقارير بدأت تتحدّثُ عن الفتيات المفقودات في عدّة قرى. لم يكن الأمرُ يثيرُ الانتباه إلى أن تمّ خطفُ أكثرَ من مائتي فتاة ليلة 14 أبريل 2014، وهو ما أعطى المجموعة الإرهابية سمعة سيئة الصيت في العالم. كانت هناك عدة عمليات اختطاف أخرى منذ ذلك الحين، كما أخبرني السكان المحليون.

بين أبريل 2014 وديسمبر2015، استعملت بوكو حرام النساء والأطفال كمفجرين انتحاريين. وقد أدى ذلك إلى زيادة في استهداف المدنيين مما جعلها أكثر فتراتِ الحربِ فتكاً وخطورة. كانت النساءُ والفتيات اللائي تم إرسالهن كمفجراتٍ انتحاريات يرتدين الحجاب في كثيرٍ من الأحيان، والذي أصبحَ وسيلة لإخفاءِ الأجهزة المُتفجّرة عن الضحايا والجيش. كانت المفجّرات الانتحاريات ينجحن في التغلغلِ وسطَ الجموع وتفجيرِ أنفسهن قبل أن يشكّ أي شخص في نيّتهن.

هناك اعتقادٌ على نطاقٍ واسع أنّ الفتيات اللائي اختفين من القرى وتم احتجازهن كرهائن في غابة سامبيزا هن نفس الفتيات اللائي يتم نشرهن الآن كمفجّراتٍ انتحاريات. يكشفُ البحث الذي أجرته الأكاديمية العسكرية الأمريكية حول مكافحةِ الإرهاب أنّه من أبريل 2011 إلى يونيو 2017، أرسلت بوكو حرام 434 مُفجرًا إلى 247 هدفًا مختلفًا خلال 238 هجومًا انتحاريًا. 56 في المائة على الأقل من هؤلاء المفجّرين كانوا من النساء، وتم تحديد أنّ 81 مُفجرًا على الأقل كانوا من الأطفال أو المراهقين.

شاهدت كل من هاديزا و ياكورا الفتيات عندما ألبسهن «أزواجهن» سترات مُتفجّرة. وبعد خطبة تحفيزية قصيرة عن الاجتماعِ مجددًا في الجنة، كُنَّ يغادرن المخيم. مثل الروبوتات التي يتم التحكم فيها عن بُعد، كُنَّ يمشين تاركات وراءهن ذكريات حياتهن القصيرة؛ كل واحدة منهن تذهبُ إلى الأبد.

تشبه هاديزا العديد من الفتياتِ المراهقات في شمال نيجيريا؛ غير متعلّمات ومن عائلة فقيرة يتم تزويجهن مقابل المال. ثلاثة وأربعون بالمائة من الفتيات في نيجيريا يتزوّجن قبل بلوغِ سن الثامنة عشرة. سبعة عشر في المائة من الفتيات القاصرات يُصبحن عرائس قبل بلوغهن سن الخامسة عشرة، والعديد منهن لرجالٍ في سن آبائهن. هذه

الممارسة مُنتشرة في الشمال الغربي والشرق، حيث أصبحت أكثر من 80 في المائة من الفتيات المراهقات عرائس وهن أطفال.

زواج القاصرات آفة منتشرة في شمالِ نيجيريا، رغم أنّ الدستور يعارضه. لكن يبدو أنّ المجتمع لا يستهجنُ كثيرًا رؤية فتاة صغيرة وصلت حديثًا لسن البلوغ ولديها علاقات جنسية مع رجلٍ في مرحلته الأخيرة من الحياة، وتحت ستارِ الزواج المقدس. الأغنياء والفقراء يمارسون ذلك، الأولُ مُسلحٌ بالمال، والثاني ببعضِ أوهام الحب. الأمهات اللائي يقمن بتربية هؤلاء الفتيات يقمن بإعدادهن لا شعوريًا للحياة الوحيدة التي يعرفنها. يقمن بإلباسهن كالبالغين، ورسمِ أحمرِ الشفاه على شفاههن الرقيقة والكحلِ على حواجبهن، في وقتٍ مبكرٍ من سنِ الخامسة.

ولعلّ ما يُساهم في هذا الخلل الثقافي أيضًا هو فورة الولادة غير المُقيدة التي تشتهر بها العديد من الأسر التقليدية الشمالية. إنهم، بطبيعتهم، فقراء أو أغنياء، يلدون أطفالاً أكثر مما يمكنهم تربيته والعناية به. بالنسبة للفقراء، خاصةً غالبية شمال نيجيريا، فإنّ إرسال الفتيات إلى المدرسة يُعدّ هدرًا لمواردِ الأسرة المحدودة. في قرية باما، قابلتُ رجلاً لديه ثلاث زوجاتٍ واثنان وعشرون طفلاً. إنه مزارعٌ يتمتع بالراحة الكافية لإطعامِ أسرته ولكن لديه موارد قليلة جدًا لتوفير التعليم الجيّد لهم. في رأيي، هذه هي الركيزة التي تُغذي تمرد بوكو حرام؛ مجموعة من الأُميين على نطاقٍ واسع من الشبابِ المُضطرب المتأثر بمفاهيم دينية مُتطرّفة. وأودّ أن أضيفَ أنّ نيجيريا لديها حاليًا أكبر عددٍ من الأطفالِ غير الملتحقين بالمدارس في العالم.

تشملُ توصياتي الخاصة لإنهاء تمردِ بوكو حرام طرحَ مشروعٍ سرّي لتحديدِ النسلِ في المنطقة من شأنه أن يؤدي إلى فرضِ قيودٍ على نمو السكان. أقترحُ أيضًا إجراءَ إحصاءٍ سكاني لمعرفةِ عددِ الأطفالِ خارجَ المدارسِ ودراسة مشاريع لتصميمِ المدارسِ التي تضمن التعليمَ الأساسي. باستخدامِ جدولٍ زمني مدته عقدٌ من الزمن، يمكنُ أن نرى انخفاضًا في معدلِ الولاداتِ بشكلٍ كبير، وتربية الأطفال في بيئةِ أقلّ عرضة للتطرف.

لسوء الحظ، هذه الأفكار هي مجرّد أمنيات لأنّ أولئك الموجودين في السلطة يتزوجون أيضًا من الفتياتِ القاصرات. في عامِ 2013 كتبتُ تقريرًا حول كيف تزوجَ حاكمٌ سابق لزامفارا في شمال نيجيريا من فتاةٍ تبلغُ من العمرِ 13 عامًا. وقد أصبحَ الآن عضوًا في

مجلسِ الشيوخِ في جمهورية نيجيريا الفيدرالية، وقد دافعت بعض المجموعات عن قرار ساني يريما من خلال الادعاء بأنّ أسرة الفتاة قد وافقت على الزواج، وأنّ ما فعله لا يخالفُ الشريعة الإسلامية. كما استنكرَ العديد من الزعماء الدينيين الإسلاميين هذه الادعاءات ووصفوها بأنها خاطئة.

تبلغ هاديزا الآن واحداً وعشرين عامًا ولديها طفلان من زوجها المقاتل في بوكو حرام. عند التفكيرِ في السنواتِ السبع الماضية، خلصت إلى أنّ كلّ شيءٍ كان خطأ. وقالت: «لم أعد أحبه ولا أرغبُ في مقابلته مرة أخرى». بعد لحظةِ صمت، خلصت إلى القول: «إنّ ما تقومُ به عصابات بوكو حرام غيرُ أخلاقيّ وفاسد، إنه ليس من تعاليمِ الإسلام. قتل الأبرياء ليس بالأمرِ الجيد. يدّعون دائمًا أنهم سيذهبون إلى الفردوس، لكنهم لن يستطيعوا ذلك».

تطوّرت صداقة هاديزا وياكورا خلال عدة أمسيات من التخطيطِ لخطةِ الهروبِ المُفصّلة. إنها محاولة صعبة ولكن هناك احتمال لنجاحها. حتى لو كان ذلك يعني الموت، وأجسادهن المحطمة بواسطة عبوة ناسفة، وكل ساعاتِ الانتظار قبل وفاتهما المحتملة، إلا أنّ الهرب من خاطفيهما هو كل ما كان يعنيهما. الخوف من أن يشعرَ شخصٌ ما بخوفهما، ويعرف الوزن الذي يحملانه تحت الحجاب الملوّن الذي لا يترُك شيئًا يمكن رؤيته.

في اليوم الذي تم إرسالهما نحو الموتِ المُحتّم، استمعتا للحديثِ المعتاد عن «سنلتقي مُجددًا في الجنة». أدركت هاديزا و ياكورا أنهما في مهمتين منفصلتين عندما تم تحميلهما في شاحنتين منفصلتين. شعرا أنّ خطط هروبهما قد دُمّرت، بما في ذلك الأشهرِ التي أمضياها معًا خلال صداقتهما القصيرة والتي مدّتهما بالشجاعة. دون فرصة للتوديع، تم نقلهما في اتجاهين متعاكسين.

تم اصطحاب هاديزا في رحلة استغرقت ساعتين ونصف الساعة وهي مُرتدية السترة الناسفة. انتقلوا من سامبيزا عبر قرى ماسبا وكاما وكوندوغا وباما وديبشيري للوصولِ إلى بانكي، الوجهة الأساسية. أخبرتني هاديزا أنها لم تتخيل هروبها بهذا الشكل. ولكن في ظل انعدامِ خياراتها، فشلت محاولاتِ الهربِ السابقة. كما أوضحت كل ياكورا وهاديزا: «لقد حاولنا الهرب في مناسباتٍ عديدة، لكن أزواجنا كانوا يهدّدوننا دائمًا أننا إذا هربنا،

فـإنّ الجنـود سـوف يلحقـون بنـا ويقتلونـا. قالـوا إنّ الجنـود سـوف يذبحوننـا ويأكلوننـا».

عندمـا وصلـوا إلى بانـكي، تـم إنـزال هاديـزا بعنايـة مـن الشـاحنة. كانـت السـماءُ رماديـة ويصعـبُ تتبّـع ظـلالِ مختطفيهـا. أطلـقَ جسـدها تشـنّجات دوريـة تسـبّبت لهـا في الارتعـاشِ وكادت تفشـلُ بمهمتهـا المزعومـة (الجهـاد). مـع القليـلِ مـن الشـجاعة المُتبقيـة، اسـتمعت باهتـمامٍ إلى المجموعـة الأخـيرة مـن التعليـمات. كان عليهـا أن تدخـلَ إلى مسـجدٍ في بلـدة بانكي أثنـاء أوقـات الصـلاة وتفجّـرَ نفسـها. كان ضغـط الـزر المُسـطّح بجـوارِ مجموعـة متنوّعـة مـن الأسـلاكِ التـي تتشـبّثُ بصدرهـا هـو كلّ مـا تحتـاجُ إليـه بمجـرّدِ بلوغِهـا هدفهـا. هـزّت برأسـها لتقـرّ بأنهـا فهمـت كل التعليـمات.

انطلـق الخاطفـون، تاركينهـا لتنفيـذ مهمتهـا. مشـت في الشـارع ذي الإضـاءة الخافتـة عـلى بُعـدِ أمتـارٍ مـن المسـجد، بينـما كان رجـلُ الديـن يرفـعُ صوتـه مـن خـلالِ مكـبّراتِ الصـوت، ومجموعتـه يـردّدون معًـا «الله أكـبر». هـذه كانـت إشـارة هاديـزا... والآن هـي في طريقهـا إلى الجنـة.

الجنة

هلـع. فـوضى. الرجـال يركضـون في اتجاهـين مُتعاكسـين. النسـاء يشـتمن ويصلّـين في نفـس الوقـت. الحشـد ينمـو أكـبر. توقفـت الصـلاة. توقفـت الصـلاة؟ ولا حتـى في الجحيـم. إذن، هـذه ليسـت الجنـة. . . لا، ليـس تمامًـا. إذن مَـن هـؤلاء النـاس؟ هكـذا كانـت أفـكار هاديـزا تتـلاشى.

بعـد أربعـةِ أشـهرٍ مـن نقـل هاديـزا إلى معسـكرِ الاعتقـال، شـعرت بالحريـة في معظـمِ الأيـام. يمكنهـا أن تقـول صلاتهـا بصـوت عـالٍ وأن تلعـن اليـوم الـذي قـررت فيـه الـزواج مـن الـزوجِ الـذي غـيّر مسـار قدرهـا. في بعـضِ الأيـام، تشـعرُ بكسـلٍ وقلـقِ سـن المراهقـة. وثـم تتسـاءل عـن ولديهـا، وتتخيّـلُ كيـف يبـدو وجهيهـما الآن، ومـا إذا كانـت سـتراهم مـرة أخـرى يومًـا مـا.

بعد ظُهرِ أحد الأيام بعد صلاةِ الجمعة، لمحت هاديزا شخصًا قد مرّ بجانبِ غرفتها، مُتّجهًا نحو المطبخ. ذكّرها الشخص بياكورا، وتساءلت عمّا إذا كانت فقدت عقلها. لكن ربما قد أجابَ الله صلواتهم بعد كلّ شيء، وأبقى الفتاتين على قيد الحياة. ثم فكّرت، يمكن أن يكون هذه في النهاية الجنة؟ لأنّ احتمال بقاء الفتاتين على قيد الحياة عجيبٌ للغاية. هذه الرؤية صدمت تفكيرها، كما لو أنها نسيت شيئًا وتريدُ الآن الحصولَ عليه على الفور.

كان الكتفان منتصبين، وكشف عن انتفاخٍ صغير حول خصرها. «ياكورا؟!» صاحت هاديزا، وهي تشقّ طريقها إلى الشرفة. كان هذا أول لقاءٍ لهما منذ إرسالهما في مهامٍ انتحارية. عانقا بعضهما وشكرا الله. بكتا ولعنتا الرجال الذين غيّروا حياتهما إلى الأبد. كان لم شملهما مشهدًا رائعًا، وتوقف أهالي المعسكر للحظة ليشكروا الله على حظهما النادر.

كانت ياكورا قد نُقلت إلى ميدوغوري لمهمتها الخاصة. حيث كانت وجهتها المُستهدفة هي السوق. ولكن نظرًا لأنّ المدينة عادةً ما تكون خاضعة لدوريات الجيش أكثر من القرى الداخلية، فقد كان من السّهل عليها تسليم نفسها للضباط. فإنّ تجربتها أقلّ إثارة بكثير من تجربة هاديزا. أُخضعت ياكورا لفحوصاتٍ طبية روتينية في المستشفى العسكري وعندها اكتشفت عن حملها في الشهرِ الثالث. تم احتجاز ياكورا في منشأة عسكرية منفصلة، للسماحِ لها بالشفاء التام قبل نقلها إلى معسكرِ الاعتقال.

كانتا تجلسان تحت شجرة النيم معًا، كانت ياكورا تجلس على حصيرة، والجنينُ في بطنِها قد بلغَ حوالي ستة أشهر. بينما هاديزا كانت تجلسُ على مقربة منها وتقضمُ أصابعها. كلتا الفتاتين بدتا ضائعتين ولكنهما مع ذلك ممتنّتان لكونهما على قيدِ الحياة. عندما سألتُ عن الخطوة التالية بالنسبة لهما، قالت هاديزا إنها ترغبُ في إثباتِ خطأ بوكو حرام من خلالِ الحصولِ على التعليمِ الغربي والذي يعارضونه بشدة. «أريدُ تعلّمَ العلومِ الإسلامية والغربية. كان زوجي قادرًا على غسلِ دماغي لأنني لم أكن على علمٍ ودراية»، لكنه الآن لا يستطيعُ فعلَ ذلك.

دفعتُ إلى أبعد من ذلك، وأردتُ معرفة ما إذا كانت ستغيّرُ رأيها من أجلِ الحب والهدايا الثمينة. من الوارد أنّ بعض النساء/الفتيات قد عدن إلى أزواجهن من بوكو

حـرام لأنـه يُطعمهـن في أحسـنِ الأحـوال. معظمهـن لا يملكـن شـيئًا وليـس لهـن أحـد ليعـدن إليـه: «لـن أرغـبَ أبـدًا في اتبـاعِ هـذه الأيديولوجيـة في المسـتقبل. حتـى لـو اشـترى لي طائـرة. لا أريـده مـرة أخـرى أبـدًا». عندمـا وجـدت ياكـورا الشـجاعة للـرّدِ عـلى سـؤالي، نظـرت إلي مبـاشرة في عينـيّ وقالـت بصـوتٍ عـالٍ: «أكـبرُ آمـالي هـو أن أجتمـعَ مـع أمـي».

تـم تطويـقُ الشـارع. انحنـى فوقهـا ضبـاط الجيـش، يفكّكـون زرًا واحـدًا تلـوَ الآخـر، ويحرصون عـلى عـدمِ تفجـيرِ المتفجّـرات. نصـفُ حيّـة، تـم رمـي هاديـزا في سـيارة وتـم فصلهـا سريعًـا عـن متفجـراتِ العبـوات الناسـفة التـي تـم وضعهـا في دلـو ليتـمّ دراسـتُها مـن قِبـل الجيـش.

اسـتعادت هاديـزا وعيهـا في مستشـفى عسـكري حيـث لازمهـا الضبـاط حتـى شُـفيت بالكامـل. بعـد تفحّـص قصتهـا، تـم نقلهـا إلى معسـكرِ اعتقـال لآلافِ النسـاءِ والأطفـال الذيـن تـمّ إنقاذهـم مـن المجموعـة الإرهابيـة.

في هـذا المخيـم، يوجـدُ أطفـالٌ بـلا أمهـات، يحتـاجُ بعضُهـم إلى الرضاعـة الطبيعيـة. هنـاك أمّهـاتٌ فقـدن أطفالهـن، وهنـاك فتيـاتٌ مثـل هاديـزا، التـي تعتـبرُ قـاصرًا بـلا مـأوى. يتـمّ إطعامهـم وإلباسـهم هنـا، لكـن دون مسـتقبلٍ أو فرصـة لتحقيـقِ أحلامهـم. ومـع ذلـك، فهـي بعيـدة كل البُعـد عـن وضـعِ الرهائـنِ في غابـة سـامبيزا. وفقًـا للجيـش النيجـيري، تـم إنقـاذ حـوالي 30 ألـف مـن النسـاءِ والأطفـالِ مـن بوكـو حـرام منـذ عـام 2016.

العودة للوطن

ولكـن ليـس هنـاك عـودة إلى الوطـن لأيّ شـخصٍ كان لـه ارتبـاط مـع بوكـو حـرام، سـواء كان عبـدًا أو زوجـة أو مقاتـلاً قـد استسـلم. يُنظـر إليهـم جميعًـا عـلى أنهـم يُمثلـون عـدوًا للمجتمـع. في حـين أنّ معظـم المجتمعـات لا تـزالُ تتعـافى مـن الفـوضى والعنـف الـذي شـهدته، هنـاك شـعورٌ مُشـتركٌ بعـدمِ التّسـامحِ والحاجـة إلى مزيـدٍ مـن الحمايـة والرغبـة بالانتقـام.

قـال الجيـش إنّ عـودة ياكـورا إلى وطنهـا هـي بمثابـة إرسـالها إلى موتهـا المُحتّـم مـع طفلهـا الـذي لم يولـد بعـد. هـذا هـو تقييـمُ الوضـعِ بالنسـبة لآلافِ الفتيـاتِ اللائي يعشـن في معسـكرِ الاعتقـال. في القـرى المجـاورة، يحـاولُ النـاسُ التخلـصَ مـن أولئـك الذيـن تربطهـم صـلاتٍ ببوكـو حـرام. إذ إنـه يتـم حرقهـم أو إعدامهـم أو التمييـز ضدهـم تمامًـا ـ وخصوصًـا الحـالات التـي تنجـبُ فيهـا المـرأة أطفـالًا مـن مقاتـلي بوكـو حـرام. وهـذا هـو السـببُ في أنّـه مـن غـيرِ الآمـنِ عـودة ياكـورا إلى المنـزل. هـذا مـا أوضحـه الجيـشُ عندمـا سـألته لمـاذا لم تُبـذل أيُّ جهـودٍ للـم شـملها مـع أسرتهـا.

زرتُ أحـد الناجـين مـن هجـوم بوكـو حـرام وعائلتـه في وسـط مدينـة ميدوجـوري. لقـد قمـتُ بالرحلـة للتعـرّفِ عـلى الصـدعِ الـذي خلفتـه الحـرب في هـذه المجتمعـات. أبـو بكـر مودوشـيرف رجـلٌ في أواخـر الثلاثينيـات مـن عمـره، ولديـه زوجـة وولـدان. بخـلافِ معظـمِ الشـباب الشـماليين، كان لديـه وظيفـة لائقـة كتاجـر. كان يبيـعُ أكيـاسَ البصـلِ التـي تـمّ حصادُهـا مـن المزارعـين في بانـكي وباما. ومـن ثـم يشـحنها بالشـاحناتِ مـن مئـاتِ الأميـالِ جنوبًـا، حيـث يتـمّ بيعهـا بسـعرٍ أعـلى. قـال: «كان لـدي الكثـير مـن المـالِ لأعتنـي بنفـسي وبعائلتـي».

يُخـبرني مودوشـيرف وهـو يوجّـه قصبتـه إلى الأمـامِ لمسـاعدته بـكلّ خطـوة: «كنـتُ أسـافرُ إلى الكثـيرِ مـن الأماكـن، وأذهـبُ إلى السـوقِ لممارسـةِ أنشـطتي اليوميّـة بنفـسي». لكنـه فقـد كلّ شيء، بمـا في ذلـك بـصرَه، قبـل ثـلاثِ سـنواتٍ عندمـا قـام مقاتـلي بوكـو حـرام بسرقتـه في مايدوجـوري. تـم إطـلاقُ النـارِ عليـه في وجهـه أثنـاء سـفره مـع التجـارِ الآخريـن لمقابلـةِ العمـلاء في مدينـة قريبـة. نصـبَ مقاتلـو بوكـو حـرام كمينًـا لسـيارتهم، وأطلقـوا النـار عـلى الجميـع، وهربـوا بأموالهـم. كان مودوشـيرف الوحيـد الـذي نجـا مـن الهجـوم.

لقد صرف كل أمواله على معالجةِ نفسه وقال إنه لم يتلقَّ أيّ دعمٍ حكومي في دفعِ فواتير المستشفى. منزله الآن لا يدلُّ على أنه منزلُ شخصٍ كان في السابقِ يعيشُ حياة كريمة. جلستُ بهدوء بجانب وعاء من الطين كان يُستخدمُ لحفظِ الماء، وشاهدته وهو يناورُ في طريقه حولَ الشقة المؤلفة من غرفةٍ واحدة يتقاسمُها مع زوجته وطفليه. لقد أطعمت زوجته، كاديجا، ابنيهما بمشاعر فارغة كان من الصعبِ قراءتها. سألتها كيف تتعاملُ مع الأمرِ فبدا أنها تعتقدُ أنّ الله أدرى بالأفضل. أنجبت ابنها الثاني بعد أن فقد زوجها عينيه؛ وكان قلقها الأساسي ما اذا كان سيتمكّنُ مودوشيرف من رؤية أبنائه وهم يكبرون.

تشعر خديجة بالحزنِ الكبير عند النظِر إلى صورِ زوجها الملتقطة قبل الهجوم. ويزدادُ حزنها كلما اضطرّت إلى أن تشرح لأطفالها الصغار السبب الذي يجعل والدهم لا يمتلك عينين، خاصة للابنِ الأصغر. لكن مودوشيرف رفضَ الاستسلام للشعور بالشفقة على النفس. وقرّر أن يُشاركَ في برنامج التمكين الذي يديره القطاع الخاص، حيث يدرسُ صناعة الصابون والأحذية والحقائب. وقال إنّ هذه المهارات الجديدة ستساعده على بدءِ عملٍ تجاري جديد حتى يتمكّن من إعالة أسرته.

كان غاضبًا لسماعِ أنّ الحكومة والمنظمات غير الحكومية تدعمُ النساء والأطفال الذين كان لهم ارتباط مع بوكو حرام. حيث يعتقدُ مودوشير أنّ أولوية الحكومة يجب أن تكونَ للأشخاصِ مثله. «ولماذا تساعدهم الحكومة؟»، سأل وهو يحاولُ أن يُبعِدَ الذباب عن الأغشية الحمراء حول عينه. «أنا الشخصُ الذي يحتاجُ إلى مساعدة، لكن لا أحد يساعدني». قال إنه إذا كانت الحكومة تعتقدُ أنّ هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب القيام به، فإنه لا يستطيعُ فعلَ أيّ شيء حيالَ ذلك.

ويشاركه في هذا الشعورِ العديد من الضحايا الذين يتجوّلون الآن في الشوارعِ ويتسوّلون من أجلِ الصدقات، معظمُهم أرامل أو بلا مأوى. لقد انضمّوا إلى قائمةٍ طويلة من المعوزين في مجتمعٍ زادَ عددُهم فيه كثيرًا نتيجة التمرّد.

تعرفُ كل مِن ياكورا وهاديزا أنّ المجتمع لا يعترفُ بهما كضحايا حرب. إنهما يرغبان في الحصولِ على فرصة لإعادة تحديدِ مصيريهما، وإن لم يكن، كما يعترفان، من خلالِ الندم على ماضيهما (لأنهما يعتقدان أنّ ذلك هو مصيرهما وأنه من المستحيل محو الماضي)

أو إنكاره. إنهما شابتان عاشتا مع مقاتلي بوكو حرام وأنجبتا أطفالاً لهم وخدمتا احتياجاتهم الجنسية عند عودتهم من المعركة. فقد أطعمتا الإرهابيين وجعلتا منهم أقوى للقتال؛ مع العلم أنّهما كانتا مُجبرتين على ذلك. ولكن تقولُ كلتاهما «نحن أيضًا ضحايا». تقولان إنهما ترغبان في تربية أطفالهما دون الكشفِ عن هويتهم الحقيقية، فهما لا يريدان أن يُحكم على أطفالهما بسببِ أمرٍ خارجٍ عن إرادتهم.

الآن، مع مرورِ عشرة أعوام، أدّى تمرد بوكو حرام إلى إحداثِ شرخ بين الناسِ ومجتمعاتهم، مما أدى إلى الإخلال بالمعاييرِ الثقافية وإعادةِ تنظيمِ جوهر المجتمع. تتخلّل عدم الثقة والخوف والإحباط الحياة اليومية، مما يُجبر في بعض الأحيان الشخص العادي على الاستسلامِ للشفقة على النفس. مع وجودِ الآلاف، أصبح الجميعُ يشكّكُ في كلّ امرأة وفتاة، وخاصة اللواتي يرتدين الحجاب.

الإرهاب لا ينتهي عندما يتم إسقاط البندقية أو عندما يتم إطلاق النار على العدو. بل يستمرُ تأثيره بعد فترةٍ طويلة من توقفِ القنابلِ اليدوية والمدفعية عن القصف. إنّ الأثرَ الاجتماعي لحروبِ الإرهاب مثل تمرّد بوكو حرام هو أثرٌ بعيدُ المدى، والنساء والأطفال هم ضحاياه الأبرياء.

[المؤلفة تعملُ حاليًا على كتابٍ يركّزُ على النساء اللائي «تزوّجن» من مُقاتلي بوكو حرام، سواء بالقوة أو عن طيبِ خاطر. إنه يحكي عن تأمّلاتهن العميقة حول ما أدّى إلى انفصالهن، ورغبتهن في استعادة ثقة المجتمع الذي كنّ سابقًا يعتبرنه بيتهن. إنهن يرغبن في إعادة الاندماج، ومع ذلك فإنّ محاولاتهن لالتماس المغفرة ـ إن لم يكن لأنفسهن، لكن على الأقل لأطفالهن ـ هي أصعب مهمة حتى الآن لمجتمعاتهم الجريحة. هؤلاء النساء والأطفال في حالة من النسيان، ربما، لبقية حياتهم.

غازي عنتاب

وجهة نظر مراسل

بقلم سارة فيرث

المراسـلة سارة فيرث في جنوب تركيا

إهداء لكل السوريين الذين استُشهدوا من أجل الحرية. لكل المُغيّبين و بعضهم ما زال ..قابعًا في سجون الأسد. لكل النازحين من بيوتهم. لكل الذين يناضلون من أجل الثورة

الهروب من الأسد

الطريـق المـؤدي إلى حـدود جيلفـي غـوزو والعبـور إلى منطقـة هاتـاي في تركيـا ليـس مُمتعًـا للنظـر. فعـلى جانـبٍ مـن الطريـق مررنـا عـبر قاعـدة عسـكرية تركيـة معروفـة ، ثـم يصبـح الطريـق طويـلًا ومجـرد غبـار أحمـر عـلى الحـدود.

عـلى الحـدود، يمكـن رؤيـة الجـدار الـذي بنتـه تركيـا لمنـع الأشـخاص مـن العبـور مـن سـوريا بطريقـة غـير قانونيـة، كـما يُمكـن رؤيـة الجبـال السـورية عـلى الجانـب الآخـر. إلى اليمـين يوجـد موقـف كبـير للسـيارات، حيـث يديـر أحمـد مـن حمـص، بابتسـامته الودّيـة، كشـك القهـوة الصغـير والـذي لديـه دائمًـا سـيجارة احتياطيـة إذا لـزم الأمـر.

معظم الأيام هادئة هنا. رغم ذلك، في بعض الأيام، تأتي الحافلات التي تحمل السوريين الذين يزورون عائلاتهم. وفي ظل موجة من الضجيج والبكاء، يُلقى الناس والحقائب جميعهم بلا رحمة، حيث يكون عائلاتهم والسائقون بانتظارهم. ثم ينتهي الأمر بسرعة كما بدأ.

حتى في زمن الحرب يعبُر الناس الحدود لرؤية عائلاتهم. كثيرٌ منهم يسلكون الطريق إلى غازي عنتاب - أكبر مدينة في جنوب تركيا - لمحاولة البدء من جديد وبعضهم ينجح. الأشخاص الذين يزورون الطرف السوري يعيشون عادة في تركيا منذ بضع سنوات ومستقرون فيها. اثنان من تلاميذ المدارس اليافعين يتباهون بفخر بمهاراتهم في اللغة التركية المُكتسبة حديثًا. يُشارك آخرون قصصهم من الحزن واليأس. أهوال الحرب التي شهدناها مرارًا وتكرارًا، موثقة بتفاصيل مفزعة ليراها العالم.

في أحد الأيام، مشت امرأة حتى سيارتنا عندما كنا ننتظر عند الحدود وهي تبكي. أرتنا الأوراق الثبوتية لابنها والذي لا يُسمح له أن يعبر من الجانب الآخر من الحدود. دموعها تسيل وهي تروي كيف مات زوجها وبعض أبنائها في القتال، والآن هي تعمل كمدرسة في تركيا لكنها تريد بشدة أن يكون ابنها معها. لا يوجد شيء يمكننا القيام به للمساعدة. التحدث إلى حرس الحدود لا يجلب أي توضيح، لذلك ستعود وتنتظر بقلق يومًا آخر.

عبر ما يُقارب ثلاثة ملايين سوري حتى الآن إلى تركيا، لكن كثيرون منهم قاموا بذلك بشكلٍ غير رسمي.

«الأشياء التي تجعلك تفقد صوابك»

تعيش (فضيلة الشيخ) وأبناؤها في معسكرٍ غير رسمي قبالة جانب الطريق في جنوب تركيا. إلا أنّه من الصعب ملاحظة وجود أي سكّان في هذه المنطقة فغالبًا ما يُلمح من بعيد القماش المُشمّع الأزرق الذي يظهر من خلال الأشجار ويوحي بوجود أناسٍ يعيشون في تلك المنطقة.

كانت السماء قد أمطرت للتو عندما قابلنا فضيلة. على الرغم من وجود الشمس، فإن الأرض كانت غارقة في الماء، وأصبحت برتقالية كثيفة هشة وطينية لزجة. كانت أحذية الأطفال أكبر من أقدامهم تغرز في الأرض أثناء سيرهم. كما كان هناك طفل بدا في عمر الثلاث سنوات، يتجوّل في حذاءٍ أكبر من قدمه، ووالدته تنحني كل حين كي تُخرج جزمته التي علقت في الوحل. أطفال آخرون كانوا في الصنادل الصيفية، والطين بين أصابع قدميهم، والبعض الآخر كانوا حُفاة.

في اليوم الذي كنتُ أحضر فيه هناك، جاءت منظمة إغاثية لتوزيع الألعاب والمعاطف وأحذية جديدة للأطفال. في قصص النزوح في جنوب شرق تركيا، غالبًا ما يتم التغاضي عن الأعداد الهائلة من الأشخاص المذهلين - الأشخاص العاديين فقط الذين هبّوا للانضمام إلى المنظمات غير الحكومية - لمدّ يد المساعدة وإغاثة المضطر.

يوجد لدى كل من هيئة الإغاثة الإنسانية وحقوق الإنسان والحريات (IHH) و الهلال الأحمر التركي، وهما منظمتا الإغاثة الرسمية في الميدان، مستودعات ضخمة للإغاثة وتعملان جاهدتين لتوفير الدعم الأساسي للسوريين النازحين. لكنهما لا تستطيعان منع قنابل النظام السوري من السقوط عبر الحدود.

فاضلة من إدلب تعيش كلاجئة غير رسمية في تركيا منذ ثلاث سنوات. قالت «لقد جئنا عندما دُمّرت منازلنا. ليس لدينا شيء، ولا حتى المال. نحن نأكل من المساعدات المُقدمة». وأضافت أنها لا تستطيع تحمل تكلفة استئجار منزل. «الوضع سيّء حقًا. تحوّلت ظروفنا من سيِّئ إلى أسوأ في إدلب بعد الثورة. معظم الناس جاؤوا إلى تركيا. إنه أمر صعب حقًا، لأنّ أطفالنا الآن بدون مدارس، لم يتمكنوا من استئناف تعليمهم بعد مغادرتهم. لقد شاهدنا القصف وتدمير المنازل؛ وهي الأشياء التي تدفعك إلى الجنون. قلبي غارق بالحزن».

تقف صديقة (فاضلة) بالقرب منها وتتدخل قائلة: «نأمل أن تكون الأحوال جيدة وأن نتمكن من العودة إلى سوريا لرؤية أقربائنا. لسوء الحظ، الجميع الآن في بلدٍ مختلف. البعض في تركيا، والبعض في لبنان، والبعض في المملكة العربية السعودية؛ كلّهم فرّوا بسبب القصف. الآن الطائرات الحربية تقصف منطقتنا. لم يتبقَ أحد من أقاربنا. مات أبي وأمي تحت القصف. انهار المنزل عليهم. تم سحبهم من تحت الأنقاض».

بينما كنا ننهي المقابلة مع (فضيلة) انهارت باكيةً. بالنسبة لمراسلة تلفزيونية، شخص يبكي أمام الكاميرا هو مشهدٌ قوي. هل هذا يبدو قاسيًا، تصوير شخصٍ في ضائقة كبيرة؟ إذا كنت مُشاهدًا، فهذا ما سترغب بمشاهدته. إنه ألم صعب يتم عرضه حتى يراه العالم. هل لفت انتباهك؟

عندما سقطت دموعها، سألناها لماذا كانت تبكي. «أنا أبكي على ظروفنا. أبكي على ما حدث لنا». عندما دخلنا إلى خيمة (فاضلة)، حتى نتمكن من إزالة الميكروفون الذي علّقناه في ثيابها، فإنها تبدأ في البكاء مرة أخرى. تقف وهي تنظر إلى القماش المُشمّع حولها المُلطّخ بالوحل الذي يستخدمونه كجدار للخيمة التي أصبحت منزلها كان هذا في يناير 2018. الأوضاع لم تتحسن.

الطريق إلى سوريا - العودة إلى البداية

«الشعب يريد إسقاط النظام»

في عام 2012، أثناء قيامي بمهمة، كنتُ أقود سيارتي عبر إحدى ضواحي دمشق وأنا أصوّر الواجهات المغلقة. كان ذلك خلال احتجاجٍ عنيف على القمع الدموي المتزايد للحكومة السورية ضد المتظاهرين. حينها أغلق الناس ببساطة متاجرهم تضامنًا معهم. لمح رجلٌ يمشي على طول الشارع كاميرتنا التي كانت تصوّر من نافذة السيارة وصرخ بصوت عالٍ أحد أكثر الشعارات المناهضة للنظام في ذلك الوقت. كان دليلنا السوري الذي معنا يهتزُّ قائلاً: «هذا شجاعٌ للغاية». ولم نكتشف أبدًا من كان هذا الرجل الشجاع. لم أكن أدرك في ذلك الوقت مدى جُرأة ما فعل. أيُّ نوعٍ من العقاب ينتظر أولئك الذين ألقي القبض عليهم وهم يتحدثون ضد النظام؟

قابلتُ رأفت شحادة في أوائل عام 2018. وهو من حلب وكان عضوًا في الجيش السوري الحر في سوريا حتى أصيب بجروحٍ وتم نقله إلى تركيا. وهو يعيش الآن في منزلٍ صغير مع زوجته وأولاده بالإضافة لدجاجٍ وكلبٍ مرح للغاية. في الأيام الأولى للثورة، كان الجيش السوري الحر يتألف من جنودٍ منشقين وسوريين حملوا السلاح للقتال ضد الجيش السوري. وصف رأفت جو الخوف السائد على نطاقٍ واسع، والذي تم توثيقه لفترة طويلة في ظل النظام السوري لبشار الأسد.

«عندما بدأت الاحتجاجات، طالب الناس بإسقاط النظام الوحشي والقمعي. تمكن ضابط شرطة من جمع كل الناس في قرية واحدة، وضربهم، واحتجازهم في السجن. لقد خرجنا إلى الشوارع بسبب هذا الاضطهاد. لم يكن باستطاعتك النطق بكلمة ضد أي شيء؛ كان عليكَ أن تبقى صامتًا. إذا لم تلتزم بذلك، فستذهب إلى السجن ويحدث لك كل شيء».

وُزعت المساعدات في ذلك اليوم على عائلة رأفت: ألعاب لأطفاله، ومدفأة للمنزل. عندما شاهد المساعدات أثناء إفراغها، فإنّ عينيه اغرورقتا بالدموع. أنا نظرتُ بعيدًا. ليست هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً راشدًا يبكي أثناء توثيقي للحرب في سوريا.

لقد كتبتُ من قبل عن صعوبات مساعدة اللاجئين السوريين. تعددت أشكال الاستجابة لهذه الأزمة، من الازدراء غير المُسامح في العديد من الدول الأوروبية، إلى دول مثل تركيا ولبنان التي استوعبت الأزمة ووفّرت لهم المساعدة، كما دعوا الدول الأخرى إلى المشاركة في تحمل الأعباء؛ وليس فقط من الناحية المالية.

قال رأفت: «الحمد لله، كلّ شيء مُتاح هنا للسوريين. تقدّم الحكومة التركية الأدوية مجانًا للسوريين، فالأوضاع مُريحة هنا. ولكن مهما كانت حياتك، ستشعر بالحنين إلى الوطن». هؤلاء الناس لم يودّوا أبدًا أن يكونوا في وضعٍ هم بحاجة فيه للمساعدة والمعونة.

أسأله عما يفكر به في الوضع الآن، في عام 2018 - هناك الكثير من الفصائل المسلحة، والعديد من الدول الأجنبية بما فيها الولايات المتحدة وإيران وتركيا التي لها حضور في جميع أنحاء البلاد. «لقد تعرّض الشعب السوري للقمع من قِبل الديكتاتوريين. نحن

يحكمنا مجرم. بشار الأسد مجرم». يتابع رأفت «ذلك لأنه يجلب ميليشيات من إيران والعراق ولبنان وحزب الله وميليشيات من الأكراد وحزب العمال الكردستاني والطائرات الحربية الروسية. فيترك أمام الشعب السوري خيارين: إما مغادرة البلاد، أو الموت».

ما كان حقًا مطلوبًا منذ بداية الحرب هو التدخل المناسب من المجتمع الدولي.

التدخل

«لقد قتلوا آمالنا وأحلامنا»

يسمّونه تحريراً. لقد قاتل النظام السوري والجيش الروسي وقوات حماية الشعب الكردية والقوات الديمقراطية السورية المدعومة من الولايات المتحدة - جميعهم قاتلوا لاستعادة السيطرة على الأراضي من داعش. لقد فقدت الجماعة الإرهابية الآن أراضيها في سوريا، لكن الثمن الذي دفعه المدنيون مقابل هذا كان مرتفعًا.

على الحدود التركية السورية، قابلتُ رجلاً أراد أن يبقى مجهولاً خوفاً من الانتقام. حتى على الحدود داخل تركيا، يمكن أن تكون للحكومة السورية عيون وآذان تراقب الجميع. رتبنا لقاءً معه في مكانٍ مختلف.

يعيش الآن في جنوب شرق تركيا مع زوجته وابنته. أثناء تحرير الرقة، فقد أحد عشر من أفراد أسرته: أخوات وأبناء عم وأبناء أخوات. ليس على أيدي الحكومة السورية، ولكن كنتيجة للغارات الجوية للتحالف الأمريكي. «الوضع بالنسبة لعائلتي مثل كثيرين في سوريا، لقد مكثوا هناك لأن داعش سيطرت على الرقة وأجزاء كبيرة من البلاد. القوى الدولية التي تكافح الإرهاب تقتل المدنيين».

بنبرةٍ عنيفة وهادئة معًا تساءل: «كيف يمكن أن تقاتل الولايات المتحدة داعش بينما بشار الأسد يقصف الشعب السوري بشكلٍ عشوائي؟ لقد استُهدفت الرقة بالمدفعية والأسلحة الثقيلة دون اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحماية المدنيين في منازلهم الذين لم

يجـدوا أي مخـرج لأنّ داعـش تسـيطر عـلى المنطقـة. لكـن مـا رأينـاه في النهايـة هـو أنّ المدنيـين قـد قُتلـوا، وأنّ داعـش خرجـت إلى أماكـن أخـرى، حتـى تعيـد ترتيـب صفوفهـا».

قالـت الأمـم المتحـدة إنّ الغـارات الجويـة التـي قادتهـا الولايـات المتحـدة تسـبّبت في خسـائر هائلـة في الأرواح خـلال المعركـة لاسـتعادة الرقـة، وربمـا تكـون قـد انتهكـت القانـون الـدولي. في منزلـه الجديـد في تركيـا أكّـد لنـا بحـزن، «لقـد قتلـوا آمالنـا وأحلامنـا».

عانقتنـا ابنته اليافعة بقوّة أثناء الوداع.

جرائم ضد الإنسانية

أولاً، جـاءت خطـة كـوفي عنـان للسـلام ذات النقـاط السـت لمحاولـة إنقـاذ سـوريا. كان مـن المفـترض أن يكـون مخططًـا لإنهـاء العنـف. كنـتُ مراسـلة إخباريـة عـلى أرض الواقـع عندمـا تـم نـشر مراقبـي جامعـة الـدول العربيـة أولاً، ثـم نـشر بعثـة للأمـم المتحـدة. ولكـن منـذ البدايـة، كان واضحًـا أنّ هـذا الأسـلوب سيفشـل، خصوصًـا في ظـل قلـة عـدد القـوات المنتـشرة والعنـف المسـتمر. لتوضيـح الأمـر؛ كان جليًـا منـذ البدايـة أنّ الإرادة السياسـية لم تكـن موجـودة لا مـن قِبـل الحكومـة السـورية ولا مـن قِبـل المقاتلـين عـلى الأرض، ولا مـن قِبـل الممثلـين السياسـيين الخارجيـين.

مـا فعلتـه بعثـة الأمـم المتحـدة هـو السـماح للصحفيـين بالوصـول إلى مناطـق المعارضـة حيـث لا يسـتطيعون السـفر عـادة. لكـن المخابـرات، الشرطـة السريـة السـورية، كانـت موجـودة في كلّ مـكان. هـذا وقـد اعـترف سـائقنا خـلال هـذه الزيـارة بهـدوء أنـه يتـم اسـتجوابه كل ليلـة حـول تصرفاتنـا خـلال اليـوم.

لم يكـن مبعوثـو الأمـم المتحـدة يخبروننـا بشـكلٍ صريـح إلى أيـن سـتكون وجهتهـم، لذلـك كان الصحفيـون يجتمعـون كل صبـاح خـارج الفنـادق القريبـة مـن قاعـدة الأمـم المتحـدة، في انتظـار متابعـة قافلتهـم. في إحـدى الرحـلات، اتّجهـت المجموعـة إلى حمـص. بعـد أن اسـتقبل مراقبـو الأمـم المتحـدة هنـاك زملاءهـم مـن دمشـق، قطعنـا شـوطًا طويـلًا في المدينـة

المُدمرة. سألتُ رجلاً عجوزاً في متجرٍ صغير عن شعور الجميع تجاه القتال فقال لي إنه «خائف»، «الجميع خائفون».

مقتطف من النص الذي كتبته عن تلك الرحلة: «الدموع التي يحاول جاهدًا عدم إلقائها تُلخّص تمامًا مستوى الدمار الذي لحق بالناس هنا طوال النزاع».

ثم تابعنا طريقنا إلى حماة. كنا لا نزال نتابع قافلة الأمم المتحدة عندما تلقينا معلومات مفادها أنّ الأمم المتحدة كانت في طريقها إلى إدلب - شمال سوريا، حيث سمعنا أنّ جميع الأطراف تنتهك وقف إطلاق النار الذي كان من المُفترض أن يكون ساري المفعول. عندما سمع سائقنا أننا كنا ننوي أن نلحق بقافلة الأمم المتحدة إلى إدلب، ترك عجلة القيادة ورفض الاستمرار.

سمحت لنا مجموعة أخرى من الصحفيين الذين يقومون بالرحلة أن نشاركهم سيارتهم. من أهم ما تعلّمناه أثناء إعداد التقارير الميدانية: قد تعتقد أنك في منافسة مع شبكات أخرى (وأنت كذلك)، لكن هذا يجب ألا يكون له الأولوية فوق مساعدة الزملاء الذين يحاولون أيضًا سرد القصة.

مقتطف آخر من نص تلك الرحلة: «نجد إدلب في ظلّ ظروفٍ تشبه الحصار، وهي مدينة هادئة ومخيفة. يُسمَع صوت إطلاق النار والمدفعية الثقيلة فوق سماء إدلب. ما نراه هو سكان خائفون ومدينة - كان رمزها هو غصن الزيتون، رمز السلام - تعيش الآن في حربٍ أهلية».

بعد بضعة أشهر فقط، استقال مبعوث الأمم المتحدة إلى سوريا، كوفي عنان، عبر إلقاء هذه الكلمات اللعينة حول الوضع على أرض الواقع: «يجب عليكم أن تفهموا أنه بصفتي المبعوث لمجلس الأمن فإنّني أريد السلام لسوريا بقدر ما يريده جميع الأطراف المتحاربة ومجلس الأمن والمجتمع الدولي، فإنّ اهتمامي الأساسي منذ البداية كان رعاية الشعب السوري. لا يزال من الممكن إنقاذ سوريا من أسوأ كارثة؛ إذا كان المجتمع الدولي قادرًا على إظهار الشجاعة والقيادة اللازمة للتنازل عن مصالحهم الجزئية من أجل الشعب السوري».

على مر السنين، واصل فريقٌ مستقل تابع للأمم المتحدة توثيق العدد المتزايد من جرائم الحرب. كانت تقارير قاتمة وصحفية بحتة تذكر التعذيب والقتل على جميع الأطراف. وحشية. تكرارية. دون عقاب. استقالت إحدى أعضاء اللجنة، السويسرية كارلا دي بونتي في عام 2017. وقالت عن استقالتها، «نحن لا نذهب إلى أي مكان».

«دولة إرهاب»

حاليًا، بينما يتحدث العالم عن نهاية مُحتملة للحرب في سوريا، قد فرّ مئات الآلاف من الناس مباشرة إلى الحدود التركية في إدلب. يوجد ملايين الأشخاص في إدلب الآن حيث يعمل الهلال الأحمر التركي لاستيعاب تدفق اللاجئين.

في غضون بضعة أسابيع فقط، شاهدنا في بداية هذا العام مخيمات جديدة على جانب الطريق تظهر وتتوسع على طول الطرق التي أدت إلى المعبر الحدودي.

قام الجيش السوري بتهجير العديد من الجماعات المتمردة مثل داعش وهيئة تحرير الشام المرتبطة بالقاعدة إلى هذا الجزء من شمال سوريا. قامت الحكومة السورية بابتكار حلٍ مؤقت بإرسال الجماعات المتطرفة التي تطردها من المناطق المسيطرة عليها إلى شمال سوريا. لكن بين أولئك الذين يعيشون هناك مدنيون وأطفال.

قابلت محمد في مخيم تديره هيئة الإغاثة الإنسانية وحقوق الإنسان والحريات (IHH) على حدود إدلب، حيث انتقل مع أطفاله بعد أن قُصف منزله في عتريب بريف حلب، على الأرجح من قبل الطائرات الحربية الروسية. كان من المُفترض أن تكون «منطقة خفض التصعيد» ، في إطار ما يُسمى بعملية أستانا - وهي خطة وضعتها كل مِن تركيا وروسيا وإيران لتخفيف القتال في مناطق معينة من سوريا. وهنا أركّز على تخفيف القتال، وليس إيقافه بالكامل. أحد الأشخاص الذين قابلتهم في سوريا شرح الاتفاقية باختصار قائلا إن نظام الأسد وحلفاءه يستخدمون العديد من الثغرات في الاتفاقية «للاستمرار في قتل الناس ولكن ليس الكثير، وليس بشكلٍ واضح».

يقول محمد، «لم نعد نثق في أي من هذه الاتفاقيات». في مكان إقامته الجديد في المخيم، يخبرنا محمد، مع أولاده من حوله - أحدهم مُصاب بجروحٍ في وجهه - بما حدث في يوم الضربة الجوية. «كان مُجرّد يومٍ عادي. فجأة قصفتنا الطائرات الحربية. كنا في منزلنا، في غرفة مثل الغرفة التي نحن فيها هنا. بقيت هذه الغرفة سليمة، لكن المنزل كله أصبح على الأرض. شعرنا بالرُّعب والخوف من أن يحدث شيء للأطفال. لا يمكنك فهم ما كان يحدث. جلست زوجتي مع الأطفال في زاوية الغرفة، في محاولة لتهدئتهم وحمايتهم. كانت هناك بعض الإصابات على وجوههم. لقد كانت حالة من الرعب؛ لم يكن هناك شيء واضح بسبب الغبار، وكان الأطفال يبكون».

المشكلة الآن بالنسبة لأشخاص مثل محمد وأسرته، وغيرهم من المدنيين الذين يعيشون في الشمال، هي أنّ أجزاء كبيرة من المنطقة تسيطر عليها جماعة تُعرف باسم هيئة التحرير، وهي جماعة مُرتبطة بالقاعدة بالرغم مِن أنّها حاولت أن تنأى بنفسها عن المنظمة الإرهابية. لكن في زيارة قمتُ بها مؤخراً إلى إدلب، لاحظتُ أنّ الرجال إما متوترون بشكلٍ خطير بأسلحتهم، أو غير مُبالين بشكلٍ مُقلق بشأن القوة التي يمارسونها حاليًا.

هؤلاء ليسوا جنوداً. إنهم محاربون ومدنيون خائفون. إنّ وجود الجماعات في المنطقة وسيطرتهم عليها يُعرّض المدنيين للخطر. إنه يعطي الجيشين السوري والروسي ذريعة لاستهداف المدنيين عندما يقصفون المناطق.

«انظري إلى هؤلاء الأطفال»، صاح رجلٌ في إدلب بغضب، بعد موقع غارة جوية آخر في إدلب كنا نزوره. «هل هم إرهابيون؟ لا ليسوا كذلك». هذا يترك أشخاصًا مثل محمد وعائلته ومدنيين آخرين في نفس الوضع الذي يتكرّر مرارًا وتكرارًا على مرّ السنين في سوريا.

عالقون في مرمى النيران

كان من المفترض أن تكون منطقة آمنة. إدلب والأتارب كانتا منطقتين آمنتين. كنا نعلم أنّ هناك غارات جوية، ولكن فجأة تم شن هجمات جوية. يُخبرنا محمد: «لم تكن بنادق الكلاشينكوف بعيدة عن منطقتنا. لم يكن هناك سوى الأطفال والأسواق والمواد الغذائية والملابس. لم تكن هناك أسلحة أو مواقع للإرهابيين. لم نعد نثق في مؤتمرات السلام. لن نُفاجأ أبدًا إذا تعرضت المنطقة لهجومٍ أثناء وجودنا فيها». هذه مجرد قصص قليلة من بين الملايين من مثيلاتها. ما لا يقل عن 400000 لقوا حتفهم. إنّ عدم وجود رقم دقيق لعدد السوريين الذين قُتلوا حتى الآن في هذه الحرب يعبر عن الكثير.

الثورة غير المكتملة

سؤال: كيف يمكن لبلد ما أن يعيد البناء ويكون له مستقبل قبل أن يتم الاعتراف بجميع الجرائم التي وقعت - ولا تزال تحدث - ومُحاسبة المسؤولين عنها وإخضاعهم للمُساءلة؟ كيف يمكن أن تستمر الحياة، والمسؤول الذي ترأس البلاد وقمع هذه الثورة بدموية لا يزال يترأس الدولة؟

لقد رأينا ذلك مرارًا وتكرارًا في حمص، حلب، والغوطة الشرقية. الألم؛ وليس الألم فحسب، بل جرائم الحرب الموثقة، التي كانت محفورة على وجوه السوريين الذين نجوا والذين يريدون أن تنتهي هذه الحرب أكثر من أي شيء آخر. نعلم ما يحدث. نبكي عندما نشاهد الوثائق المؤلمة لقتل مئات الآلاف من الناس على مرّ السنين. نحن نعرف، لكننا في نفس الوقت لا نعرف.

عندما سألتُ عن انتهاء الحرب في سوريا، قال لي صديق سوري مقرب: «الثورة، مثل الروح، لن تموت. حتى لو انتهت الحرب. نحن سوريون. نحن ما زلنا على قيد الحياة. لا تزال روح الثورة حية».

تشييئ اللاجئين

لماذا يجب علينا ألا نخسر إنسانيّتنا لأجل البحث عن نبأ مثير

بقلم تانيا غودسوزيان

أطفال في مخيم آشـتي للاجئين في شـمال العراق

أثناء إعدادِ التقارير من مخيماتِ اللاجئين، هناك خيط رفيع بين نشرِ الوعي ومعاملةِ اللاجئين المتخوفين من الحربِ كما لو أنهم نجومٌ في عرضِ سيرك غريب. تانيا غودسوزيان

في عام 2016، أثناء إعدادِ التقارير من أحدِ مخيمات اللاجئين في شمالِ العراق، اعتذرت المترجمة الخاصة بي وخطت خارج الخيمة. قالت وهي تبكي: «لا يُمكنني القيامُ بذلك». «ألا ترين الألم على وجه الأم؟ في كلّ مرة تروي فيها القصة، تسترجعُ الأحداث. لا أستطيعُ أن أطلبَ منها أن تفعلَ ذلك مرة أخرى».

الأم هي كردية يزيدية من سنجار اختطفت داعش ابنتها المراهقة في صيفِ عام 2014. ولم تسمع العائلة عنها منذ عامين. كان ابنها الأصغر لا يزالُ في حالةِ صدمة ولم يتحدّث بأيّ كلمة منذ اختطافِ أخته. وبالرّغم من أنه كان يتلقى المساعدة من مُعالِجٍ في المخيم، فإن التقدم كان بطيئاً للغاية.

كان هناك العديد من هذه القصص في مخيمِ أشتي للنازحين، على مشارفِ مدينة السليمانية. يوجدُ في المخيم 2800 عائلة، كل واحدة لها مأساة، كل واحدة فريدة من نوعها، وكل واحدة تطوي الأيامَ والليالي وهي مأسورة في المخيم.

شيرين قاسم، وهي سيدة كرديّة يزيديّة تبلغُ من العمرِ 43 عامًا ولديها تسعةُ أطفال من سنجار، تتذكّرُ قريتها جيرزاريك وهي تشتعل أثناء قيامها هي وأطفالها بالقفزِ إلى شاحنة المختار للتوجه إلى الجبال. زوجة ابنها، وهي من أعضاء البشمركة، لم تكن محظوظة للغاية، فقد اختُطفت من قِبل داعش ولم يُسمع عنها منذ ذلك الحين.

هذه الحكايات البائسة هي مادة عظيمة للصحفيين الذين يبحثون عن مواد تتناولُ قضايا أو أزمات إنسانية طارئة ومُلحّة لتكملة تقاريرهم عن الحرب، لكن قصة شخصٍ ما هي كابوسٌ حي يعيشه شخصٌ آخر.

مشاهد جانبية لمراسلي الحرب

في عصرِ وسائلِ التواصل الاجتماعي، حيث تُقاسُ قيمةُ المقالِ بعددِ النقراتِ والإعجابات، يستطيعُ الصحفيّون الذين يُغطّون الحروب، وهم على عجلة من أجلِ الحصولِ على قصةٍ رائعة، أن ينسوا في كثيرٍ من الأحيان أنّ موضوعات تقاريرهم هم أشخاصٌ حقيقيون لديهم عواطف حقيقية قد تكونُ النوايا حسنة لأولئك الصحفيين الذين يتصوّرون مع الأطفال اللاجئين المُبتسمين في الخرقِ والنعال في درجاتِ الحرارة الباردة، ولكن النتيجة النهائية هي التقليلُ من شأنِ هؤلاء الأطفال. إذ إن الصور تقول: أنظر إلي، أنا هنا بين هؤلاء الأشخاص البائسين وأستمعُ إلى قصصهم. الصورة ـ مثل القصة ـ تصبحُ أقلّ عن اللاجئ وأكثر عن الصحفي، وذلك عن طريق عرضِ الأشخاص كأنهم في عرضٍ جانبي للسيرك.

من المؤكّدِ أنّ عدم الحساسية قد يكونُ غير مقصود، ولكنه نتيجة المسافة العاطفية التي يجب على معظم الصحفيين الحفاظ عليها في خضمِ الحرب والبؤسِ الشديد، خشية أن يُخاطروا بفقدانِ قدرتهم على كتابةِ التقاريرِ بموضوعية. لكن للأسف، أصبحَ الأمر مُجرّد أسلوبٍ مُتّبع.

يدخـلُ الصحفـي إلى المخيـمِ ويجتمـعُ أولاً مـع المديـرِ لتقديـمِ قائمـة بالمقابـلاتِ التـي يـودُ إجراءهـا. «نـودُ أن نلتقـي ببعـض اللاجئـين الذيـن لديهـم تجـارب لافتـة للأنظـار (بمعنـى مثـيرة). بمعنـى آخـر، التجـارب التـي مـن المُرجّـحِ أن تصـدم القـارئ. وبنـاءً عـلى ذلـك يُقـدّمُ المديـرُ مـا لديـه: «هـل ترغـبُ في مقابلـةِ مقاتـلٍ سـابق اختُطِفـت زوجتـه؟ امـرأة فقـدت ولدهـا؟ طفـلٌ يتيـم؟ أخٌ صامـتٌ اختُطفـت أختـه المراهقـة وأُجـبرت عـلى العبوديـة الجنسـية؟

لكـن إدارة المخيـم ليسـت بـلا قلـب. وتأمـلُ في معظـمِ الأحيـان أن يُسـاهم اهتـمامُ وسـائلِ الإعـلامِ في توليـدِ مزيـدٍ مـن الوعـي العالمـي حـول محنـةِ النازحـين وربمـا جلـبِ المزيـدِ مـن المسـاعدات. كـما أنّ ذلـك يُسـلط الضـوء عـلى الجهـودِ التـي يبذلوهـا ـ بمـا في ذلـك المنظـمات غـير الحكوميـة التابعـة لهـا - لإغاثـة هـؤلاء الأشـخاص المنكوبـين. إنهـم ينظـرون إلى الصحفيـين عـلى أنهـم وسـيلة لنـشرِ القصـصِ التـي يعيشـونها يومًـا بعـد يـوم. مـن الصعـبِ قيـاسُ مقـدارِ تأثـيرِ التغطيـة في مسـاعدةِ القضيـة، لكـن وكصحفيّـة زارت عـدّة مخيـماتٍ عـلى مـرّ السـنين ـ مذنبـة أيضًـا في البحـثِ عـن قصـصٍ أكـثر إثـارة ـ غالبًـا مـا أشـعرُ بمشـاعرِ اللاجئـين بعـد الخـروجِ مـن خيمتهـم في المخيـم.

كشـفت دراسـة أُجريـت عـلى اللاجئـين اليزيديـين والتـي نُـشرت في عـام 2018 أنّ الاضطرابـاتِ العقليـة كانـت سـائدة، خاصّـة بـين اللاجئـين (أو النازحـين) المراهقـين، الذيـن كانـوا عرضـة للاكتئـابِ لأسـبابٍ مختلفـة، بمـا في ذلـك الأحـداث العنيفـة أو المُميتـة. بعـد هجرتهـم القسريـة مـن مسـقطِ رأسـهم، تـم تشـخيصُ اضطرابـات مـا بعـد الصدمـة (PTSD) وغيرهـا مـن الاضطرابـات. ووردَ أنّ الأطفـال الذيـن تعرضـوا للهجـرة القسريـة أظهـروا مشـاكل سـلوكية وعاطفيـة، بمـا في ذلـك الخجـل المفـرط والخـوف مـن القبـض عليهـم. كان معظـمُ الأطفـال يعانـون مـن صعوبـة في النـوم، وتـم تشـخيصُ حـالات أكـثر مـن ثلـث الأطفـال بأنهـا اضطرابـات الاكتئـاب.

في كلّ مـرة يُطلـب فيهـا مـن هـذه العائـلات اسـتذكار تجاربهـا المروّعـة، أو الإجابـة عـن أسـئلة التحقيـق مـن قبـل الصحفيـين الفضوليـين، والتقـاط صـور غـير مـبررة، يكـون هنـاك خطـرُ تأجيـجِ آمـالٍ زائفـة في أن يتـمّ إنقاذهـم مـن أزمتهـم. فهـم يأملـون، في النهايـة، أن تُلهِـمَ حكايتهـم صحفيًـا باسـتطاعته أن يقـدّمَ لهـم في الواقـع بعـض المسـاعدة الملموسـة، وربمـا يتبـعُ ذلـك خروجهـم سريعًـا مـن المخيـمِ البائـس!

ترتيب المسرح (للصحفي)

عمـلَ محمـد الزهارنـة كدليـلٍ للصحفيـين الغربيـين في غـزة المُحـاصرة لأربـعِ سـنوات. بعـد حربِ 2014، تدفّـق الصحفيـون للبحـثِ عـن تغطيـة الكـوارثِ الإنسـانية، بمـا في ذلـك العائـلات التـي أصبحـت بـلا مـأوى وتعيـش في عـوز الآن في مخيـمات مؤقتـة. قـال الزهارنـة إنـه كان في حـيرةٍ مـن عـدد الصحفيـين الذيـن بـدوا وكأنهـم يشـعرون أنّ الأحـداث غـير كافيـة مـن أجـل سـبقٍ صحفـي، ولذلـك بـدأوا يبحثـون عـن بعـض المؤثـرات الفنيـة لإضافتهـا عـلى أنهـا صعوبـات».

وقـال «لقـد طلـب الصحفيـون منـي عـدة مـرات المسـاعدة في إعـداد الصـور». «يريـدون أشـياء مجنونـة مثـل اطلـب مـن ذلـك الطفـل أن يتسـلق عـلى السـطح ويلعـب بالكـرة». أو «حـرّك هـذه الأرائـك إلى الخـارج حتـى نتمكـن مـن التقـاطِ صـور لرجـالٍ يجلسـون في الخـارج دون سـقفٍ فـوق رؤوسـهم». في وقـتٍ لاحـق عندمـا تـم نـشر الصـور في الصحـف الأمريكيـة أو الأوروبيـة الشـهيرة وقـرأتُ التعليقـات، اندهشـتُ حقًـا مـن الطريقـة التـي يمكنهـم بهـا كتابـة مثـل هـذه الافـتراءات. إنهـم يصطنعـون المواقـف».

ثـم تابـع الزهارنـة ، «السـيد فـلان يحـدّق في أنقـاضِ منزلـه. إنـه ليـس منزلـه!» ويضيـف «الأطفـال يلعبـون عـلى السـطح. إنهـم فقـط عـلى السـطح لأنـك جعلتهـم يصعـدون إلى هنـاك!». وأضـاف: «هـل حيـاة الأشـخاص الذيـن فقـدوا كل شيء ليسـت بائسـة بمـا فيـه الكفايـة بحيـث يتعـيّن عـلى هـؤلاء الصحفيـين أن يضيفـوا الإذلال إلى ذلـك كلـه؟ صدقينـي. أنـا مـن غـزة ولا يحتاجـون إلى تخيّـل ذلـك. إنّـه سيء بمـا فيـه الكفايـة».

بالنسـبة لأولئـك مثـل الزهارنـة الذيـن يعملـون عـن كثـب مـع الصحفيـين والعائـلات النازحـة، فـإنّ التحـدي يكمـنُ في مُطابقـةِ المطالـبِ الصحفيـة، والتـي يعتبرُهـا البعـض «مجـرّد غبـاء»، مـع الحاجـة المشروعـة والمُلحّـة إلى زيـادةِ الوعـي الـدولي في وقـتٍ تتزايـدُ فيـه حساسـية الغـرب إلى محنـة «الآخـر».

بالنسـبة لكثـير مـن الصحفيـين الأجانـب، الذيـن يأتـون مـن ظـروفٍ مُريحـة نسـبيًا، مـن الصعـب أن نتذكّـر أنّ العديـد مـن هـؤلاء الأشـخاص المشرّديـن كانـوا يعيشـون ذات يـومٍ حيـاة طبيعيـة. فمنـذ وقـتٍ ليـس ببعيـد كان لديهـم منـازل، ولديهـم شركات، وكان لديهـم مُدّخـرات أيضًـا. ظروفهـم الحاليـة ليسـت طبيعيـة بـأي حـالٍ مـن الأحـوال بالنسـبة لهـم ـ فهـم لا يزالـون يتصارعـون معهـا.

وكما قال الزهارنة: «هذا الرجل، هذه الأم، هؤلاء الأطفال، كانوا عادةً أشخاصًا عاديين، ثم أصبحوا فجأة فقراء يجلسون في خيمة، فقدوا كل ما يملكونه من ممتلكات وأمل. لكن الصحفيون لا يفهمون هذا، ويطلبون مني ترتيب لقاءات معهم ... يختارون قضاياهم كما لو كانوا في سوبر ماركت. ويُتابع «لا، لا نريد هذه الأم، نريد الرجل الذي فقد طفليه ... نريد منزلاً بدون كهرباء»، وهم يُصدرون أحكامًا على من تكون قصته أكثر مأساوية.

يعترفُ الزهارنة أنه في بعض الأحيان رفض ببساطة ترجمة ما كان يطلبه الصحفي، «بدافع الخجل». في أحدِ هذه الحوادث، بعد أن انتهت الأم من وصفِ مقتل ابنها الصغير أمام الكاميرا، طلب الصحفي من الزهارنة أن يُخبر المرأة بأن تكرر ما قالته للتوّ لأن زاوية التصوير لم تكن مناسبة بما يكفي.

قال: «شعرتُ بالخزي أن أطلب ذلك منها». كانت تتحدّث عن ابنها الذي مات في الحرب. وصفت كيف تم إطلاق النار على طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات ـ اسمه معتصم ـ وكيف قُتل أمام عينيها. بالنسبة للصحفي، كان مجرّد طفل. أما بالنسبة للأم، كان طفلها، حياتها. أجبتُ عنها وقلتُ أنها لن تفعل ذلك مرة أخرى. نعيدُ التسجيل مرة ثانية؟ لا يمكن. كان عمره ثلاث سنوات واسمه معتصم. لا يُهمني إذا لم تكن الإضاءة مناسبة للكاميرا. قلتُ للصحفي «لقد حصلتَ على قصتك، اذهب الآن».

يقول الزهارنة، إنّ أحد أكثر العواقب المؤسفة للتغطية الإعلامية هو جرعة الأمل الزائفة الذي يعطيها الصحفيون للعائلات. «عندما يلتقي هؤلاء الصحفيون بالعائلات، يُقدّم الكثير منهم وعودًا كبيرة من أجل تهدئتهم واكتساب ثقتهم، حتى يتمكنوا من الانفتاح. إنهم يُبشرون بوعودٍ كبيرة، مثل: «سننشر هذا والعالم بأسرِه سيرى ويعرفُ معاناتك وستحصل على المساعدة». هذا أمرٌ شائع. «لكن بعد مُضي وقتٍ طويل على خروج الصحفيين من غزة، ونشر قصصهم، وتحوّل الاهتمام إلى قضية أخرى، تبقى هذه العائلات على اتصال معي. يسألونني عما إذا كان الصحفي حصل على المساعدة لهم وكيف كانت ردة فعل «العالم بأسره» على قصتهم ... أجدُ نفسي عالقًا في زاوية. ماذا يمكنني أن أقول لهم؟»

في حـين أنّ هـذا قـد يبـدو إدانـة قاسـية للتغطيـة الإعلاميـة للأزمـات الكـبرى في عصرنـا ـ العديـد مـن الكـوارث الإنسـانية في كلّ ركـنٍ مـن أركان العـالم ـ فإنـه لا يعنـي أنّ التغطيـة يجـب أن تتوقـف؛ بـل عـلى العكـس تمامًـا. مـن المهـم أن تسـتمر التغطيـة الإعلاميـة، لكـن مـع بـذلِ المتخصّصـين في وسـائل الإعـلام جهـدًا أقـلّ لإيجـاد «لقطـات مُربحـة» وقصـصٍ نصيـة لتحقيـق أفضـل تأثـير ميلودرامـي، والتركيـز بشـكلٍ أكـبر عـلى القصـص الفعليـة عـلى الأرض ،ربمـا في المقدمـة، والتـي غالبًـا مـا تذهـب دون أن يسـمعها أو يراهـا أحـد.

رجل الحلوى

ومـع ذلـك، هنـاك قصـصٌ يجـب سردهـا حتـى ولـو لم يكـن المحـرّر يُشـجِّع عليهـا أو يطلبهـا. وغالبًـا مـا تكـون أفضـل القصـص التـي يجـب سردهـا؛ قصـص في كثـير مـن الأحيـان مُكلّلـة بالمصاعـب والحرمـان. وبالرغـم مِـن أنّ رجـل الحلـوى لـن يـرى اسـمه أبـداً في عنـوانٍ رئيـسي أو متجـرٍ في صـورة حائـزة عـلى جوائـز، فـإن قصتـه يجـب أن تُـروى.

في مخيـم أشـتي، صادفـتُ حيـدر إبراهيـم البالـغ مـن العمـر 26 عامـاً، وهـو أحـد النازحـين مـن الموصـل وكان يُعـرف باسـم «رجـل الحلـوى». كانـت بسـطته الصغـيرة، مقابـل الطريـق الـترابي الضيـق لمدرسـة المخيـم المؤقتـة، مليئـة بجميـع أنـواع الحلويـات الزاهيـة الألـوان التـي تسـوّس الأسـنان والمصاصـات والرقائـق والمشروبـات.

كلّ يـومٍ بعـد دوام المدرسـة، يصطـفُّ المشـترون الصغـار أمـام بسـطة إبراهيـم لـشراء كلّ مـا في وسـعهم بمصروفهـم اليومـي. لقـد كانـت أشـبه بشركـة تجاريـة، نعـم، ولكـن كـما أخـبرني إبراهيـم، كان أكـثر مـن مجـرّد عمـلٍ يسـترزقُ منـه. لقـد كانـت خدمـة للمجتمـع لرسـم الابتسـامات اللامنتهيـة. قـد لا يكـون بديـلاً عـن طبيـبٍ نفـسي، ولكـن يبـدو أنـه يجعـل الظـروف أكـثر احتـمالًا لأطفـال المخيـم. «هـؤلاء الأطفـال يأتـون لرؤيتـي أثنـاء الفرصـة كل يـوم لتنـاول وجبـة خفيفـة أو مـشروب، والبعـض الآخـر يأتـون مـن الطـرف الآخـر مـن المخيـم لأنهـم يعلمـون أنّ هنـاك رجـلاً هنـا سـيكونُ لطيفًـا معهـم ويبتسـم لهـم» ، يقـول «هـل يمكنـك أن تتخيّـل أنهـم يقطعـون كل هـذا الطريـق لمجـرّد الحصـول عـلى ابتسـامة؟»

كان هناك 8000 طفل وما يقرب من 2800 عائلة نازحة تعيشُ هناك. وتحمّل الكثيرون منهم ندبات الصدمة، بعضهم كان صامتًا، والبعض الآخر يعاني من كوابيس متكرّرة. كان يُنظر إلى إبراهيم على أنه «أخ كبير» للعديد من هؤلاء الأطفال، ومثلهم، كانت رحلته صعبة.

حيدر إبراهيم كرديٌ من جماعة الشاباك، وقد فرّ من مسقط رأسه في بعشيقة، بالقرب من الموصل، في صيف عام 2014 بعد فترة وجيزة من إعلان داعش الخلافة هناك. الشاباك هم جماعة عرقية دينية، معظمهم يتّبعون الشبكية، وهي جماعة تابعة للمذهب الشيعي في الإسلام. لا يوجد هناك معلومات دقيقة عن عدد أفراد الشاباك في العراق، فالتقديرات تشير إلى أنهم ما بين 130 ألفاً و 500 ألف نسمة.

فتح إبراهيم وشقيقه بسطتهما بعد فترة وجيزة من الانتقال إلى مخيم أشتي من مخيمٍ آخر للنازحين. عند بسطة الحلوى، وعلى الرغم من الابتسامات والحلويات، يُمكن رؤية معاناة الأطفال. يقول ابراهيم «إنهم يحبون التحدّث، لكنهم لا يبوحون بمشاعرهم أو مشاكلهم». ثم يُتابع «إنهم يأتون، يضحكون قليلاً ويشترون الحلويات بأسعارٍ زهيدة يمكن للوالدين تحمّلها». بعض الأطفال مهذب، والبعض الآخر يسرق. وقال «أنا صعبٌ مع اللصوص، لكنني لستُ قاسيًا للغاية».

بسطة إبراهيم الصغيرة التي فيها حلويات ومشاعر اللطف التي ينشرها تدعم جهود المنظمات غير الحكومية المحلية ، التي تنفذ مجموعة من البرامج النفسية والاجتماعية لمعالجة الصدمات النفسية للأطفال، سواء كانت ورش عمل فنية أو دروس موسيقى. ولكنه بطريقته الصغيرة المميزة، يُحدث فرقًا. حقيقة أنّ وسائل الإعلام الغربية السائدة لم ترَ قصته ولم تلتقط صورته، تشرحُ لنا عن حالة «صحافة اللاجئين» المُنتشرة أكثر مما تشرح عنه.

مخيم آشـتي للاجئين في شمال العراق

المظالم القديمة تموت بقوة

ولكن حتى القصص الكبيرة لا يتم سردها في كثيرٍ من الأحيان. ففي البلدان التي مزّقتها الحرب، لا تكفي التسويات السياسية وحدها لفضّ النزاع بين الجماعات العرقية والدينية. بالنسبة للكثيرين الذين يتعاملون مع مئاتِ الآلاف من النازحين داخلياً والذين فرّوا من مناطقِ القتال، يجب أن تبدأ أعمال المُصالحة في المخيمات، بين الناس، لضمان التعايشِ السلمي في المستقبل. يقع الكثيرُ من العملِ على أكتافِ الإدارة في مخيماتِ إعادةِ التوطين المؤقتة التي يتعيّنُ عليها التعامل مع المظالم الطائفية التي تأتي مع اللاجئين والنازحين.

في مخيم أشتي، قابلتُ شيخًا يزيديًا كان لديه الكثير ليقوله، لكنه رفض إعطاء اسمه. جلسَ على ركبتيه على الأرضِ ثم أمسكَ بحجر ورسمَ خطوطًا على الرمالِ لإظهارِ كيف دخلَ مقاتلو داعش قبل عامين إلى سونون، وهي بلدة صغيرة في سنجار. وقال «لقد أتوا من أربعةِ اتجاهات». «كان لديهم دبابات وقذائف صاروخية [قنابل صاروخية] وكلّ شيء. كل ما كان لدينا أسلحة قديمة بسيطة. ولم يتبقَّ لنا سوى طريقٍ واحد، وأدى ذلك الطريق إلى الجبال. لقد أخذنا بنادقنا، نساءنا وأطفالنا، وهربنا». وقال إنّ كل شيء بدأ بمكالمةٍ هاتفية مُرعبة تلقاها في منتصف الليل تقريبًا من إحدى القرى المجاورة التي اجتاحتها داعش في أغسطس عام 2014. لقد قيل له «لقد تعرّضنا للخيانة. لقد ذهب البشمركة. لا أحد يأتي لمساعدتنا، اهرب إلى الجبال». ثم أضاف أنّ الجيش العراقي غادر المنطقة قبل شهرين فقط.

قاتل السكان لعدة ساعات من مواقعهم في الجبال حتى نفدت ذخيرتهم. كما فرّ حوالي 50 ألفاً من الأكراد اليزيديين إلى جبالِ سنجار وتقطّعت بهم السبل هناك لعدة أشهر قبل أن تشنّ الولايات المتحدة غاراتٍ جوية على المنطقة. كان شهر أغسطس والجو حارًا. وورد أنّ حوالي سبعين طفلاً ماتوا بسبب الجوع والجفاف. العديد مِن الذين لم يتمكنوا من الفرار إلى الجبال قُتلوا أو أُسروا من قِبل داعش، بمن فيهم أكثر من 3000 طفل؛ كما تم اختطاف حوالي 7000 امرأة.

لقد أصبح هذا الشيخ اليزيدي الآن مُدرّسًا في إحدى المدارسِ المؤقتة في مخيم أشتي، والذي كان مُقسّمًا في الغالبِ بين الأكراد اليزيديين والعرب من الأنبار وصلاح الدين وسنجار وشنغال والفلوجة والموصل. كان التوتر بين الجماعتين داخل المخيم يوحي بأنّ المصالحة قد تكون طويلة ومُعقدة. كان هناك خوفٌ وغضب في ظلّ غياب أيّ

تفاعلٍ اجتماعيّ بين العرب والأكراد اليزيديين. كان من الواضحِ أنّ الصدمة الناجمة عن هذا الصراع لن يتم التغلّبُ عليها بسهولة، خاصة في ظلّ ظروف المعيشة الصعبة. كان الأطفال اليزيديون يعانون من صدمة أكبر من الآخرين، وكانوا لا يفترقون عن بعض، كما كانوا أكثر ترددًا في الاختلاط بسواهم، وسلوك البالغين بالتأكيد لم يساعدهم على تخطّي ذلك.

بعض العرب يسخرون من الأكراد اليزيديين باعتبارهم «عبدة شيطان» ، بينما يُعرف اليزيديين بأنهم جماعة مُتماسكة وعرقية دينية تنأى بنفسها عن التفاعل مع «الغرباء». أدى ذلك إلى امتناع الأطفال اليزيديين عن الذهابِ إلى المدرسة فجأة بسببِ التوترات العرقية. «لقد تواصلنا مع أصحاب النفوذ في المجتمعِ اليزيدي وبالأخص قادتهم، وكذلك شيوخ المجتمعات العربية، وطلبنا منهم إقناع البالغين في مجتمعاتهم بعدم مناقشة هذه القضايا أمام أطفالهم، وألا يستخدموا عباراتٍ غير لائقة، على الأقل ليس أمام الأطفال.

تقوم منظمة إنقاذ الطفولة الكردية (KSC)، أحد شركاء اليونيسف، بالعمل على إنشاءِ المناطق «الصديقة للأطفال» في خمسة مخيمات، وتشمل هذه المدارس والأنشطة الرياضية وورش العمل الفنية للأطفال النازحين. محمد العلوان، 43 عامًا، من النازحين من منطقة صلاح الدين، هو أحد مدرّسي المدارس التي تديرُها منظمة إنقاذ الطفولة الكردية، وهو موجودٌ في مخيم أشتي منذ يناير 2014.

محمد شارك تجربته الخاصة التي قادته إلى مخيم أشتي. يتذكرُ قائلاً «دخل تنظيم الدولة الإسلامية إلى المدينة وانعزلنا فجأة عن كلّ شيء». لم يكن لدينا هاتف ولا غاز ولا طعام. لقد اضطررنا إلى جمعِ جذورِ النباتات لطهي الطعام وإلا كنا سنتضوّرُ جوعًا». «ثم وصلت الميليشيات الشيعية وكان هناك قتالٌ بين داعش والميليشيات»، على حدّ قوله. بقي العلوان في منطقة صلاح الدين لمدة خمسة أشهر قبل أن يتمكنَ أخيرًا من الفرارِ مع زوجته وأطفاله الثلاثة عشر. يقولُ إنه لم يكن من الصعب للغاية الفرار، «لأنّ داعش كانت مشغولة للغاية في محاربة الميليشيات الشيعية، وكان عددُ السكانِ كبيرًا لدرجة أنّه كان من الصعبِ السيطرة على التدفق الخارجي للمدنيين».

يقولُ العلوان إنّ التوترات بين اليزيديين والعرب في المخيم كانت مرتفعة للغاية في البداية. «كان من الصعبِ التعاملِ مع ذلك، لكننا نُعلّم الأطفال أننا أصدقاء، ونحن جزءٌ من نفس البلد، ونحن نبذلُ جهداً لخلطهم في أنشطة حتى يُجبرون على التفاعل معًا».

تتذكرُ شيرين قاسم، البالغة من العمر 34 عامًا وهي كردية يزيدية وأم لتسعة أطفال من سنجار، رؤية جارتها المجاورة تنضمُ إلى مقاتلي داعش. «كان جارتي عربية، وخانونا وبدأوا القتال ضدنا. اعتدنا على الاحتفال بحفلاتِ الزفاف معًا. ثم في اليوم التالي وضعوا أيديهم في يد داعش. كيف يمكنني العودة إلى هناك مرة أخرى؟ كيف يمكنني الوثوق بهم مرة أخرى؟».

قالت قاسم إنها ترغبُ في أن يذهبَ أطفالها إلى المدرسة، لكنها قالت إنهم خائفون لأنّ العديد من زملائهم في الصف سيكونون عربًا. قال الشيخ اليزيدي «لكن ليس لدينا مشكلة مع العرب. هؤلاء الناس هنا في المخيم لم يكونوا يعيشون في منطقتنا. هؤلاء الناس مثلنا، مطرودين من منازلهم في صلاح الدين وديالى والأنبار. ليسوا هم الذين فعلوا هذا بنا». للأسف، هناك الكثير من هذه القصص، ولكن بدون صورة لإظهارها أو مأساة كبيرة للإبلاغِ عنها، فإن القليل من وسائل الإعلام لديه ميلٌ لنشرِ هذه القصص أو تصويرِ فيديوهات عنها، أو حتى كتابتها على مواقعهم.

مأزق الصحفي

هذا هو المأزق الذي يواجهه الصحفيون. كما أخبرني أحد الزملاء، فإنّ القصص في هذا الوسط «تحتاجُ إلى الدماء والكثير من الانفجارات أو لصورة عربيّ ذي عينين زرقاوين». وهنا تكمنُ المفارقة لكن مع مُبرّرٍ منطقي.

التناقضُ ناتجٌ عن الانتشارِ الحديثِ للمعلومات. في السابق، كان هناك عددٌ قليلٌ من المجلاتِ والمنافذِ الإعلامية الكبيرة التي تحتكرُ المعلومات وجمهور القرّاء. كانت إنترناشيونال هيرالد تريبيون ولوموند ورويترز ووكالات الأنباء تعرضُ للمشاهد مآسي العالم والتي تراوحت بين بيافرا وبنغلاديش، بل وتسيطر عليها إلى حدٍ كبير. اليوم، تم القضاء على احتكارِ المعلومات وإضفاء الطابع الديمقراطي على المعلومات (والتي قد

يعتبرُها البعض فوضى المعلومات). أولاً جاءت الأقمار الصناعية، ثم قنوات الكابل، والآن الهواتف المحمولة. وهنا يكمن مأزق الصحفي، كيف تتنافس وسائل الإعلام القائمة (قد يقول البعض) التي عفا عليها الزمن ضد قصة، ما لم يتم التحقق منها بالمجمل، والتي تنتهي في موقع مدونة أو على فيسبوك أو تويتر؟ كيف يتنافس صحفيو «المدرسة القديمة» على هاتف محمول مع كاميرا وواتساب عندما يتعين عليهم التحقق من قصصهم وكتابتها ومصدرها؟

وتفسر هذه المفارقة أيضًا إغلاق المكاتب الخارجية الباهظة الثمن، وتخفيض عددِ الصحفيين المعتمدين والابتعاد عن المجلاتِ الورقية. انخفضت أعدادُ المشتركين وعائدات الإعلانات والضغط التنافسي لإظهارِ ربحٍ بسيط، وهذا يعني أنّ الميزانيات قد خُفّضت إلى حدٍ كبير. قد تقولُ صحيفة واشنطن بوست إن «الديمقراطية تموت في الظلام»، لكن الأمر يتطلبُ الكثيرَ من المالِ للحفاظِ على تلك الأنوار النبيلة.

وهذا ما يفسرُ كذلك الأساس المنطقي لإنتاجِ القصص الكبيرة فقط وأكثرها تفرّدًا وجاذبية. بالرغمِ مِن أنّ الكثير من الصحفيين يرغبون في أن يتمكّنوا من اغتنامِ الفرصة «لكتابةِ الفصل الأول من التاريخ» بدقة، فإن فرصَ تحقيقِ ذلك تبقى ضئيلة طالما أنّ المكاتب تضغط للحصولِ على أفضلِ صورة أو أفضلِ قصة أو أفضلِ اقتباسٍ لجذبِ جمهورٍ تتجّه أعينه نحو قنواتِ الكابل والمواقع الإلكترونية وتويتر وفيسبوك. مع الأسف، فإنّ القصص الحقيقية ـ سواء كانت نزاعات عرقية أو مشاكل أخرى داخل المخيم ـ قد لا تكون قابلة للتسويق بحيث تنتهي في منشورات مُتخصّصة لا تصل إلى الجماهير. وهذا بدوره لا يؤجّج سوى القوالب النمطية والمعلومات الخاطئة والميلِ إلى تعميمِ التجاربِ الفريدة والمأساوية التي يعيشُها الآلاف من اللاجئين والنازحين. والأسوأ من ذلك أنه يزيد من تجريدِ شريحةٍ من البشر المحرومين بالفعلِ من حقوقهم وتهميشهم.

إنّ القصصَ التي نحتاجُ إلى سردِها كصحفيين هي تلك التي تتحدّى المفاهيم المُسبقة و «الحقائق» المريحة عن «الأمم المتخلّفة» التي تطلبُ المساعدة والدعم. باختصار، إنها القصص التي ليست جذابة. وهي تشملُ على أخذِ الوقتِ الكافي للاستماعِ إلى أشخاصٍ قد نعتبرُهم «غيرَ مُهمين» أو «غيرَ مُلهِمين» للوهلةِ الأولى لأنهم لا يُعِدّون قصة دراماتيكية بما فيه الكفاية. الحل هو توجيه الكاميرا والعمل على دمجِ التصرفاتِ الطبيعية والحوارِ الأصيل لتوثيقِ الحياة الحقيقية في عرضٍ صادق.

إنّ الانتباه لهذه المشاكل يمكن أن يؤدي إلى حلولٍ أفضل. طالما أنّ بيئتنا المهنية تتشكلُ من خلالِ انتشارِ المعلومات وإضفاء الطابع الديمقراطي عليها، فسوف نضطرُ إلى التركيزِ بشكلٍ حصريّ على أعمالِ العنفِ والأحداثِ المروّعة، والقصصِ التي تُعيدُ تأكيدَ الصورِ النمطية بدلاً من كسرِها، أو السردِ الذي يخدمُ أجندة سياسية، والاهتمام بقصصٍ ذات بُعدٍ إنساني عميق أو مونتاج صور من أجلِ الانتشارِ السريع عبر الإنترنت سيتمُ تفويتُ القصصِ الحقيقية، وسوف تستمرُ معاناة الصحافة.

اللاجئ إليّ مُعلّمي

بقلم فرانسيس كولينغز

علياء وزوجها محمد

جلسنا خارج منزل علياء الصغير، نلقي نظرة على الصورِ على جهازِ الحاسوب المحمول، ونشيرُ إلى الوجوهِ، ونتبادلُ الأحاديثَ عن الأصدقاءِ؛ وهو ما فعلناه عدة مراتٍ من قبل. عادة، كان من الممكنِ أن يكونَ ذلك في فناءٍ أو شرفة في دمشق، مع صوتِ المؤذّنِ من على مسافة، ولكن هذه الأيام نحن الآن في بلدةٍ هادئة في جنوبِ ألمانيا. كانت علياء قد عاشت حياة مليئة بالأحداثِ منذ أن التقينا آخر مرة.

كنا نظهرُ في الصورِ دائمًا مُبتسمين ـ في حفلة أو حفل زفاف أو في منزلِ شخصٍ ما أثناء مُشاهدة إحدى مباريات كأسِ العالم بينما يتمُّ تحضير الكباب. هناك صورٌ لنا جالسين على مكاتب مغطاة بالكتبِ المدرسية العربية، وحتى صورة ونحن في حافلة متهالكة مع أصدقاء يتّجهون عبر الصحراء إلى تدمر. لقد ضحكنا كثيرًا على صور تلك الرحلة وخاصة على صورةِ صديقٍ مشترك، والذي، ليس للمرة الأولى، قد صعدَ إلى سطحِ الحافلة السريعة الحركة. لم نعده إلى الحافلة إلا عندما رصدنا نقطة تفتيش تابعة للشرطة السورية. كانت تلك أياماً بريئة.

«أتذكرُ ذلك؟ سبع سنواتٍ مرّت ... (راية) في السويد هذه الأيام، يعيشُ (عابد) في لندن، وبقي (جورج) هناك». كان هناك جوٌّ من الحزنِ، أيضًا. كنتُ مجرّد زائرٍ عاشَ في سوريا لمدة عامٍ ونصف، وكانت تلك الأماكن تحملُ ذكريات رائعة لي. بالنسبة لعلياء وزوجها محمد، كانت تلك ديارهم. وهم يعيشون الآن في ملجأ بعد رحلة صعبة كادت أن تودي بحياتهم، ينظرون إلى صورِ وطنٍ قد لا يرونه أبدًا مرة أخرى.

--

ذهبتُ إلى دمشق في عام 2009 لتعلّمِ اللغة العربية، وأخذتُ إجازة من عملي في بي بي سي في لندن. بعد أن تعلّمتُ التحدّثَ باللغة الإسبانية جيدًا نسبيًا في السنواتِ الأخيرة، كنتُ أعلمُ أنّ اللغة العربية كانت أكثرَ صرامة وستستغرقُ وقتًا أطول، لذا فقد منحتُ نفسي عامًا على الأقل. مثل العديد من الجهود التي بذلتها من قبل، لم يكن لدي أي فكرة عن مدى صعوبةِ الأمرِ والتجربة المجزية التي سوف تترتبُ عليه.

تواصلتُ مُسبقًا مع جامعة دمشق، حيث كانت هناك دورات اللغة العربية للمبتدئين كما قالوا لي، للأشخاص الذين ليس لديهم أيّ علمٍ باللغة. ومع ذلك، عثرتُ على مكانٍ في دمشق لأقطنَ فيه مع عائلة في الشوارعِ الخلفيّة للمدينةِ القديمة. لكنني أدركتُ سريعاً أنّ الدورة الجامعية لن تفيدني. فقد كنتُ في الفصلِ مع أشخاصٍ درسوا اللغة من قبل ولذلك لاحظتُ أنّ الدورة ليست للمبتدئين مثلي الذين ليس لديهم أي أساسات في اللغةِ العربية، فبدأتُ أبحثُ عن حلٍ آخر.

كان لي صديقة تعيشُ في منزلٍ آخر وعرّفتني على مُدرّسة خاصة. على فنجانِ قهوة، بعد حوالي ثلاثين دقيقة، أوضحت لي علياء الكثير عن أساسياتِ اللغة أكثر ممّا اكتسبتُه في أسبوعين في الفصل. تعرفتُ على بنيةِ الجذر، وكيف تغيّرُ الحروف المحيّرة شكلها اعتمادًا على مكانِ وجودها في الكلمة. فوق كل هذا، فقد بعثت لدي علياء أيضًا حبّ اللغة.

لقد أظهرت لي جمالَ الكتابة وجعلتني أخربشُ الحروفَ والكلمات. كصحفي يكتبُ باليمين والذي أصبح خطه مخربشًا نتيجة الحاجة للكتابة بسرعة، وجدتُ نفسي أصنعُ أشكالًا جميلة وأكتبُ في الاتجاهِ المعاكس، من الجانبِ الأيمن من الصفحة مُتجهًا إلى اليسار. شعرتُ بسهولة وسلاسة. لكن ما هو أكثر من ذلك هو أنّني أعجبتُ بأسلوبِ علياء.

لقد وجدتُ مُعلمي، لكن ما لم أدركه في ذلك الوقت هو أنني اكتسبتُ صديقًا حقيقيًا.

في كلّ صباحٍ كنتُ أستيقظُ مبكرًا وأراجعُ الدروسَ التي استغرقت ساعتين في اليوم السابق. كانت علياء تصلُ وتحضّرُ الشاي وتدخّنُ سجائرها المتواصلة في زاوية بعيدة من الشرفة ثم نجلسُ ونتحدثُ حولَ المفرداتِ والقواعد.

كان تقول «اليوم سندرسُ عن السياسة»، ثم نخفضُ أصواتنا عندما نناقشُ مصطلحاتٍ مثل الحكومة والديمقراطية والديكتاتورية ونهمسُ بعبارة «إسرائيل»، أو كما أطلقنا عليها، «ديزني لاند».

لقد كنا نتبادلُ التدريسَ حيث كنتُ أعطيها ساعة أو أكثر من دراسةِ اللغة الإنجليزية، على الرّغمِ من أنها تحدّثت بالفعلِ بشكلٍ جيد ومُدهش، بعد أن كانت تدرّس نفسها بشكلٍ أساسي. أكثرَ من الأفعالِ والمفردات، عرّفتني علياء على حياةٍ ربما لم أرَها أبدًا، إلى الطرقِ والأعرافِ الخاصة بالناسِ الطيبين والكرماء. كيف تفهمُ خدمة الحافلاتِ الصغيرة المُحيّرة التي كانت تسلكُ طرقاً غيرَ مُنتظمة في جميعِ أنحاءِ دمشق. ما هو أفضلُ طعام للطلبِ وأين؟ حتى كيف تساومُ في سوق الحميدية. «ابتعد، ابتعد» كانت تهمس. «سوف يتبعنا البائع».

لقد كانت رحلة ميدانية واحدة كبيرة، غالبًا ما كانت تخرجُ اللغة العربية من الفصلِ إلى الشوارعِ القديمة في دمشق. كنا نحضُر حفلاتِ الزفاف في اليرموك (والذي أصبحَ فيما بعد معقلًا لداعش)، وحفلاتٍ في المزة، كنا ندرسُ في كلّ مكان. كانت اللغة صعبة للغاية، ومع ذلك كانت الحياة هناك ممتعة جدًا، لدرجة أنني مدّدتُ إقامتي. ولكن في عامي الثاني، بدأت الحياة تتغيّرُ من حولنا. كانت بداياتُ الحربِ تظهرُ تدريجيًا، بدءًا من رجالِ الشرطة الذين تعاملوا بوحشيّة مع المراهقين الذين رشوا جدارًا بالرسوماتِ المعادية للحكومة في درعا في جنوبِ البلاد.

ثم بدأت الشرطة في إطلاقِ النارِ على المتظاهرين. مثل كلّ الحكومات التي تطلقُ النارَ على أشخاصٍ غير مسلحين، زعموا أنهم تعرّضوا للهجومِ من قِبل «الإرهابيين»، لكن القسوة التي رأيناها كانت تبعثُ على القلقِ الشديد. الأحداث في درعا كانت فظيعة، وتم سحقها كالعادة. لم نتخيّل أبدًا لأيّ درجة من الشرّ كانت ستصلُ الأمور.

تدريجيًا أصبح الحي الذي كنتُ أعيش فيه أقل ودية. احتلّ رجالٌ هادئون إلى حدٍ ما ويرتدون ستراتٍ جلدية زوايا الشوارعِ وكانوا يحدّقون بجميعِ المارة. «من هم؟» سألتُ أصحابَ المتاجرِ الذين أعرفهم جيدًا وغالبًا ما كنتُ أتجاذبُ أطرافَ الحديثِ معهم. «الشرطة» قيل لي بهدوءٍ شديد.

المظاهرات التي رأيتُها في دمشق كانت مؤيدة للنظام. فقد علقتُ أكثر من مرة بين حشدٍ كبير من الناس وهم يهتفون: «الله، سورية، بشار وبس» ـ أي الله وسوريا وبشار الأسد هو كلّ ما نحتاجُ إليه. ذكّرني ذلك بالوقوفِ على شرفاتِ كرة القدم في شمال إنجلترا في الثمانينيات، إلا أنّني كنتُ أعرفُ أنّ هذه الأوقات كانت خطيرة.

--

غادرتُ سوريا على مضض. بعد العودةِ إلى لندن لوظيفتي في بي بي سي، تحدّثنا أنا وعلياء كثيرًا عن طريقِ سكايب أو عبر الهاتفِ مع تفاقمِ الأمور. الأحياء التي كنتُ أعرفها جيداً، مثل اليرموك، دُمّرت. تعرّضت مساكنَ برزة، حيثُ عشتُ لفترة من الزمن، لهجماتِ الدبابات. يومًا بعد يوم، كانت البلدات والمدن المألوفة تستسلمُ لرعبِ الوحشية ضد المتظاهرين المناهضين للنظام، مع حديثِ أبواقِ النظام باستمرار عن «الإرهابيين». وكان الأسد قد أفرجَ عمّا يُسمى بالمتطرفين السياسيين الذين سجنهم سابقاً، مما سمحَ للنظامِ بتبريرِ ادعاءاته بوجودِ إرهابيين.

كانت علياء في البداية متردّدة في المغادرة. فسوريا موطنها، وبالرغمِ مِن أنّها في الأصل من الشمال، لكنّ دمشق كانت مدينتها. «سأبقى هنا»، كما قالت، وقالت أكثرَ من مرّة بهدوء، «بمجرّد أن ينتهي الأمر، سيكون كلّ شيء رائعًا، سيكون هناك حفلة». ظللتُ أخبرُها بأنها يجب أن تغادر، وأنه لن يكون هناك حفلة، وأنه إذا سقطَ نظام الأسد، كما توقعنا في ذلك الحين، سيكونُ هناك إراقة دماء.

كان تحدثني عن زيادة نفوذِ الشبيحة والذين هم ميليشيات مدعومة من قِبل النظام وتسيطرُ على بعضِ الشوارعِ في عدة أحياء. كان كلّ شيء يشتدّ ظلامًا. أكثر ما صعقني عندما كنتُ أتحدّثُ مع علياء في عامِ 2013 هو ما قالته عن القططِ التي أصبحت صامتة، فهي بالكادِ تسمعُ أصواتها. قططُ الشوارعِ الشهيرة في دمشق والتي كانت تبقيكَ مستيقظا بموائها، أصبحت مهزومة وصامتة.

في النهاية، علياء، مثلَ كثيرين آخرين، ستغادر. أولاً ذهبت إلى بيروت للعملِ كصحفية، ثم إلى إسطنبول كلاجئة. أصبحت واحدة من العديدين ـ واحدة من بين 5.6 ملايين سوري منفي في الخارج، وأكثرَ من 3.5 ملايين في تركيا وحدها. وهذا دونَ عدّ الـ 6.6 ملايين نازح داخل سوريا، بحسبِ أرقامِ المفوضيّة السامية للأممِ المتحدة لشؤونِ اللاجئين. هذه هي مأساة عصرنا، تلك التي جعلت أناساً مثل علياء ومحمد يخاطرون بحياتِهم للهروب.

تحدثت علياء أكثرَ من مرّة عن التوجّهِ إلى أوروبا، مُدركة أنّ الحياة كلاجئ في تركيا، وإن كانت آمنة، لم تكن قانونية بالنسبة للذين لم تكن لديهم تراخيص، وبالتالي لن يكون لديهم مستقبل مضمون. ذكرت ذات يوم أنها قد تكون وجدت طريقة ممكنة، لكنها اختصرت العديد من التفاصيل. أخبرتني أنه إذا حدث ذلك، كان لديهم «قارب رسمي»، وكان «لا شيء يدعو للقلق». لم أكن الوحيد الذي لم تخبره عندما ركبَت في القارب؛ لم يكن لدى عائلتها أيّ فكرة أيضًا.

--

بعد ذلك بعامين، جلسنا خارجَ منزلِها في ألمانيا وهي تأخذني في التفاصيل. شاهدنا اللقطات التي صوّرتها عن محمد وصديقِه طارق، وهو يسيرُ بسعادة في شوارعِ أزمير في جنوبِ تركيا، يضحكُ ويصرخ. كانوا يتّجهون نحو ما سيكونُ قاربًا مُكتظًا يأخذهم عبرَ بحرِ إيجه إلى أوروبا. كلما شاهدنا، أصبحَ الفيديو مروّعًا أكثر.

كانت هذه صورًا مألوفة بالنسبة لي، للعالم، من رجالٍ ونساء وأطفال يائسين يتشبّثون بزورقٍ مطاطيّ فوقَ الماء. لكن في هذه الحالة كانوا هؤلاء أصدقائي، يعيشون مقامرة يائسة. «لا تفكرُ في المخاطرِ التي تأخذها»، أخبرتني علياء ونحن نشربُ الشاي. «ولكن في اللحظة التي قال فيها المُهرّبون، «إلى القوارب»، هنا بدأت الدراما». على بُعدِ مائة وخمسين متراً في عرضِ البحر، كان المُهرّبُ يقودُ السفينة الممتلئة في البحرِ ثم تركهم وحيدين في البحرِ في الظلام. بعد ذلكَ بوقتٍ قصير، فشلَ المُحرّك وبدا الأمرُ سيئًا للغاية. يُظهِرُ الفيديو أضواء وميضة، ويمكنكَ سماعُ صوتِ علياء وهي تصرخُ بذعرٍ باللغة الإنجليزية. «مرحبا!» تصرخُ بينما يقتربُ قاربٌ آخر. «نحن بحاجة إلى بعضِ المساعدة هنا!»

عندما جلستُ وأجريتُ مقابلة معها من أجلِ تقريرٍ حول الرحلة، كنتُ أعملُ عليه لتي آر تي العالمية، تحدّثت بحماسٍ عن التجربة التي اعتقدت أنها قد لا تنجو منها. «كنتُ أفكرُ بكم جميعًا، بأصدقائي وعائلتي. كنتُ أقولُ إذا كنتُ قد ارتكبتُ خطأ في حقِ شخصٍ ما آملُ أن يغفرَ لي». قالت: «كنتُ أنظفُ قلبي».

بالصدفة تم رصدُهم وإنقاذُهم من قِبلِ خفرِ السواحلِ اليونانية. الصورُ تُظهرُ وجوهاً مبتهجة، بدافعِ الارتياحِ أكثرَ من أيّ شيء آخر. خلال الأسبوعين القادمين، لم أسمعُ أيّ شيءٍ عنها، ولم تتحدّث إلى أحدٍ من معارفنا. لقد سمعنا أنّهم وصلوا إلى أوروبا، لكن ليسَ أكثر. شعرتُ بالانزعاجِ لأنها لم تكن صادقة بشأنِ المخاطرِ التي كانت تنتظرها، لكنني أدركتُ أنها كانت تحاولُ فقط، كما كانت دائمًا، ألا تُقلقَ أيّ شخص. كنا نتمنى أن يكونَ كلّ شيءٍ على ما يُرام، ولكن لم نعد نتفاجأ مِن أيّ شيءٍ يحدثُ في سوريا؛ سواء الأماكن التي أحببناها أو الأصدقاء. إنّ سوريا المليئة بالابتساماتِ والضحكِ التي عرفناها قبلَ الحربِ أصبحت الآن سرابًا، ولم تعد موجودة.

هبطَ كل مِن علياء ومحمد وطارق في أثينا ثم تمكنوا من شقّ طريقهم ببطءٍ عبرَ جنوب أوروبا. لقد دفعوا للمهرّبين لأخذِهم في رحلة مُضنية طوالَ الليلِ عبرَ الجبالِ من ألبانيا إلى كوسوفو بينما كانوا يراقبون الدببة؛ استغرقت الرّحلة أكثرَ من عشر ساعات. كانوا يُفرغون محتوياتِ حقائبِ الظهرِ التي أحضروها ببطءٍ ويستغنون عن الأشياءِ التي اعتبروها غيرَ ضرورية. شقوا طريقهم بحذر عبرَ الحدودِ سيرًا على الأقدام، بالسيارة، والقطار، وتجنّبوا الشرطة أثناء ذهابهم، أو أيّ شخصٍ قد يعيدهم. كانت ألمانيا هي الهدف، وكانوا في ميونيخ عندما ظهروا مجدداً لإخبارنا أنهم بخير لكنهم مرهقون.

--

بعد فترةٍ وجيزة، ذهبتُ لرؤيتهم. كانوا في بلدة هادئة، محشورين في غرفة في مجموعة من الشققِ المخصّصة للاجئين. اللغة المستخدمة كانت اللغة العربية، وكان الجميعُ يترُك حذاءه عند البابِ، ورائحة الطعام العراقي والسوري تتخلّلُ الهواء. كانت هذه محطتهم الأولى في نظامِ اللاجئين الذي أنشأته الحكومة الألمانية لمساعدةِ الوافدين الجدُد.

بينـما كنّـا نسـيرُ حـول المدينـة في يـومٍ مـن الأيـامِ الدافئـة، صدمنـي هـدوء المـكان. لم أرَ عليـاء منـذ أكـثرَ مـن ثـلاثِ سـنوات. كانـت، في الظاهـرِ، هـي نفـس الشـخص الـذي كان يركـضُ باتجـاهِ محطـة القطـارِ عنـدت وصلـتُ، وهتفـت «مرحبـا» بصـوتٍ عـالٍ عـبرَ الشـارعِ. لكـن دمشـق التـي أحببناهـا كانـا بمثابـةِ عاصفـة مـن النشـاطِ والضوضـاء والفـوضى. كانـت لعليـاء الخصائـصَ ذاتِهـا في بعـضِ الأحيـان. وكانـت هـذه المدينـة عـلى نهـرٍ جميـل، غـيرَ بعيـدٍ عـن شـتوتغارت، ولكنهـا مُغايـرة تمامًـا لدمشـق. هادئـة، مُحافِظـة، وبالطبـعِ ألمانيـة للغايـة. تسـاءلتُ كيـف يمكـنُ أن يتأقلمـوا معهـا.

ثـم عـدتُ بعـدَ بضعـةِ أشـهرٍ عندمـا اجتمـعَ أصدقاؤنـا مـن مناطـقٍ مختلفـة لحضـورِ حفـلِ زفـافٍ سـوريّ نموذجـي و صاخـب. لقـد تزوّجـت عليـاء بمحمـد، ورقصنـا عـلى أنغـامِ الموسـيقى العربيـة الصّاخبـة طـوالَ الليـلِ، ومـرّة أخـرى، علّـمَ السـوريون الأجانـبَ، وأنـا منهـم، كيفيّـة رقـصِ الدبكـة التقليديـة، كـما فعلنـا مـراتٍ عديـدة في دمشـق وحمـص وتدمـر.

باسـتثناء هـذه المـرّة كان الأجانـبُ ـ أو كـما يُسـمّيهم الألمـان، المهاجـرون ـ يشـقّون طريقَهـم في أرضٍ غريبـة، كـما فعلنـا نحـن مـن قبـل وبفضـلِ بمسـاعدتهم.

إنّ مـا فعلتـه ألمانيـا مـن أجـلِ اللاجئـين يُسـعدني، حيـثُ أنّنـي أراه أنـه التـزامٌ إنسـانيّ أسـاسيّ ألا وهـو مسـاعدة الآخريـن كـما كانـوا هـم سيُسـاعدوك لـو كانـوا في مكانـك. ولم أقابـلُ قـط أشـخاصًا أكـثرَ سـخاءً وانفتاحًـا مـن السـوريين. بالنسـبةِ للكثيريـن، بمـن فيهـم أصدقـائي، أصبحـت ألمانيـا مـلاذًا مثلـما كانـت أمريـكا ذات يـومٍ مـلاذًا للأجيـالِ السـابقة مـن النـاس اليائسـين. المقربـون مِنـي الذيـن لديهـم تاريـخٍ عائـلي ويخافـون مـما كانـت عليـه ألمانيـا في المـاضي، كالنازيـة ومعسـكراتِ الاعتقـال والمحرقـة، يـرَون الآن أنجيـلا مـيركل وألمانيـا الحاليـة كمنـارةٍ سـاطعة.

أنشـأت ألمانيـا نظامًـا مُربحًـا. بطبيعتهـم، فـإنّ مواطنـي بـلاد الشـام يعملـون بجـدٍ وابتـكار. إنّ قـرارَ مـيركل بمنـحِ اللجـوءِ لأكـثرَ مـن مليـونِ شـخص قـد يثبـتُ مسـتقبلاً أنّ لديهـا بعـد نظـر. كمواطـنٍ إنجليـزي، رغـمَ أنّنـي شـخصٌ عـاشَ سـنواتٍ عديـدة خـارجَ بريطانيـا، إلا أننـي أشـعرُ بالخجـلِ مـن الطريقـة التـي تُعامـلُ بهـا بلـدي اللاجئـين. بالرغـمِ مِـن كونهـا خامـسَ أكـبرَ اقتصـادٍ في العـالم، إلا أنّ بريطانيـا قبلـت عـددًا تافهًـا جـدًا مـن اللاجئـين السـوريين يـكادُ لا يتجـاوزُ عـشر آلافِ لاجـئ. وبالمقارنـة، قبلـت تركيـا أكـثرَ مـن ثلاثـة ملايـين شـخص.

التفسيرُ الوحيدُ الذي يمكنني تقديمه للأصدقاءِ الأجانب الذين يسألون عن السبب، هو تذكيرَهم بأنّ بريطانيا جزيرة، وتتّبعُ عقلية الجزيرة حيثُ كثيرًا ما تعرّضت للغزوِ في تاريخها ، كما أنها بذاتها قامت بالكثيرِ من الغزو. على عكسِ أوروبا القارة، نادرًا ما كانت حدودُ بريطانيا سهلة الاختراق. قد أكونُ مُخطئًا، ولكن على الرغمِ من الهجرةِ وتعدّدِ الثقافات في بريطانيا، إلا أنه يبدو أنّ هناك شكلاً من أشكالِ الكُرهِ للأجانبِ في إنجلترا، وهو ما يُسهّل استغلاله من قِبل وسائلِ الإعلامِ اليمينيّة والسياسيين الذين يستثمرون مشاعرَ الخوفِ لتحقيقِ مكاسبٍ سياسية.

في كتابتي هنا لا أقصدُ أنّ كلّ ظروفِ اللاجئين قد تحسّنت بمجرّدِ عثورِهم على منزلٍ في ألمانيا وأماكنَ أخرى. بينما علياء ومحمد وطارق يتمتّعون بالذكاءِ والتفتّح بما يكفي لاستيعابِ اللغاتِ وتعلّمها، هناك آخرون سيُصارِعون دائمًا. أولئك الذين لن يتم قبولهم، والذين سوف ينظرون دائمًا إلى الحياةِ قبلَ الحربِ في سوريا، والذين سوف يُطلَقُ عليهم اسم «الأجانب». وهذا ما يجعلني أشعرُ بالقلقِ الشديدِ عند السماعِ عن الهجماتِ ضد اللاجئين.

--

السيدة وولف هي أخصّائية اجتماعية تعتني بعلياء ومحمد منذ وصولهما. ازدهرا خلال عامين وأصبحا يتحدّثانِ الألمانية على المستوى الجامعي، لكن لم ينجح الجميعُ بذلك. وبينما تحدّثنا في مكتبها، أوضحت السيدة وولف الصعوبات. «إنّ توقعاتِ اللاجئين الذين يصلون إلى ألمانيا مرتفعة للغاية وغيرَ واقعية. إنهم يتوقعون الحصولَ على شقةٍ خاصة في غضونِ بضعة أسابيع والعثورِ على وظيفة بسرعة يمكنهم أن يؤدوها بما يتناسبُ مع المعارفِ التي اكتسبوها في بلادهم. هذه هي الرؤية المثالية لديهم، لكن هذا بالطبعِ صعب للغاية».

هؤلاء في النهاية أشخاصٌ اضطرّوا إلى تركِ كلّ شيءٍ وراءهم، وظائفهم، وعائلاتهم، ومنازلهم، وثقافتهم، وكلّ ما عرفوه. إنّ المجيء إلى بلدٍ أجنبي وتعلّمِ اللغة والتأقلمِ والازدهارِ هي تحدّيات هائلة. كلّ شخصٍ منا يأملُ ألا يحدثَ له ذلك بسببِ الحرب. كان والداي خلال الحربِ العالمية الثانية أطفالاً، كما كان جدي مُحارِبًا خلال الحربِ العالمية الأولى. لدي صورة له مع ثلاثةٍ من أصدقاءِ المدرسة الذين ذهبوا معًا وسجّلوا أنفسهم للقتال. كان

جـدّي الوحيـد مـن المجموعـة الـذي نجـا وعـادَ إلى المنـزلِ. أنـا جـزءٌ مـن الجيـلِ المبـاركِ مـن الأوروبيـين الذيـن لم يضطـرّوا للذهـابِ إلى الحـربِ أو أن يُصبِحـوا لاجئـين في أرضٍ أجنبيـة، وهـو أمـرٌ اعتـدتُ عليـه لدرجـة أننـي لا أحـسُّ بنعمتـه.

ومـع ذلـك فقـد علّمتنـي صداقتـي مـع السـوريين، الذيـن تبعـثروا الآن، أنّـه لا يوجـدُ فـرق بينـي وبـين علياء، باسـتثناءِ جـواز سـفري. لقـد منحنـي مـكانُ ميـلادي فرصًـا، وفي نهايـةِ المطـاف، الحمايـة. لكـنّ علياء مـن بلـدٍ تحـوّل إلى مُجـرّدِ أنقـاض، وما زالـت تقـوده ديكتاتورية وحشـيّة تقتـلُ شـعبَها اليـومَ دونِ حسـاب، تمامًـا كـما فعلـت في درعـا في أوائـلِ عـامِ 2011.

علياء ومحمـد في مـكانٍ جيـد. يبـدو أنهـما سـعداء، وعندمـا زرتهـما آخـرَ مـرّة قمنـا بشـوي الكبـاب وأكلـه تمامًـا كـما كنـا نفعـلُ في السـابق. إنهـما يفتقـدانِ إلى وطنهـما وعائلاتهـما، ومؤخـرًا رُزقـا بطفلهـما الأول. ألمانيـا، البلـدُ الـذي يعـرفُ ألَمَ الحـربِ والدمـار، قـد سـمحت لهـما بالبـدء مـن جديـد وأعطتهـما مسـتقبلاً. إنـه أيضًـا مـكانٌ يمنـحُ ابنتهـما فرصـة أفضـلَ بكثـيرٍ في الحيـاة، وأمـن أكـبرَ بكثـيرٍ مـما كان يمكـن أن يتمتعـوا بـه في سـوريا اليـوم.

قافلة المهجّرين

قصة الفارّين من عنف العصابات في أمريكا الوسطى

بقلم إدز تيانسان

١- رحلة شاقة

«هـل سـأجعلُ أسرتي تمـرُّ بهـذا الأمـر إذا لم تكـن مسـألة حيـاة أو مـوت؟»، تسـاءلَ سـالومون، بينـما كان يهـزّ رأسـه ردًا عـلى سـؤاله البلاغـي. كـما قـال، وهـو مسـيحي مُتديّـن يتكلـمُّ بصراحـة ولديـه طفـلان، إن أولويتـه هـي «حيـاة كريمـة» لعائلتـه ، وإنـه مُقتنـعٌ بـأنّ هنـدوراس لم تعـد قـادرة عـلى تقديـم ذلـك.

التقيـتُ بـه في نوفمـبر 2018 في مكسـيكو سـيتي، في منتصـفِ الطريـقِ تقريبًـا إلى رحلتهـم التـي لا تنتهـي أبـدًا إلى الحـدودِ بـين الولايـات المتحـدة والمكسـيك. خـلال الأسـابيع الثلاثـة الماضيـة، قامـوا بتهريـبِ أنفسـهم عـبرَ عـدّةِ حـدود، وسـاروا جِياعًـا لمئـاتِ الكيلومـترات تحـتَ حـرارةٍ شـديدة، وأمضـوا الليـالي الشـديدة الـبرودة في الشـوارعِ ومرِضـوا عـدّة مـرّاتٍ أثنـاء عبورِهـم في إطـارِ قافلـة تتحـرّكُ عـبرَ أمريـكا الوسـطى مـع الآلافِ مـن المهاجريـن الآخريـن، يهـدفُ معظمهـم إلى طلـبِ اللجـوء في الولايـات المتحـدة.

دينا تعطي أحد أبنائها دواء للسعال في الخيمة التي أقاموا فيها لعدة ليالٍ في مكسيكو سيتي.

ينتقلون في قوافل المئات لتسهيلِ الرحلة، والتي قد تكون خطيرة للغاية. اكتسبت دول أمريكا الوسطى والمكسيك شهرة لكونها غير مستقرّة حتى في ما يخصّ سلامة مواطنيها.

لقد ماتَ الكثيرُ من المسافرين في الماضي على نفس الطريق؛ تم السرقة من بعضهم، واختُطف بعضهم من قِبل عصابات... كما أنّ المخاطرَ عديدة بالنسبة لأيّ عائلة تفكّرُ في القيامِ بهذه الرحلة بمفرَدِها.

«أشخاص بلا حدود» هي منظمة غير حكومية تنظّمُ قوافل مماثلة منذ عدة سنوات. إنهم يختارون بعناية طريق السفر لتجنّبِ المناطق التي تسيطرُ عليها عصابات المخدرات قدرَ الإمكانِ ويتأكدون من إبقاءِ المهاجرين على الطريقِ خلالَ ساعاتِ النّهار فقط.

في أحدِ الأيام، بينما كنا نتحركُ مع القافلة في ولاية فيراكروز المكسيكية، تركَ الحادث الذي وقع في مكان قريب أثرًا مُخيفًا علينا جميعًا. دخلت مجموعة مُسلّحة من عصاباتِ المخدراتِ المحلية مطعمًا حيث كان المسؤولُ المحلي المُنتَخب يتناولُ وجبة مع زملائه. طلبت منه العصابات الذهاب معهم، وعندما رفض قُتل بالرصاص حالاً.

عمليات الاختطاف شائعة بقدرِ انتشارِ قتل السياسيين والمسؤولين. والهدف ليس دائمًا رفيع المستوى. حيث تُحقق عصابات المخدرات أرباحًا من تجارة المخدرات والأسلحة وأخذ الإتاوات، ولكن في بعض الأحيان، قد يُعتبر حتى المهاجرون الفقراء مُربحين؛ حيث قد يضطر أقاربهم إلى الدفع لأعضاء العصابات في بلدٍ آخر.

مع اعتبارِ أنّ بعضَ المناطقِ محفوفة بالمخاطر، قرّرت الشرطة المكسيكية أن تُكثّف وجودها على طولِ طريق المهاجرين، وفي بعض الأحيان، حتى مرافقتهم بسياراتهم. في إحدى هذه الحالات خارج مدينة قرطبة، سألتُ أحد ضباط الشرطة عمّا إذا كان هناك أيّ تهديدٍ محدّد، حذّر بصراحة من أنهم كانوا يتخذون الاحتياطات لأنّ «أي شيء يُمكن أن يحدث، في أيّ وقتٍ من اليوم.»

في ظلّ هذه الظروف، اندفع الآلاف من المهاجرين إلى الشمال قلقين بشكلٍ دائم على سلامتهم. إضافة إلى ذلك، كان لديهم قلق للحصولِ على ما يكفي من الطعام والماء لتجاوزِ الظروفِ القاسية. كلّ يومٍ كان بالنسبة لهم كفاحاً آخر، عقليًا وجسديًا.

غالبًا ما يأخذ المهاجرون في القافلة قوتهم من بعضهم البعض ويستطيعون النجاة من معاناتهم من خلالِ التضامنِ مع بعضهم. في الليالي الباردة، يتجمّعون في مجموعات ويتقاسمون أثناء النهار المخزون الصغير من الطعام الذي لديهم كي يستمرّوا في المسيرة الطويلة. إنهم يتناوبون وهم يحملون الأطفال والأشياء المُختارة بعناية التي قرّروا عدم تركها وراءهم. مع العلمِ أنّ الذكريات التي يحتفظون بها من حياتهم السابقة يمكن أن تجعل حياتهم المستقبلية أكثرَ صعوبة، لذلك أخذوا معهم أقل قدر ممكن.

كما أنّ كثرة عددهم قد تعني أيضًا بعض المشاكل في بعض الأحيان، حيث يمكن أن تنتشر إنفلونزا شخص واحد كالنار في الهشيم بين المجموعة. فمن المؤكّدِ تقريباً أن كلّ شخصٍ قد مرض في مرحلة ما.

لقد كان الجوعُ والمرضُ المُزمنان هما السببين اللذين جعلا الرحلة مُثيرة للقلق بشكلٍ خاص في ما إذا كانوا سيتمكنون من الوصول إلى الولايات المتحدة. التعبُ إلى جانبِ الظروف القاسية جعل من الصعبِ التعافي من أيّ مرض. لكنّ معظم المهاجرين كانوا مقتنعين أنه لا يوجد بديل آخر، وهذا الإيمان الجماعي ساعدهم على المُضي قدمًا.

في العديد من محطاتِ التوقف في المكسيك، قدّمت السلطات المحلية أو السكان الغذاء والماء والدواء. لكن في أوقاتٍ أخرى لم يحالفهم الحظ. بالنسبةِ للكثيرين، النوم بمعدة فراشٍ لم يكن شيئًا جديدًا. تمّ الاعتيادُ على عدمِ الاستحمام أو عدمِ وجودِ فرشة للنوم عليه. في النهاية، لم يكن من الصعبِ التغلّبُ على الظروفِ الصعبة لحشدٍ من مهاجرين صامدين وصابرين، يحلمون بحياةٍ أفضل.

كانت أطول محطة للمهاجرين في العاصمة المكسيكية. لأكثرَ من أسبوع، تم تحويلُ أكبر مُجمّعٍ رياضي في مكسيكو سيتي إلى ما يشبه مخيم اللاجئين. كانت الخيام التي تستضيف أكثر من مئة لاجئ مُنتشرة على مساحة شاسعة من ملاعب البيسبول أو كرة القدم أو ألعاب القوى. ينعكسُ الحجم الكبير لهذه المرافق وقدرتها على سمعة المكسيك كأكبرِ مدينة في أمريكا الشمالية.

بعد قضاء أيامٍ على الطريق، ساعد الاستقرار في ملجأ مؤقت على تعزيزِ آمالِ المهاجرين ومعنوياتهم. بالنسبة إلى معظمهم، كانت هذه هي المرة الأولى منذ أسابيع التي يحظون

فيها ببعض الراحة و الاستحمام وغسل الملابس والحصولِ على وجبات ساخنة تُقدَّمُ طوالَ اليوم.

كان لديهم حتى مسرح للترفيه. على مدارِ اليوم، تُسمَع الأغاني المشهورة لجميع اللاتينيين من على مُكبّراتِ الصوتِ الضخمة، بغض النظر عن المكان الذي ينتمون إليه في أمريكا الوسطى.

بعد ظُهر أحد الأيام، تمّ تحويلُ المسرح إلى حلبة ملاكمة تضمّ «أبطالاً خارقين» يرتدون الأزياء وهم يرمون اللكمات والركلات المُزيّفة، وكان هناك مُعلّقٌ يُعلّق عبر المُكبّرات ويُضيف تأثيرًا دراماتيكيًا. مشهدٌ غريب من النظرة الأولى، لكن بدا أنه جذب لانتباه الحشد الذي أخبرني أنّ هذه هي المرة الأولى التي يضحكون بها خلالَ الأسابيع القليلة الماضية. عندها أدركتُ أنّ الفكاهة، أيضًا، كانت نادرة، وأنّها مجرّد واحدة من تلك الاحتياجات التي أراحت عقولهم وأجسادهم.

انهالت التبرّعات بكثافة. موقفُ السيارات في أكبرِ مُجمّعٍ رياضي في المدينة أصبحَ الآن مُتاحًا فقط للسياراتِ الرسمية والصحفيين. كان على العديد من المكسيكيين، الذين أحضروا الملابس المُستعملة والتبرّعات، الوقوف في الخارج والسير لمسافة مُعيّنة ليتمكّنوا من مساعدة الأشخاص الذين تعاطفوا معهم خلال الأسابيع القليلة الماضية.

كانت أخبار قافلة المهاجرين تنتشرُ منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى الحدود المكسيكية. فرّقت خراطيم المياه المُضادة للشغب حشوداً من المهاجرين يهرعون لعبورِ الحدود في البداية، ثم سمحت لهم بالعبور بطريقة منظمة على مدارِ بضعة أيام.

وقد تم رصد التقدّم التدريجي للمهاجرين عبر المكسيك عن كثب من قِبل العديد من محطات التلفزيون المحلية. فخطابُ الرئيس الأمريكي دونالد ترامب الأشدّ قسوة قبل انتخابات التجديد النصفي للولايات المتحدة قد منحَ محنة هؤلاء المهاجرين مكانًا على عناوينِ الصّحفِ الدولية. «سوف يسرقون وظائفكم ويخلقون فوضى في مجتمعاتكم»، قالَ ترامب في مسيراته في محاولة لحشدِ قاعدة الدعم الخاصة به. لكنه أدّى أيضًا إلى تعاطفِ البعض، الذين ربما لم يكونوا على علم بهذا النزوح الجماعي.

كان للمكسيك ردود فعل مُتباينة تجاه المجموعة. أحضر أب وابنه حقائب من الأحذية والملابس المُستعملة إلى إحدى «خيام التبرع» في العاصمة. قال الأب: «أردنا المساعدة بأيّ

طريقة ممكنة». لقد جمعوا أشياء غير مُستخدمة في حيهم، على أمل أن تقوم هذه الأشياء بتسهيلِ الرحلة الطويلة المُتبقية لهؤلاء المسافرين. وقال ابنه «نأمل أن يتمكنوا من الوصولِ إلى الحدود». على الرّغم من صغر سنه، لكن بدا أنه يفهم الحقائق القاسية في هذا البلد.

سألتهم: «ماذا لو لم يستطيعوا الوصول وانتهى الأمر بهم بالبقاء؟» نظر الأب والابن إلى بعضهما البعض واستهجنا السؤال. قالوا إنّ المكسيك لديها بالفعل العديد من المهاجرين ومجموعة كاملة من مشاكلها الخاصة. لم يُعارضوا بالضرورة استضافة المكسيك لهم، لكنهم كانوا مُشككين في قدرة بلادهم على استضافة أعداد من أمريكا الوسطى أكثرَ مما يفعلون بالفعل، في اقتصادٍ لا يُلبّي توقعات المكسيكيّ العادي.

المهاجرون أيضًا يفكّرون بنفسِ الطريقة. يعرفُ الكثير منهم أنه يمكنهم طلب اللجوء هنا والآن. لكن «ماذا سيستفيدون من ذلك؟»، فهم يعرفون أنّها لن تكونَ أفضلَ بكثيرٍ مِمّا تركوه في هندوراس أو غواتيمالا أو السلفادور. سواء من الناحية الاقتصادية أو من ناحية سلامتهم.

غالبًا ما تنشطُ عصابات المخدرات التي فرّوا منها في بلدانهم في المكسيك. لذلك فإنّ هدفهم الأساسي هو الوصول إلى الولايات المتحدة، حيث يعتقدون أنهم سيحصلون على حماية حقيقية وفرص أفضل لكسب العيش؛ أحلام شجّعتهم على المُضي في طريقهم بغضّ النظر عن مدى صعوبة الرحلة.

٢- هل يستحق كل هذا العناء؟

كصحفي، كان من المُفيد بالنسبة لي أن أرى عن كثبٍ الظروف التي يرغبُ هؤلاء الأشخاص في تحمّلها من أجلِ تغيير حياتهم. هذا جعلني أتساءل عما إذا كنتُ سأفعل نفس الشيء إذا كنتُ هندوراسيًا أعيشُ في المجتمعات التي تركوها وراءهم. وأتساءل، ما مدى سوء الوضع؟

والحقيقة هي أنّ النضال الحقيقي لأمريكا الوسطى ذات الدخل المنخفض لم يتم الإبلاغ عنه في جميعِ أنحاء العالم. إذ إنه من السهل أن نفترض، كما فعل الرئيس دونالد ترامب سابقًا، أنّ هؤلاء الأشخاص «مهاجرون اقتصاديون» يبحثون ببساطة عن الرخاء، أو كما يُشيرُ البعض إليهم، طامعين بالـ «الحلم الأمريكي».

لكن بمجرّدِ فتح قصصهم، سرعان ما يُصبح واضحًا أنّ «الأمن والأمان» هما أيضًا عاملان رئيسيان يدخلان في القرار الصعب المُتمثل في تركِ كل شيء وراءهم في رحلة مليئة بالشكوك وخالية من الضمانات.

لهذا السبب يخشى الكثيرُ من الناسِ التحدّث علنًا. مع العلم أنّه قد يُجبَرون في النهاية على العودة، وبهذا يُجبَرون على العيشِ مرّة أخرى تحتَ رحمةِ عصابات المخدرات التي تهيمنُ على أحيائهم ومدنهم.

أخبرني العديدُ من الشبابِ الذين تحدّثتُ إليهم أنّ دافعهم الأساسي للمغادرة هو الهروب من عنفِ العصابات. من بينهم فرناندو الذي بلغَ من العمرِ 18 عامًا مؤخرًا، وكان عليه اتخاذ قرار شبه تلقائي بالتخلّي عن جميعِ أفرادِ عائلته وأصدقائه في هندوراس.

كانت خيارات فرناندو واضحة: إما البقاء والانضمام إلى العصابات أو الهرب. أخبرني بعيداً الكاميرا أنّ العديد من الشباب يُجبَرون على الانضمامِ إلى صفوف العصابات أو مواجهة العواقب.

كانت محنة مارفين مُماثلة، وهو مِن هندوراس في أوائل العشرينيات من عمره. قال لي: «لقد انقلبت حياتي رأسًا على عقب بين عشيّةٍ وضُحاها».

عندما كان شابًا في هندوراس، اعتبر مارفن نفسه محظوظًا في الحصولِ على وظيفة. لكن العملَ كحارسِ أمنٍ لشركة خاصة كبيرة جعله هدفًا مثاليًا للعصابات. في إحدى الليالي، تبعتهُ العصابات طوال الطريق إلى منزله واقتحموا المنزل ثم هددوه بالسلاح أمام عائلته: «تعاون معنا أو قل وداعًا لعائلتك».

لم يرغب مارفن في خسارة دخلٍ يُعتبرُ جيّدًا بالنسبة لمعاييرِ هندوراس، ولم يكن يريد المشاركة في أيّ جريمة مُنظمة. لكن صدمة رؤية عائلته تحت تهديدِ السلاح لم تترك

أمامه سوى خيار أخير ألا وهو الخروج إلى طريق الهجرة. على الرغمِ من أنه لم يقم بتسمية العصابة المُحددة، لكنه أخبرني: «لم يعد هناك مكانٌ آمن بالنسبة لي، فأعضاء العصابات في كل مكان!»

في العديدِ من بلدان أمريكا الوسطى، تشوبُ الحكومة وقوات الأمن مزاعمُ الفسادِ الواسعة النطاق. غالبًا ما يكونُ من العبثِ لأيّ شخصٍ يواجه مشاكل مع العصابات أن يذهبَ ويطلبَ المساعدة من الشرطة.

الثقة في قواتِ الأمن تكادُ تكون معدومة. حيثُ يعتقدُ الناسُ أنّهم يسعون فقط لجمع الرشاوى، وفي بعضِ الحالات، يتعاونون مع العصابات نفسها. أثبتت العديد من الحوادث الماضية للمواطنين أن العصابات المسلحة في بعض الأحيان هي التي تُمسِكُ بزِمامِ الأمور.

في ظلّ معدّلاتِ البطالة المُتزايدة وندرة الفرص الاقتصادية، يسهلُ على الفئات المحرومة الوقوعُ في فخ الجريمة المُنظمة، حيث يؤمن أفراد العصابات فرصة لإطعامِ أسرهم على الأقل، والذين كانوا يتضوّرون جوعًا.

لكن تجارة المخدرات والأسلحة ودفع الإتاوات ليست بالأموال السهلة دائمًا. حيث تصطدمُ العصابات مع بعضها البعض أو مع الشرطة باستمرار، من أجلِ الحفاظِ على سلطتها. وفي كثيرٍ من الأحيان، فإنها تحصدُ أرواحَ مدنيين أو تودي بحياةِ أفراد هذه العصابات.

فرناندو هو واحدٌ من العديد من الشبابِ الذين لا يريدون هذا المستقبل. لكن الواقع على الأرض لم يقدّم له أي بدائل. قال إنه محاصر بين خيارين يؤديان إلى نفس الغاية: التعرُّض للقتل أثناء العمل مع العصابات أو الهروب منها.

بينما كنتُ أتحدّث إلى فرناندو، استحضرتُ صورة الرئيس دونالد ترامب في رأسي ـ وهو يخطبُ في إحدى التجمعات الانتخابية ـ حيث اتّهم المهاجرين في القافلة بأنهم أعضاء في حركة MS13، لكن دون أي دليل.

وبالرغم مِن أنّ عصابة MS13 السيئة السمعة ظهرت داخل الولايات المتحدة، فإنها تشكّلُ أقلّ من ١٪ من مجموعِ أفراد العصابات في البلاد. والمُفارقة الكبرى في ادّعاء

ترامب أنّ العديد من الشباب الذين قابلتُهم في القافلة هربوا لأنهم يريدون ملاذًا آمنًا من عصابات بلادهم.

كما يخشى سالومون مصيرًا مُماثلًا يلوح لأطفاله. ولذلك فلم يسمح لهم بالخروجِ للعب في الشوارع، خوفًا عليهم من عمليات إطلاق النار المُحتملة التي تودي أحيانًا بحياة الأبرياء. لم يرغب في تربيتهم في بيئةٍ ينعدمُ فيها الأمن باستمرار، ومستقبلٍ مليء بالشكوك.

كان سالومون نفسه يشعرُ بتهديداتِ العصابات في الحيّ الذي يُقيمُ فيه، حيث كان يُدير متجرًا صغيرًا لتناولِ الطعام. ومثل معظم العصابات في المنطقة، تم الاتصال به أيضًا من قِبل العصابات التي تطلب إتاوات الحماية. حتى ان البعض يراها «أموالاً ضريبية» تجمعُها العصابات التي تُسيطرُ على المنطقة، بالنظرِ إلى فراغِ السلطة الناجمِ عن عدمِ وجودِ شرطة فعّالة إما بسبب الضعف أو الفساد.

لم يكن لدى سالومون أيّ خيار سوى دفع «مستحقاته» للعصاباتِ المسؤولة. كان يقومُ بالدفعِ حتى «لا يواجه أي مشكلة» لكن فرض الإتاوات كان تعسّفيًا والكلفة تزداد. ظهرت العصابات بشكلٍ مُتكرّر وطلبت مبالغ أكبر، وفي كلّ مرة، تهدده هو وعائلته.

شاهد سالومون انخفاض هامش ربحه على مدارِ عدة أشهر، حتى اختفى تمامًا. لم يعد يجلب عمله أي دخلٍ لإطعام أطفاله. وبدلاً من ذلك، أُجبر على العمل مع العصابات. كان هناك العديد من الأمثلة الأخرى في المنطقة التي أثبتت أنّ عدم ولائه يمكن أن يكلفه حياته بسهولة؛ أو الأسوأ من ذلك، حياة أسرته.

كان خياره الوحيد هو الفرار، والقيام بذلك دون العودة. امتدت شبكة العصابات إلى مناطق أخرى، وفي كثير من الحالات إلى البلدان المجاورة. لهذا السبب لم يستطع المخاطرة بإعادة التوطين في أي مكان في المنطقة المجاورة. كانت القافلة هي الفرصة المثالية حتى يصل إلى الولايات المتحدة، وهو رهانٌ آمن.

لم يكن سالومون حالة فريدة على الإطلاق. فالعديد من الشهادات في القافلة كانت يائسة. ويقولُ الشهود إنّ الآلاف من الأسر في مجتمعاتهم تعاني من الاضطهاد اليومي والخوف على حياتهم.

في هـذا السـياق، يرفـعُ العديـدُ مـن محامـي حقـوق الإنسـان قضايـا طلـب اللجـوء. يزعمـون أنّ العديـد مـن هـؤلاء الأشـخاص غـير قادريـن أو غـير راغبـين في العـودة إلى بلدهـم الأصـلي بسـببِ الخـوف القـوي مـن التعـرّض للاضطهـاد، وأنـه ينبغـي حمايتهـم كلاجئـين بموجـبِ القانـون الـدولي.

رغـم أنـه لا يوجـد مـا يضمـن أنّ كلّ شـخص في القافلـة سـيكونُ مؤهـلاً كلاجـئ، فإنـه في الواقـع ليـس الجميـع بالـضرورة هنـاك لطلـب اللجـوء. إذ تُمنَـح منـحُ صفـة اللاجـئ بطبيعـةِ الحـال بحسـب كلّ حالـة عـلى حـدة، لأنّ كل فـرد يمكـن أن يقـدم مجموعـة مختلفـة مـن الـشروط.

لقـد فوجئنـا عنـد سـماعِ تقاريـر تفيـدُ بوجـودِ مهاجريـن أفارقـة قـد انضمـوا إلى القافلـة، وهنـا تحـوّل النقـاش عـلى الفـورِ إلى دعايـة أخـرى مُناهضـة للهجـرة لتقويـضِ شرعيـة قضيـة القافلـة.

عـلى مـدارِ عـدة أسـابيع قضيتُهـا في متابعـة القافلـة، لم أصـادف مهاجـرًا مـن أمريـكا الوسـطى. كانـت الأغلبيـة مـن هنـدوراس، تليهـا غواتيـمالا والسـلفادور، وأقليـة مـن نيكاراغـوا، وفي النهايـة انضـم بعـض المكسـيكيين أيضًـا إليهـم.

بنـاءً عـلى عـشرات المقابـلات التـي أجريتُهـا، يمكننـي أنّ أؤكـد بسـهولة أنّ غالبيـة هـؤلاء المهاجريـن مُؤهّلـون عـلى الأقـل لتقديـمِ طلـب اللجـوء. ومـع ذلـك، يمكـن القـول إنّ أقليـة مـن الحـالات تمـدد تعريـف اللاجـئ.

دينـا هـي أم لطفلـين. قابلتُهـا في واحـدة مـن أكـثرَ الخيـامِ ازدحامًـا التـي تسـتضيفُ المهاجريـن في مكسـيكو سـيتي. كانـت العائـلات تجلـسُ عـلى فـرشٍ منتـشرة حولهـا، تاركـين مسـاحة كافيـة للتجـوّل في الخيمـة. كانـت دينـا تجلـسُ مـع امرأتـين أخريـين وهـن أيضًـا أمهـات عازبـات، بعضهـن البعـض في الطريـق وقـرّرن الالتـزام ببعضهـن البعـض والتضامـن.

بـدت كل النسـاء مُرهقـات ومُضطربـات. لقـد مـرضَ جميـع أطفالهـن في الطريـق عـدة مـرات. وبالرّغـمِ مـن صعوبـة ظروفهـن، لم يرفضـن الإجابـة عـن بعـض الأسـئلة. شـعرن بالخجـل قليـلاً مـن الكاميـرا في البدايـة، لكـن كانـت لـدى دينـا الشـجاعة في النهايـة للانفتـاح.

كانت دينا معزولة تمامًا من قِبل عائلتها بأكملها، خاصة بعد انفصالها عن زوجها. كانت تخبزُ المعجنات في الشوارع، ولكن بالكاد كان لديها ما يكفي لإطعام طفليها. لم تتمكن من دفعِ الإيجار واضطُرّت إلى قضاءِ لياليها في النومِ تحت جسر. انفجرت في البكاء، ثم قالت إنه ليس لديها مكان تذهب إليه.

بمجرّد أن أغلقنا الكاميرا، كشفت عن بعضِ التفاصيلِ الإضافية، حولَ التهديدات وسوء المعاملة التي تعرّضت لها على أيدي زوجها وعائلته. لذلك يبدو أنّ سبب الهرب ليس مجرّد العوز، بل هو العنف المنزلي الذي قالت إنها كانت تواجهه.

لقد أظهرت لي هذه المقابلة مرّة أخرى أنّ المهاجرين قد يكونُ لديهم أسباب عميقة لتركِ كلّ شيء وراءهم والقيامِ برحلة إلى المجهول. بعض هذه الأسباب حسّاسة وشخصية لدرجة أنها قد لا تظهرُ بسهولة أثناء مقابلة مع صحفي.

كان الكثيرُ من الناسِ يخشون حتى عرض وجوههم على الكاميرات؛ خوفًا من أدنى احتمال أن يرى أولئك الذين يضطهدونهم أو يهددونهم مكانهم ويقررون إيذائهم أو إيذاء أحبتهم الذين تركوهم وراءهم.

تختلفُ قصصِ سالومون وفرناندو ومارفين ودينا عن بعضها البعض تمامًا، ولكن جميعها لديها عامل مشترك واحد: شعورٌ دائم بعدمِ الأمان والخوفِ على سلامتهم. يبدو أنّ القوة الدافعة التي دفعتهم إلى الأمامِ هي القناعة بأنّه بغضِّ النظر عن صعوبةِ الرحلة، فإنّ ظروفهم تستحقُّ خوضَ هذه التجربة.

٣- المكسيك كوسيط

صوّر البيت الأبيض تقدُّمَ القافلة البطيء نحو الحدودِ الأمريكية كتهديدٍ وشيكٍ للأمن القومي. بعد إهانةِ المهاجرين المكسيكيين خلال حملته الرئاسية، اختارَ دونالد ترامب وصم المهاجرين من أمريكا الوسطى بالمجرمين عشيّة انتخابات التّجديد النصفي للولايات المتحدة.

في الواقع، اتصل الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بنظيرِه المكسيكي إنريكي بينيا نييتو للضغطِ عليه لإيقافِ القافلة. وعلى الأرض، تمّت ترجمةُ هذا الطلب على الفور إلى جهودٍ من الحكومة المكسيكية لمحاولة لإقناع المهاجرين بالبقاء.

كانت استطلاعاتُ الرّأي للرئيسِ بينيا نييتو مُتدنّية في المكسيك عندما اقتربَ من شهرِه الأخير في منصبه. حيثُ أعلنَ أنّ «المهاجرين في القافلة سيحصلون على بطاقة هوية رسمية مؤقتة في المكسيك، ويكونون قادرين على الوصولِ إلى برنامجِ العملِ المؤقت». وأكّد أيضًا أنهم «سيكونون قادرين على الحصولِ على العناية الطبية وحتى إرسال أطفالهم إلى المدرسة».

إنّ معرفة أنّ المكسيك يمكن أن تكون خيارًا للتسوية وبدء حياة جديدة بعثَ بالارتياحِ لمُعظمِ القافلة، الذين تعبوا من انتظارِ المجهول فيما يتعلّقُ بباقي رحلتهم. لدرجة أنه حتى الدعم النفسي كان من بين الخدماتِ المُقدّمة لهم أثناء وجودِهم في مكسيكو سيتي.

أقامت منظمة غير حكومية محلية خيمة لتقديمِ الدعم النفسي، حيث كان يمكنُ للمهاجرين تحديد المواعيد والتشاور مع الخبراء حول قضاياهم النفسية. كانت مارلين إحدى هؤلاء المتطوعين المكسيكيين. أخبرتني أنّ العشرات من المهاجرين الذين ساعدتهم كانوا في حالة من القلق لدرجة أنهم كافحوا من أجلِ اتخاذ قرار بشأنِ البقاء أو الاستمرار.

لقد كان باعثًا للسخرية من نواحٍ كثيرة أنه إلى جانب خيمة الدعم النفسي، كان هناك الخيم الأخرى التي أنشأتها المنظمة الدولية للهجرة (IOM)، والمفوضية العليا لشؤون

اللاجئـين التابعـة للأمـم المتحـدة، ووكالـة الهجـرة في المكسـيك، وغيرهـا مـن المنظـمات غـير الحكوميـة التـي تقـدّم المشـورة القانونيـة المجانيـة.

يمكـنُ للمـرءِ أن يـرى المهاجريـن يخرجـون مـن خيمـة ويصطفـون في خيمـة أخـرى. كانـوا يتناقشـون مـع بعضهـم البعـض حـول أفضـل طريقـة للمُـضي قدمًـا. الـشيء الوحيـد الـذي اتفقـوا عليـه جميعًـا هـو أنّ ثلاثـة إلى أربعـة أسـابيع عـلى الطريـق دفعتهـم بالفعـل إلى الحافـة. وإدراكًا منهـم أن الرحلـة لا تـزالُ في أقـلّ مـن نصـف الطريـق، بـدأ أولئـك الذيـن يمكنهـم العـودة فعليًـا في التفكـيرِ في هـذا الخيـار.

رأيـتُ كريسـتيان وأصدقـاؤه يوقعـون أوراقًـا داخـل خيمـة المنظمـة الدوليـة للهجـرة، التـي كانـت تعـرضُ عـلى المهاجريـن المسـاعدة في العـودة إلى بلدانهـم، إذا اختـاروا ذلـك طوعًـا. مجموعـة مـن الأصدقـاء، بعضهـم صغـار في سـن المراهقـة، سـمعوا عـن القافلـة التـي تمـرّ عـبرَ مدينتهـم وقـرّروا القفـز عـلى متنهـا مـن أجـلِ «التجربـة». وبينـما كان يمـزحُ ويضحـكُ مـع أصدقائـه، أخـبرني كريسـتيان أنـه «لم يخطـر ببالـه أبـداً أنّ الأمـرَ سيسـتغرقُ وقتًـا طويـلاً» ، وأن مـا معهـم مـن المـال نفـد ومرضـوا مـرّاتٍ عديـدة، كـما قضـوا العديـد مـن الأيـام وهـم جيـاع عـلى الطريـق. والآن، وبعـد إعطائهـم الفرصـة، قـرّروا العـودة وقالـوا إنهـم في المـرّة القادمـة يمكنهـم التخطيـط للرحلـة بشـكلٍ صحيـح.

بعـد ذلـك قابلـتُ كريسـتوفر جاسـكون، ممثـلُ المنظمـة الدوليـة للهجـرة، الـذي أخـبرني أنّهـم في ذلـكَ الوقـت، سـجّلوا حـوالي مائـة شـخص كانـوا عـلى اسـتعداد للعـودة إلى بلدانهـم، ولكنهـم أقليـة صغـيرة في قافلـة تضـمُّ أكـثرَ مـن 5 آلاف مهاجـر.

في نفـسِ الوقـتِ تقريبًـا، أعلنـت حكومـة هنـدوراس عـن برنامـج بتمويـلٍ قـدره 27 مليـون دولار لتوفـيرِ الدّعـمِ في الإسـكان أو التعليـم أو الاسـتثمار للمؤسسـاتِ الصغـيرة. مـن المفـترضِ أن يكـون ذلـك حافـزًا للمهاجريـن للعـودة. لكـن قلّـة قليلـة منهـم سـمِعَت عـن ذلـك بالفعـل، ولم يكـن لـدى معظمهـم أيّ ثقـة في حكومتهـم. وعـلى أيّ حـال، فـإنّ هـذه الحوافـز الماليـة لا يمكِنُهـا مسـاعدة أولئـك الذيـن فـرّوا لأسـبابٍ أمنيـة.

ومـع ذلـك، فهـم الكثـير مـن المهاجريـن أنّ مخيـم اللاجئـين المؤقـت ومـوارده لـن يدوما.بعـد فـترةٍ وجيـزة مـن انتقـالِ القافلـة ونسـيانها مـن الصحـف، سـيصبحون ببسـاطة جـزءًا مـن

مجتمع المهاجرين من أمريكا الوسطى في المكسيك؛ مئات الآلاف الذين يُكافحون يوميًا لتغطية نفقاتهم.

بالنسبةِ لمُعظمِ الأشخاصِ الموجودين في القافلة، فإنّ عرضَ المكسيكِ كان بمثابةِ أخبار سارّة، لكنهم اعتبروا ذلك بمثابة خطة «ب»، في حالِ فشلِ هدفهم في الوصولِ إلى الولايات المتحدة. يبدو أنّ حوافز المكسيك ومحاولاتها لإقناعهم بالبقاء لم تنجح. «شكرًا، لكن لا، شكرًا» كان رد معظمهم.

تساءلَ المهاجرون عمّا إذا كانت الحكومة المكسيكية يُمكنها بدلاً من ذلك مساعدتهم على الوصولِ إلى الحدود الأمريكية. الطلبات المُتكرّرة من منظمة «أشخاص بلا حدود» لم تسفر عن أيّ رد من الحكومة. بدلاً من ذلك، كان هناك شعورٌ من التردّدِ من جانبِ الحكومة تجاه مساعدتهم على تحقيقِ هدفهم الأساسي. في نهاية المطاف، كانت «أشخاص بلا حدود» مُجرد شركة خاصة قررت رعاية الحافلات التي ستأخذ بعض المهاجرين في رحلتهم إلى الشمال. ساعدهم أيضًا العديد من المكسيكيين في السير في الطريق، حيث عرضت العديد من الشاحنات والمركبات نقلهم إلى محطّتهم القادمة.

٤- الحدود الأمريكية - نهاية أو مجرد بداية كابوس!

كان الهدف النهائي للقافلة هو الوصولُ إلى الولاياتِ المتحدة، لذا افترضَ الكثيرُ من المهاجرين أنّ الوصولَ إلى الحدودِ كان أقرب ما يكونُ إلى النّصر. في الواقع، أظهرت معظم الحالات أنه قد يكون مجرّد بداية لكابوسٍ آخر؛ في بعض الحالات، أكثرَ صعوبة من الرحلة نفسها.

قبل أسبوعين من وصولِ القافلة إلى الحدود، صرّحَ الرئيسُ دونالد ترامب بشكلٍ صريح أمام تجمّعٍ حاشد بأنّه لن يسمحَ لقافلةِ المهاجرين بالدخولِ إلى الولايات المتحدة. فقام بنشرِ ما يُقاربُ ٦ آلاف جندي على الحدود الجنوبية، وفي خطوةٍ غير مسبوقة، قامت إدارته بتغييرِ قوانينِ طلبِ اللجوء، مؤكدًا أنّ الذين يعبرون عبر موانئ الدخول الرسمية

فقط هم الذين ستُدرَس حالتهم كطالبي لجوء.

وردّت مفوضية الأمم المتحدة لشؤونِ اللاجئين قائلة إنّ «الأمن القومي والاستقبال الكريم للاجئين وطالبي اللجوء ليسا أمرين مُنفصلين، بل يعزّزان بعضهما البعض». كما ادّعت المنظمة الدولية أنّ «نظام الاستقبالِ في جنوب الولايات المتحدة غيرُ كافٍ وغيرُ قادر منذ فترة طويلة على استيعابِ هذه الأعداد الموجودة على الحدود الجنوبية مع شمال المكسيك وهذا ما يُجبرُ طالبي اللجوء على الاستعانةِ بالمُهرّبين غير النظاميين».

تتعارضُ القوانين الجديدة التي أصدرها ترامب مع «قانون الهجرة والجنسية»، الذي ينصُّ بوضوحٍ على أنه يمكنُ تقديم طلب اللجوء، بغضّ النظر عن كيفية دخولِ الفردِ إلى البلد أو مِن أين. وقد اعتبرَ الكثيرون هذه الخطوة سوء استخدام لسلطته التنفيذية.

أعادني قرارُ ترامب إلى حادثة سابقة عندما كنتُ أغطي قافلة أخرى في وقتٍ مبكر من عام 2018. وكان مئات المهاجرين قد تجمّعوا عند معبر تيخوانا الحدودي. كان الكثيرون ينامون في الشوارعِ دونَ أن يعرفوا متى سيُسمحُ لهم بالعبور.

كان أحد المنظمين من «أشخاص بلا حدود» يرافقُ عشرات الأشخاص عبر الحدود، وعندما أدركَ أنه لن يتم قبول المزيد لهذا اليوم، احتجّ في غضبٍ قائلاً إنّ «مراقبة الحدود الأمريكية هي واحدة من أكبر وكالاتِ تنفيذِ القانون في الولايات المتحدة، مع القدرة على ترحيلِ أكثر من ألف شخصٍ في اليوم، ولكن عندما يتعلّقُ الأمرُ بطالبي اللجوء، يقولون إنهم لا يستطيعون القيام بالمزيد».

في ذلك الوقت، كان من المنطقي بالنسبة لكثيرٍ من الناس عبور الحدود بأيّ طريقة ممكنة، وغالبًا ما يكونُ ذلك من خلالِ التسلّل عبر أي فتحة يمكنهم العثور عليها، ثم تقديم طلب اللجوء لاحقًا. لكن القوانين الجديدة التي وضعها ترامب تسمحُ للحكومة الأمريكية بترحيلهم «للدخولِ بطريقة غير شرعية»، حتى لو كانوا مؤهلين للجوء، وهي خطوة، كما يقولُ الخبراء، تتعارضُ مع القانون الدولي.

ومع ذلك، فإنّ سياسة المُدّعي العام السابق جيف سيشنز، التي سُنت في أبريل 2018، تسبّبت في غضبٍ واسعِ النطاق في الولايات المتحدة وخارجَها. حيثُ بدأت جلسات «سياسة عدم التّسامح مطلقًا» التي شوهد فيها المهاجرون البالغون الذين عبروا

الحـدودَ بشـكلٍ غـير قانـوني وهـم يواجهـون دعـاوى جنائيـة؛ حيـثُ يتعـيّنُ فصـلُ البالغـين المُحتجزيـن، الذيـن يواجهـون تُهـماً جنائيـة، عـن أطفالهـم الذيـن تـمّ إبقاؤهـم في مراكـزِ الاحتجـاز.

قابلـتُ عائلـة غينـاك قبـل اللحظـات الأخـيرة مـن افتراقهـم، حيـث وصلـوا إلى معـبرِ تيخوانـا الحـدودي في شـمالِ المكسـيك، عـلى طـول الطريـق مـن غواتيـمالا. صوّرنـا ماريـا وزوجهـا، في صبـاحٍ بـارد، وهـما يسـتعدّان مـع أطفالهـما الثلاثـة للمـشي فـوق الجـسر إلى الولايـاتِ المتحـدة لطلـب اللجـوء.

تـم فصـلُ الأبِ عـلى الفـور عـن بقيـةِ أفـرادِ العائلـة وتـم ترحيلُـه إلى المكسـيك في غضـونِ أيـام. اسـتغرقَ الأمـرُ شـهورًا حتـى اسـتطعنا التواصـلَ مـع بقيـةِ أفـرادِ العائلـة. وطـوالَ تلـك الفـترة، ظلّـت الأم وأطفالهـا الثلاثـة في مراكـزِ احتجـازٍ مُختلفـة في ولايـاتٍ مختلفـة.

بعـد قـرارِ المحكمـة العليـا بإنهـاء «سياسـة عـدمِ التسـامحِ مطلقًـا» المثـيرة للجـدل وتحديـدِ موعـدٍ نهـائيّ لجمـعِ شـمل الأسرة، التقـت ماريـا بأطفالهـا في نيويـورك. قابلناهـا في منـزلِ أحـد أقربائهـا في لـوس أنجلـوس حيـث انتظـرت موعـدًا في المحكمـة.

لقـد بـدت مُرهقـة و مُحرَجـة مـن وجـودِ جهـاز مراقبـة كبـير مُقيّـد عـلى كاحلهـا. قالـت إنهـا لم ترغـب حتـى بالخـروجِ مـن المنـزل. وفي اللحظـة التـي بـدأت تـروي فيهـا تلـك الأشـهر المنفصلـة عـن أطفالهـا، انفجـرت في البـكاء: «لقـد كانـت أسـوأ لحظـات حيـاتي»، قالـت: «بـدأ أطفـالي في البـكاء، وطلبـوا منـي ألا أتركهـم. قلـت لهـم أنّ الأمـر ليـس بيـدي، لقـد أمـرتُ بتركِهـم لأنّ القوانـين هنـا صارمـة للغايـة. ثـم تابعـت «ولم أتمكـن مـن البقـاءِ قويـة أمامهـم، لقـد كان الأمـرُ مؤلمًـا للغايـة».

بقـي جميـع أطفالهـا هادئـين للغايـة، وبـدا وكأنهـم مكسـورين مقارنـة بآخـرِ مـرّة رأيتُهـم فيهـا قبـل عبـورِ الحـدود. تقـولُ ماريـا إنّ طفلهـا البالـغَ مـن العمـرِ ٥ سـنوات، وهـو أصغرهـم سـناً، لا يـزالُ يسـتيقظُ في الكوابيـسِ ويبـكي في منتصـفِ الليـل، في إشـارة إلى الصدمـة التـي عاشـها.

أريناهـم مقابلتنـا مـع زوج ماريـا، الـذي لا يـزالُ في المكسـيك بعـد ترحيلـه. صرخَ طفلهـا الأصغـر سـناً «بابـا»، حيـث كانـت هـذه هـي المـرة الأولى التـي يـرى والـده منـذ أن كانـوا في

تيجوانا. لا تزالُ الحيرة عنوان حياتهم. تريدُ ماريا انتظارَ موعدِ المحكمة - لمعرفةِ ما إذا كانت لا تزالُ لديها فرصة للحصولِ على صفة اللاجئ في الولايات المتحدة.

سألتُها عمّا إذا كانت لا تزالُ ستُمضي في هذه الرحلة، لو كانت تعرفُ ما سيحِلّ بها وبعائلتها. نظرَت إلى الأسفلِ وظلّت صامتة ـ مُرهقة لتقرّرَ على الفورِ ما إذا كان عنف العصابات في مسقطِ رأسها أسوأ مِن كون عائلتها مكسورة ومصابة بصدماتٍ نفسية.

تم ترحيلُ غالبية المهاجرين الذين عبروا الحدود بطريقةٍ أو بأخرى. لاحظَ البعضُ مثل فرناندو هذا الأمر، لذلك قرّروا انتظارَ الوقتِ والمكان المناسبين لعبورِ الحدود بشكلٍ غير قانوني والبقاءِ بدون وثائق داخل الولايات المتحدة. على الرّغمِ من أنّهم يعتقدون أنّ لديهم قضية قوية للحصولِ على حقّ اللجوء، فإنهم لا يخاطرون بالترحيلِ إلى بلدٍ لم يعودوا يشعرون فيه بالأمان.

مبعوثون محطمون

بقلم علي مصطفى

المراسل علي مصطفى ينقل أخبار المظاهرات العنيفة من رام الله في الضفة الغربية المحتلّة

تغطيـة الهجمات الإرهابية في تركيا

بعـد ظُهـرِ يـومٍ مـن شـهر أكتوبـر عـام 2015، قـام انتحاريـان بتفجيـرِ مُتفجّـرات خـارج محطـة السـكك الحديديـة الرئيسـية (أنقـرة غـاري) في العاصمـة التركيـة. قُتـل أكـثر مـن مائـة شـخص. قبيـلَ لحظـاتٍ مــن موتهــم، كان هــؤلاء المواطنــون الذيــن أصبحــوا في عــدادِ المــوتى الآن، يُطالبـون بإنهـاءِ موجـةِ الهجـماتِ الإرهابيـة في تركيـا.

تـم إلقـاء اللـوم عـلى مـا يُسـمّى بالدولـة الإسـلامية في مسـؤولية التفجـير، والمعروفـة إعلامياً باسـم داعـش. قُتـلَ الآلاف مـن الأشـخاصِ في مئـاتِ الهجـمات التـي نفّذتهـا داعـش في جميـعِ أنحـاءِ الـشرقِ الأوسـط، وتركيـا لتُسـتثنَ مـن إراقـةِ الدمـاء. لكـن داعـش ليسـت الجماعـة الوحيـدة التـي تسـتخدمُ الإرهـابَ لتحقيـقِ أهدافهـا الإقليميـة والعالميـة. فقـد اسـتهدفت جماعـات مثـل منظمـة بي كا كا الإرهابيـة، والتـي تعتبرهـا الولايـات المتحـدة منظمـة إرهابيـة، المدنيـين في تركيـا وسـوريا.

بعـد سـاعاتٍ قليلـة مـن الهجـومِ عـلى المتظاهريـن السـلميين في أنقـرة، وجـدتُ نفـسي في مستشـفى نُقـل إليـه بعـض الجرحـى والقتـلى. هنـاك قابلـتُ امـرأة حزينـة عـلى وفـاة ابنتهـا البالغـة مـن العمـر 24 عامًـا. قالـت الأم الحزينـة، مريـم: "لقـد كانـت شـقيّة للغايـة ولم تسـتمع لنصيحتـي». تتذكـر والدمـوعُ في عينيهـا كيـف توسّـلت لابنتهـا فاطمـة بعـدمِ المشـاركة في المظاهـراتِ في ذلـك اليـوم. »أخبرتُهـا ألا تذهـب إلى المظاهـرة، لكنهـا لم تسـتمع لنصيحتـي".

تذكـرتُ بعـد ظهـر ذلـك اليـوم كلـمات صديقـي العزيـز ومُعلّمـي "عـلي" ديفيـد كلاتيـل. قبـل سـنواتحين عملنـا سـويًا لإنهـاء رسـالتي في جامعـة كولومبيـا في كليـة الصحافـة، قـال لي: "حـاول أن تـروي قصـص المظلومـين والمُهمّشـين. ركّـز عـلى الأشـخاص الذيـن يعانـون. التهديـد بالعنـف والظلـم نتيجـة ذلـك غالبًـا مـا يكـونُ أسـوأ مـن العنـف نفسـه".

بـدأت رحلتـي في الصحافـة في أفغانسـتان في عـام 2004. كنـتُ في زمالـة لمـدة أربعـة أشـهر أعمـلُ عـلى أطروحـة في جامعـة سـانت لويـس، وقتهـا سـاعدتُ صحفيـين في صحيفـة سـانت لويـس بوسـت ديسـباتش لتغطيـةِ هجـماتِ طالبـان في أفغانسـتان في ذلـك العـام. وبعـد مـرور 11 عامًـا، كنـتُ أكتـب عـن تهديـدٍ أكـثر أهميـة عنـد مفـترقِ الطـرقِ بـين الـشرق والغـرب.

كانـت المشـاعرُ تفـورُ في المستشـفى بعـد ظهـرِ ذلـك اليـوم في أنقـرة. مـا جعـلَ الأمـرَ أكـثرَ صعوبـة كان حقيقـة أننـي كنـتُ أعمـلُ لشـبكة تي آر تي العالميـة، وهـي شـبكة الأخبـار الانكليزيـة التابعـة لمحطـة البـث الحكوميـة التركيـة. اعتقـدَ المُشـيّعون أنّ الحكومـة تركّـز عـلى إرهـابِ البـي كا كا، وكانـوا يريـدون مجهـوداً أكـبر للقضـاء عـلى إرهـاب تنظيـمِ داعـش.

المعركة ضد مجموعات مثل داعش والبي كا كا هي معركة مُعقدة بالنسبة للعديدِ من الجهاتِ الفاعلة في الشرقِ الأوسط. لنأخذ البي كا كا كمثال. في حينِ أنّ الولاياتِ المتّحدة تُصنّفُ هذه المجموعة كمنظمةٍ إرهابية، فإنّ الجيش الأمريكي يموّلُ ويدعمُ ذراع البي كا كا السوري، المعروفِ "بي واي دي" ،ضد داعش في سوريا. وبالمثلِ، تُتّهم تركيا بدعمِ قواتٍ مُناهضة للنظامِ في سوريا والتي يعتبرُها الغرب جماعاتٍ إرهابية.

لقد تحسّن فهمي للشرقِ الأوسط أثناء العملِ كمراسلٍ يُغطّي إعلامياً الفوضى في المنطقة منذ أن انتقلتُ إليها قبل خمسِ سنوات. قبلَ الانتقالِ إلى تركيا، كنتُ في قطر أعملُ في قناة الجزيرة الإنكليزية وأكتبُ عن سوريا والعراق واليمن. لقد كنتُ في موقع مهم يتمُّ من خلالِه رصدِ الأحداث الحرجة التي تحدثُ في هذا الجزء من العالم؛ الأحداث التي كانت تُحدّدُ طبيعة ودور الجهات الفاعلة الاستراتيجية في المنطقة للاعبين الحكوميين أو غير الحكوميين على حدٍ سواء.

إنّ داعش والبي كا كا يحاولان تغييرَ شكلِ المنطقة، مع ما يحملُ ذلكَ من تداعياتٍ واسعةِ النطاق ليس فقط بالنسبة لأوروبا والشرقِ الأوسط، ولكن أيضًا لروسيا والولايات المتحدة. أكبرُ دليلٍ على أنّ هناك تغيّراتٍ كبيرة في المنطقة هوصولِ ملايين اللاجئين أولاً إلى تركيا ثم إلى أوروبا. في مايو 2016، وجدتُ نفسي في مخيمِ اللاجئين إيدوميني في اليونان والذي كان يتم "إخلاؤه» من آلافِ اللاجئين.

الحدود المُغلقة في أوروبا

بعد أن أغلقت مقدونيا حدودها مع اليونان عند معبرِ إيدوميني للسككِ الحديدية، لم يكن لدى السلطاتِ اليونانية سوى القليلِ من الوقتِ لتلبيةِ احتياجاتِ العددِ المتزايدِ من اللاجئين الذين توافدوا بأعدادٍ كبيرة. استقرّ اثنا عشرَ ألف لاجئ عند معبرِ السككِ الحديدية شمال اليونان في إيدوميني، وبدأوا في السيطرة على مساراتِ السككِ الحديدية

لأنّه لم يعد هناك مساحة مُتبقّية في الحقولِ المجاورة. أصبحتِ الخيامُ على السككِ الحديدية رمزًا للاحتجاجِ على قرارِ سكوبي (عاصمة مقدونيا الشمالية) القاضي بإغلاقِ الحدود، والتي كان يعبرُ منها الآلاف في وقتٍ سابق إلى وجهاتٍ في أوروبا مثل النمسا وألمانيا. قررت أثينا "إبعاد اللاجئين قسراً»، مُشيرة إلى المخاوفِ الأمنية بعد اندلاعِ المعاركِ بين مجموعة مُتنوّعة من اللاجئين ذوي الخلفيّات اللغوية والعرقيّة المُختلفة.

خليل نجار الذي يبلغُ من العمرِ اثنين وعشرين عامًا من مدينة حلب السورية، والذي أقامَ لفترةٍ قصيرة في مخيمِ إيدوميني ثم نُقلَ إلى مركزِ معالجة اللاجئين في تشيرسو التابعِ للسلطاتِ اليونانية. نجار كان كرديًا نجا من هجماتِ النظامِ المُتفجّرة في حلب. كان يعملُ لفترةٍ قصيرة في مدينة ماردين التركية قبل القيامِ برحلة إلى أوروبا. استقلّ السوري ذو البشرة الفاتحة مركباً في إزمير في يناير 2016 ووصل إلى جزيرةِ كوس اليونانية. في غضونِ أسابيعٍ قليلة، وصلَ إلى شمالِ اليونان، حيث انتهت رحلته فجأة. وقال "كنتُ على وشكِ المغادرة إلى ألمانيا عندما أغلقت مقدونيا حدودها».

"في سوريا، كان لديّ جدران وسقف. أنا هنا أعيشُ تحت قطعةِ قماش، بجانبِ الثعابين والفئران». وأضاف: "لا يوجدُ شيء بالنسبة لنا هنا، نريدُ المُضي قدمًا». لكن نجار والآلاف الآخرون ما زالوا عالقين داخل اليونان بسببِ الخلافاتِ مع أوروبا بشأنِ سياساتِ اللاجئين والمبادئ الإنسانية للاتحادِ الأوروبي. هذه المبادئ العليا مُهدّدة في البلدانِ الأكثرِ تأثراً بوصولِ الغرباء. في ألمانيا على سبيلِ المثال، أدى تدفق اللاجئين إلى ظهورِ جماعاتٍ يمينية مُتطرّفة تستغلُّ كرهَ الأجانبِ ومعاداة المهاجرين.

التعصب وكراهية الأجانب في ازدياد

جماعات اليمين المُتطرّف في ألمانيا، كتلك التي تُعتَبرُ مُؤيّدة للنازية، تظاهرت في السنواتِ الأخيرة داعية إلى إحداثِ تغييرٍ في الاتجاهِ السياسي، واتخاذِ نهجٍ أكثرَ شمولاً للتعاملِ مع أزمةِ اللاجئين. وقعت مظاهرة من هذا القبيلِ في بلدةِ بوتسن في أكتوبر 2015، حيث انضمّ حوالي ألفي متظاهر. كنتُ أغطّي هذه وغيرَها من الأحداثِ في المدينة في ذلك الشهر. تحدّثَ إليّ البعض مِمّن كانوا في المظاهرة وأنا الرجلُ الأسمر، الذي كان يتحدّثُ

عـن اليمـين المُتطـرّف وكانـوا عـلى مـا يـرام عندمـا أخبرتهـم باسـمي. لكـن عندمـا تحدّثـوا عـن غـزوٍ مُتصـوّر لــ «الغربـاء»، تـم رفـع الحجـاب، وكشـفوا عـن كراهيتهـم وخططهـم "للتخلـصِ مـن القمـل»، وهـو التعبـير الـذي يُطلقونـه عـلى اللاجئـين.

لكـن كراهيـة الغربـاء لا تقتـصرُ فقـط عـلى أوروبـا؛ بـل تنتـشرُ أيضًـا في أمريـكا الشـمالية. حيـث أطلـقَ انتخـاب دونالـد ترامـب الرئيـس الخامـس والأربعـين للولايـاتِ المتحـدة موجـة مـن التهديـداتِ والهجـماتِ عـلى مـن يُعتَـبَرون غربـاء. مـن الهجـماتِ عـلى المقابـرِ اليهوديـة وأماكـنِ العبـادة الإسـلاميةَ إلى التهديـدات ضـد الأجانـب ،فخطابـه السـياسي يعمـلُ عـلى تطبيـعِ التمييـزِ العنـصري ويجعـلُ مـن المناسـبِ انتقـاد الآخرينووصفهـم بأنّهـم تهديـد. مـن المهـمِ وضـعُ هـذه التجـارب في سـياقٍ أوسـع. إذ يجـب أن يكـون التركيـزُ عـلى الأفـرادِ والمجتمعـاتِ التـي واجهـت كراهيـة الأجانـب في المجتمعـات والأعـراق.

يُعَـد النشـطاء المسـلمون في أمريـكا الشـمالية الذيـن يجمعـون الأمـوال لإصـلاحِ مقـبرة يهوديـة مُخربـة في سـانت لويـس بولايـة ميسـوري مثـالاً عـلى الاسـتجابة للتمييـز ومقاومـة تطبيـعِ الكراهيـة مـن خـلالِ الخطـاب السـياسي. يحتـاجُ الطـلابُ الذيـن يطمحـون إلى أن يكونـوا صحفيـين أيضًـا إلى تجـاوزِ الحكايـات المُبسّـطة عـن سـببِ التمييـزِ بـين الأفـرادِ والمجتمعـات. الأسـباب الاقتصاديـة تحـكي جـزءًا مـن القصـة، لكـن يجـب علينـا أن نتعمّـق ونـروي قصصًـا عـن الظـروفِ الجماعيـة للعنصريـة، عـلى سـبيلِ المثـال.

في عـامِ 2017، قمـتُ بإلقـاء محـاضرة عـن الصحافـة والاتصـالات للطـلابِ المبتدئـين في جامعـة نـورث وسـترن في قطـر. كان مـن المُثـيرِ للاهتـمام سـماعُ وجهـاتِ نظرِهـم بشـأنِ التمييـزِ وكـرهِ الأجانـبِ المُتزايـدِ في المجتمعـاتِ الغربيـة. كان بعـض الطـلابِ مـن الـشرقِ الأوسـط، وآخـرون مـن جنـوبِ آسـيا، وعـددٌ قليـلٌ مـن الولايـاتِ المتحـدة وكنـدا. كانـوا جميعًـا عـلى اسـتعداد للذهـابِ إلى لنـدن والولايـات المتحـدة في مهـامٍ صحفيّـة. إنّ القصـصَ التـي تحدّثـوا عنهـا والأفـكارَ التـي تَوَصّـل إليهـا هـؤلاء الصحفيـون الشـباب خـلال فـترةِ إقامتهـم، أوضحـت شـيئًا واحـدًا ألا وهـو أنّ التمييـز والتعصّـب ليسـا مُجـرّد أفـكارٍ غربيـة وفي البيئـة الحاليـة لا يقتـصرُ الأمـرُ عـلى بلـدان الغـرب فقـط.

قانون الاستهتار بالدين في باكستان

شهد نوفمبر 2018 اندلاعَ بعض الاحتجاجاتِ في باكستان على أثرِ تبرئةِ المحكمة العليا لآسيا بيبي، وهي امرأة مسيحية أُدينت بالاستهتارِ بالدين الاسلامي من قِبل محكمة ابتدائية في عام 2010 وصدرَ بحقها حُكمٌ بالإعدام. كانت قد أُدينت بالإساءة إلى دينِ الإسلام ورسوله، وهي تُهمة تمّت تبرئتُها منها فيما بعد لعدمِ وجودِ الأدلة الكافية لإدانتها، إذ إنه من المعروفِ أنّ تُهمة الكفرِ في باكستان تُعاقبُ بالإعدام. قانون الاستهتار بالدين في باكستان هو أشبه بأثر باقٍ من الحقبة البريطانية عندما كان الحكام المُستعمرون يستخدمونه كأداةٍ مِن أجلِ فضِّ النزاعاتِ الداخلية في المجتمعِ وخصوصًا في المنطقة المعروفة بالاتحاد البنغالي في مطلعِ القرن التاسع عشر. لاحقًا في الثمانينيات من القرنِ العشرين، قائدُ باكستان العسكري آنذاك، الجنرال ضياء الحق، أضافَ بعضَ الموادِ لهذا القانون كالحدودِ الشرعية، والتي وسّعت تعريف الجرائمِ التي تُعتبرُ جرائم استهتار بالدين.

أما فيما يَخُصُ تبرئة آسيا بيبي قيلَ إنه "اذا لم تسحب المحكمة قرارها، سيتمُ إيقافُ باكستان. أعدك بذلك". هذا ما قاله مُتظاهرٌ مُتحمّسٌ في دي ـ تشوك، وهي ساحة كبيرة تربط بين جادة كونستيتوشن الرئيسية في العاصمة الباكستانية وباقي إسلام آباد. لقد تمّ إغلاقُ المنطقة عند التقاطعاتِ الرئيسية من قِبل طائفة الباريلفي السُنّية وهي واحدة من الطائفتين الرئيسيّتين للإسلام السنة في باكستان. بالرغمِ مِن أنّه كان هناك بعض الاتهامات لهذه الطائفة بأنّها كافرة، وخصوصًا من قِبَل نظيرتها طائفة ديوباندي السُنّية، فإن جميعَ هذه الطوائفِ الآن، بما فيها الشيعة، قد وجدوا عاملاً مشتركًا فيما بينهم فيما يخُصُّ قضية آسيا بيبي.

بعد فترةٍ وجيزة من إدانة بيبي في عام 2010، أحد أهم السياسيين في باكستان، سلمان تاسير والذي كان مُحافظاً لأكبر مُحافظة في باكستان، قام بالدفاعِ عن آسيا. دعمه الصاخب لآسيا جعله مُستهدفًا، وتم إطلاق النار عليه في وضحِ النهارِ في إسلام آباد مِن قِبل حارسه الشخصي، ممتاز قدري، والذي قال إنه قام بذلك مِن أجلِ الحفاظ على قُدسيّة رسولِ الإسلام مُحمّد. تم إعدام قدري في عام 2016 بعد أن أدانته المحكمة بتُهمةِ القتلِ.

علي مصطفى مع أطفال أيتام في سـوريا

في إسلام آباد في أواخر عام 2018، حملَ مُتظاهرون لافتاتٍ تحملُ صورَ قدري كُتب عليها عبارة «غازي». «لقد كان قِدّيسًا وحامياً للإسلام وسنظلُّ نُحارب لذكراه»، هذا ما قاله فاروق أحمد ذو التسعة والعشرين ربيعًا. كان قد سافرَ مِن باهاوالبور، وهي بلدة تضجُّ بالحركة تبعُدُ تسعَ ساعاتٍ عن جنوبِ العاصمة، مِن أجلِ أن يُشاركَ في المظاهراتِ ضد تبرئة بيبي. حيثُ قالَ «منحنا قدري سببًا كي لا نتخلّى عن المحاربةِ ضد القوى المُعادية للإسلام في البلاد».

من نواحٍ عديدة، أدى الجدلُ الدائرُ حولَ مكافحةِ الكفرِ في باكستان إلى تحريضِ فئةٍ من المُهمّشين في البلاد ضد فئة أخرى مِن المُهمّشين. هؤلاء الذين يُؤيدون الإجراءات ضد الاستهتار بالدين، مثل أحمد، يأتون مِن أكثرِ المجتمعاتِ المحرومة في باكستان. إنه المكان الذي يسودُ فيه المنبرُ الديني، وغالبًا ما يستخدمُ رجالُ النخبةِ المالكون للأراضي رجال الدين للسيطرةِ على هذه الفئاتِ المحرومة.

الإقطاعية في باكستان

"ملاك الأراضي هم المستفيدون من النظامِ الفاسدِ الذي يستغلُّ الفقراءَ ويُقوّي الأغنياء"هذا ما قاله شوكت قدير وهو قائدُ لواءٍ سابق مع القواتِ المسلحة الباكستانية اعتادَ أن يُعلّقَ على القضايا الاجتماعية في باكستان. «بناءً على ذلك، إنّ رغبتهم للتخلصِ من هذا النظامِ محدودة للغاية، ومُعتقداتهم البدائية، مثل قمعِ المرأة، لا تزالُ موجودة". هذا بالإضافة لكونِ الجيش الباكستاني مُتجذّرٌ أيضًا في هذا النظامِ الإقطاعي، وهو ما يضمنُ استمراريّته".

حاليًا، 65 بالمئة من عدد سكان باكستان الـ 200 مليون هم تحت عمرِ الثلاثين. حوالي 50 بالمئة من السكانِ يعيشون في بلدة فيها على الأقل 5 آلاف شخص، وهي زيادة 30 بالمئة عن الأعداد في العقدِ الماضي. إلا أنّ الشبابَ المُتحضّرُ بدأ في تحدّي الوضعِ الراهنِ من خلالِ المُطالبةِ بمزيدٍ من الحقوق. "المنصب السياسي موروثٌ في باكستان"، أوضحَ الكاتبُ السياسي والمؤلف منصور إجاز. "يهيمن مُلاكُ الأراضي الإقطاعية على المجالسِ المحلية والوطنية". حيثُ يتألّفُ ما لا يقلُّ عن خمسةٍ وسبعين في المائة من المُشرّعين في الحكومة الباكستانية من مُلاكِ الأراضي.

النظامُ الإقطاعي لا يقتصرُ على الساحةِ السياسية فحسب، بل تربطُ ملكيةُ الأراضي بين الأمراءِ الإقطاعيينَ وشبكاتِ المحسوبية الأخرى في باكستان. المُلاك، مثل وزيرِ الخارجية الباكستاني الحالي، شاه محمود قريشي، يتصرفُون وكأنهم قادة دينيون لآلاف من أتباعهم الفلاحين، الذين يصوّتون بإخلاصٍ لصالحِ سيّدِهم الإقطاعي في وقتِ الانتخابات. وقال إجاز: «الشخصيات الدينية المحلية ومُلاك العقارات الاقطاعيون يُكمّلون سلطة بعضهم البعض ويُساعدون على زيادةِ انتشارِ الإقطاع».

يستخدمُ مالك الأرض هذا التأثير المحليّ لتعزيزِ طموحاته السياسية من خلالِ تعزيزِ نظامٍ تُهيمنُ عليه القوّة الإقطاعيّة. وبهذا المعنى، يُمثل مسؤولو الشرطة الريفية والبيروقراطيون المحليون والزعماء الدينيون مصالحَ الأميرِ الإقطاعي. كما يُساهمُ الجيشُ في الإقطاعِ ويستفيدُ منه ولو كان دونَ وعي. أخبرني قدير في تقريرٍ نشرته قناة الجزيرة الإنجليزية عن أحدِ المزايا التي يحصلُ عليها ضباط الجيشِ مقابلَ خدماتهم. حيث يستغلُ الجيشُ النظامَ الإقطاعي للحصولِ على الموارِدِ التي يحتاجُها، وبالتالي "يتم تعزيزُ النظام الإقطاعي بشكلٍ غيرَ مباشر".

حركة السترات الصفراء

إنّ حربَ باكستان ضد الإقطاع هي دراسة حالة عن التحوّلِ السكاني السريع من المناطقِ الريفية إلى المناطقِ الحضرية في جميعِ أنحاء العالم. هذا الاختلالُ الذي يُمثله هذا التحول باتَ محسوسًا في فرنسا في نوفمبر 2018، عندما خرجَ عشرات الآلاف من الناس، مُعظمُهم من المناطقِ المحرومة، إلى الشوارعِ مُرتدين سترات صفراء، للاحتجاجِ على رسومِ الوقود التي تفرِضُها الحكومة وارتفاعِ تكلفة المعيشة.

يُمثلُ "المشاغبون" الفئة الأكثرَ تهميشًا في المجتمع الفرنسي، وقد وجّهوا غضبهم في وجه ما قالوا إنه نظامٌ غيرَ مُتكافئ تم تزويره لصالحِ الأغنياء، ويحميه سياسيون مثل الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون. كما قالت مارلين، امرأةٌ في الثلاثينيات من عمرها، وهي

ترتـدي سـترة صفـراء أمـام قـوسِ النـصر في باريـس: "إيمانويـل ماكـرون هـو عميـلٌ خائـنٌ قـد بـاعَ الفقـراءَ لصالـحِ الأغنيـاء». القـوس الـذي يُعتـبَرُ رمـزًا للجمهـور، تعـرّضَ للتخريـبِ في الليلـةِ السـابقة، حيـث قـام مُثـيرو الشـغب برسـمِ الألفـاظ النابيـة عليـه احتجاجًـا عـلى "المغتصبيـن والنمـل الأبيـض".

تـم توجيـهُ الكثـير مـن الغضـبِ نحـو ماكـرون ـ "الشـيف" ـ والـذي يقـولُ المُحتجـون أنـه منفصـلٌ عـن واقـعِ ملايـين المواطنـين الفرنسـيين الذيـن يقعـون في شـقوقِ نظـامٍ غـير قابـلٍ للاسـتمرارِ اقتصاديًـا. وقـال سـيدني إيـر، وهـو فنـيّ فيديـو مـن مدينـةِ ليـون الفرنسـية، يعيـشُ الآن في باريـس: "السـكن في باريـس مُكلِـفٌ حقًـا. حتـى الطعـام كذلـك. كان عـليّ أن أجـدَ حـلاً، لأنّـه ليـس هنـاك ارتفـاعٌ في معـاشي". ومـع نفـاد الخيـارات بسرعـة، اضطُـرّ إيـر أن يسـكنَ في مسـتودعٍ مهجـور. «أنـا أعيـشُ في هـذا المـكان مـع خمسـة عـشر شـخصا آخـر»، ثـم قـدّم لي إيـر جولـة في المسـتودع، في إحـدى ضواحـي باريـس، حيـث يعيـشُ هـو وزمـلاؤه الخمسـة عـشر.

تحـت الضغـط، أعلـنَ ماكـرون عـن سلسـلةٍ مـن التنـازلات، بمـا في ذلـك تقديـم 100 يـورو إضافيـة (112 دولارًا) لأولئـكَ الذيـن يحصلـون عـلى الحـد الأدنى للأجـور البالـغ 1499 يـوروا (1690 دولارًا) دون أيّ تكلفـة إضافيـة لأصحـابِ العمـل. تـم إلغـاءُ الضرائـبِ المفروضـة عـلى الوقـود، وتـم إلغـاءُ الرسـومِ الإضافيـة عـلى المعاشـاتِ التقاعديّـة التـي هـي أقـلّ مِـن 2000 يـورو، أي (2255 دولارًا). وقـال الرئيـس الفرنـسي "إنّ شـكاوى حركـةِ السـتراتِ الصفـراء عميقـة ومشروعـة في الغالـب .لكـن المُفاوضـات هـي الطريـق إلى الأمـام وليـس العنـف".

بينـما كانـت الحكومـة تأمـلُ في أن تُخفّـف هـذه الامتيـازات التوتـر في الشـارع، فإنـه في باريـس، ظـلّ النـاسُ منقسـمين حـولَ مـا يسـتطيعُ أن يحقّقـه هـؤلاء بالفعـل. قـال إير"كانـت التنـازلاتُ مثـل مزحـةٍ كبـيرة، هـذه مجـرد سـتارٍ دخـاني. أنـت لـن تخدعنـا بهـا".

في غيـابِ قيـادةٍ جوهريـة، حاولـت بعـض المجموعـاتِ المُتباينـة أن تسـيطرَ عـلى حركـةِ السـتراتِ الصفـراء. حيـثُ حـاول اليسـاريّون الراديكاليّـون، مثـل أليكسـيس كوبيـر وتـيري بـول فاليـت، وهـم أتبـاع الزعيـمِ المخـضرمِ جـان لـوك أنطـوان بيـر ميلنشـون، الدفـاع عـن قضيـة السـترات الصفـراء. لكـن يوجـدُ في أسـفلِ الهـرمِ مجموعـات مثـل الجبهـة الوطنيـة اليمينيـة المُتطرفـة بقيـادة ماريـن لوبـان الذيـن يحاولـون كذلـك الاسـتيلاء عـلى الحركـة.

وقـال جـان مسـيحة، كبـيرُ المستشـارين السياسـيين لماريـن لوبـان: "ثمانـون في المائـة مـن الفرنسـيين يدعمـون السـتراتِ الصفـراء". وأضـافَ مسـيحة أنّـه بالنظـرِ إلى العـددِ الكبـيرِ مـن الفرنسـيين الذيـن أيّـدوا الحركـة مـن أجـلِ المزيـدِ مـن الحقـوقِ الاقتصاديـة، كان مـن المتوقـعِ أن يدعـمَ أعضـاءُ الجبهـةِ الوطنيـة الحركـة. لكـن هـذا لا يهـمّ إذا كان اليمـينُ المتطـرفِ يخـترقُ الاحتجاجـات. يقـول "السـؤالُ هـو، مـا الـذي سـتفعله الحكومـة حيـال ذلـك".

سوريون في ألمانيا

لقـد تفاقـمَ عجـزُ الحكومـاتِ الأوروبيـة عـن مُعالجـةِ المصاعـبِ الاقتصاديّـة التـي يواجِهُهـا الملايـين في السـنواتِ الأخـيرة مـع وصـولِ مـا يُقـاربُ مليـون لاجـئ إلى القـارة فـروًا مـن النزاعـاتِ في الـشرقِ الأوسـطِ وشـمالِ إفريقيـا. كانـت ألمانيـا الشرقيّـة مِـن أكـثرِ المناطـقِ تـضرُّراً مـن تدفّـقِ اللاجئـين، حيـث قامـت الحكومـة الألمانيـة بإعـادةِ توطـينِ عـشراتِ الآلافِ مـن السـوريين.

في عـام 2016، قـامَ حشـدٌ مِمَّـن اشـتُبِهَ بأنّهـم النازيّـون الجـدد بمُهاجمـةِ لاجئـين مراهقـين مـن سـوريا في بلـدةِ بوتسـن الألمانيـة. أُصيـبَ 20 لاجئًـا تـتراوحُ أعمارُهـم بـين 14 و 18 عامًـا. أُصيـبَ بعضُهـم بصدمـة لدرجـة أنّـه أصبـحَ يتعـيّنُ نقلهـم مـن بوتسـن. "بعـض السـكانِ المحليـين لا يريدوننـا هنا.عندمـا بـدأ النازيـون في ضربنـا، وقفـت الشرطـة صامتـة ولم تفعـل شـيئًا" قـال لاجـئٌ سـوري يُدعـى أحمـد. كان قـد شـاهدَ الـضربَ بشـكلٍ مبـاشر وكان يخـشى الكشـفَ عـن هويتـه الكاملـة. قـالَ إن بعـضَ السـكانِ المحليـين لا يريـدون اللاجئـين في بلدتهـم وهـم يدعمـون أقـصى اليمـين في موقفـه المناهـضِ للاجئـين.

في نفـسِ العـام، قـاد إرنسـت بـاور، زعيـمُ الحـزب الوطنـي الديمقراطـي، مظاهـرة مُناهضـة للهجـرةِ في بوتسـن. الحـزب الوطنـي الديمقراطـي هـو مجموعـة سياسـية قوميـة متطرفـة، يقـول البعـض إنهـا متعاطفـة مـع مـاضي ألمانيـا النـازي. حيـث كان بـاور ضـد إعـادة توطـين اللاجئـين ويتظاهـرُ في جميـعِ أنحـاء ألمانيـا بشـأنِ سياسـة الحكومـة المفتوحـة وقـد شـاركَ 500 شـخصٍ في الاحتجاجـات معـه. هتـفَ بعضهـم «اللاجئـون إرهابيـون». قـال بـاور: «نريدهـم أن يخرجـوا». »هنـاك مجرمـون مـن بينهـم يريـدون تنفيـذَ هجـماتٍ إرهابيـة في ألمانيـا، مثلهـا

مثـل الهجـمات في باريـس وبلجيـكا، والتـي أودت بحيـاةِ الكثـيرِ مـن النـاس».

كان التدفـقُ الكبـيرُ للاجئـين يضغـطُ عـلى المجتمعـاتِ المحليـة، ولا سـيما أثنـاء الرّكـودِ الاقتصـادي في معظـمِ الاقتصـادات الأوروبيـة. ردًا عـلى ذلـك، نظّمـت جماعـاتِ اليمـين المُتطـرف مظاهـراتٍ في جميـعِ أنحـاءِ الـشرق، وحتـى في بعـضِ المـدنِ في غـربِ ألمانيـا. كانـت بوتسـن في مركـزِ التوتـرِ المتزايـدِ بـين السـكانِ المحليـين والألفـي لاجـئ الذيـن اسـتقرّوا هنـاك في العامـين السـابقين. ألكسـاندر أهيرنـز، وهـو عمـدة بوتسـن، الـذي سـاعدَ في إعـادةِ توطـين العديـدِ مـن اللاجئـين، أيّـدَ سياسـة أنجيـلا مـيركل المفتوحـة. لكـن أهيرنـز وجـد نفسـه ضمـن الأقليـة في الدفـاعِ عـن مبـادرة إعـادة توطـين اللاجئـين، وقـال إنّ بعـض اللاجئـين الشـباب جعلـوا مـن الصعـبِ بيـع الفكـرةِ إلى السـكان المحليـين في بوتسـن.

وأضـافَ أهيرنـز: «كان اللاجئـون يُزعجـون السـكان المحليـين، ويتحرّشـون بهـم بالقـربِ مـن وسـط المدينـة». «لقـد أعطـى هـذا فرصـةً لليمـينِ المتطـرّف للتدخـل». قـال لي وهـو جالـس في مكتـبِ العمـدة المُشـمس في أكتوبـر 2016، في مبنـىً تـراثي في وسـطِ مدينـة بوتسـن، «في ألمانيـا الشرقيـة، كثـيراً مـا نجـدُ مـا أسـميه نوعـاً مِـن العنصريـة السـاذجة; حيـث يشـعرُ اليمـين أنهـم يفعلـون مـا تريـده الأغلبيـة».

تزامنـت زيـارتي إلى بوتسـن في تلـك السـنة مـع الذكـرى السـنوية السادسـة والعشريـن لإعـادةِ توحيـدِ ألمانيـا الشرقيـة والغربيـة. كان ردّ الفعـلِ العنيـف ضـد اللاجئـين هـو الأشـدّ في مـدنٍ مثـل بوتسـن ودريسـدن، التـي كانـت في السـابق جـزءًا مـن جمهوريـة ألمانيـا الديمقراطيـة التـي يدعمُهـا الاتحـاد السـوفيتي. حيـث قـال أهيرنـز: «يشـعر الألمـان الشرقيـون أنـه تـم التخـلّي عنهـم اجتماعيًـا واقتصاديًـا». وقـال إنّ أزمـة اللاجئـين تزامنـت مـع شـعورٍ عميـق بالاسـتياءِ مـن مـشروعِ إعـادة التوحيـد. "يتسـاءل بعـضُ الألمـان الشرقيـين عـن أسـلوبِ الحكومـة في السـماحِ لمئـاتِ الآلاف مـن اللاجئـين بالاسـتقرار في البـلاد في حـين أنّـه لم يتـم بعـد دمجهـم بالكامـل".

قـال بـاور "لقـد خانتنـا أنجيـلا ميـركل" واتهـمَ المستشـارة ببيـعِ الأكاذيـبِ والأوهـام للنـاس. «إذا تمّـت إعـادة توطـين اللاجئـين ودمجهـم بشـكلٍ صحيـح وبموجـبِ القوانـين المعمـولِ بهـا، فربمـا نكـون مُتقبّلـين للأمـر، لكـن هـذا ليـسَ مـا يحـدث. لقـد تـمّ فـرضُ اللاجئـين عـلى الألمـان، و هـذا غـيرُ مقبـول».

الصراع الفلسطيني الإسرائيلي

في حـينِ أنّ اللاجئـين السـوريين يكافحـون مـن أجـلِ الحصـولِ عـلى القبـولِ في ألمانيـا، كان الفلسـطينيون يخوضـون معركـة مختلفـة لكسـبِ حقـوقِ العيـش في ظـلّ مـا أطلـقَ عليـه الرئيـس الأمريـكي السـابق جيمـي كارتـر «الفصـل العنـصري الإسرائيـلي». تحتـلّ إسرائيـل الأراضي الأردنيـة، التـي يزعـمُ الفلسـطينيون أنهـا ملـكٌ لهـم، منـذُ عـامِ 1976حيـث يعيـشُ حـوالي ثلاثـة ملايـين فلسـطيني في هـذه الأرضِ تحـت الاحتـلالِ الإسرائيـلي. في حـينِ يقـولُ الكثـيرون إنهـم يقاتلـون مـن أجـلِ فلسـطين مسـتقلّة، هنـاك آخـرون يقولـون إنهـم يريـدون حقوقًـا متسـاوية كمواطنـين إسرائيليـين; وهـو مطلـبٌ يقـولُ المتشـدّدون اليهـود الإسرائيليـون، بمـن فيهـم رئيـس الـوزراء بنيامـين نتنياهـو، إنـه غـيرُ واقعـي.

وقـال يشـاي فليـشر، المُتحـدّثُ باسـمِ المسـتوطنين اليهـود في الخليـل، وهـي بلـدةٌ مُتنـازَعٌ عليهـا في الضفـةِ الغربيّـة التـي تحتلّهـا إسرائيـل «هـؤلاء الإسرائيليـون الذيـن يتمسّـكون بأيديولوجيـاتٍ يساريـة، كحـلّ الدولتـين. هـم مستسـلمون، والـذي هـو نـوعٌ مـن أنـواعِ الضعـف، سـيؤدي إلى طردهـم». فليـشر، الـذي يُعـارضُ دمـجَ الفلسـطينيين في النسـيجِ الاجتماعـي والسـياسي لإسرائيـل، هـو واحـدٌ مـن بـين 15000 شـخص يعيشـون في مسـتوطنةِ إفـرات. كثـيرون، مثـل عائلـة يشـاي، جـاؤوا مـن الاتحـادِ السـوفيتي السـابق. «نحـن نبنـي، لدينـا أطفـال. لدينـا الكثـير مـن الأمـل. في أذهاننـا، هـذا هـو أعظـمُ وقـتٍ في التاريـخ اليهـودي»، هـذا مـا قالـه فليـشر في أواخـرِ عـام 2018.

كان الرئيـسُ الأمريـكي دونالـد ترامـب قـد نقـلَ السـفارة في إسرائيـل مـن تـل أبيـب إلى القـدسِ قبـل شـهرين، في خطـوة بالنسـبة لمؤيـدي ترامـب في إسرائيـل، بمـا في ذلـك فليـشر، تعنـي أنّ الولايـات المتحـدة اعترفـت فعليًـا بمدينـةِ القـدس المُتنـازَعِ عليهـا باعتبارهـا «عاصمـة أبديـة لإسرائيـل». لكـن الخطـوة الأمريكيـة لنقـلِ السـفارة أثـارت انتقـاداتٍ دوليـة، خاصـة مـن الـدولِ الأعضـاء في الأمـم المتحـدة، التـي وصفتهـا بأنهـا إهانـة لمحادثـاتِ السـلامِ التـي تقودُهـا الولايـات المتحـدة.

أخبرني صائب عريقات في رام الله «أنّ ذلك يوضّحُ نفاقَ الموقفِ الأمريكي من عمليةِ السلام». وقال عريقات، الذي كانَ كبير المفاوضين الفلسطينيين في محادثاتِ السلامِ مع إسرائيل: «تزعم الولايات المتحدة أنها حَكَمٌ محايدٌ للنزاع، لكنّ خطوةَ السفارة تثبتُ أنها تقفُ وراءَ الاحتلالِ الإسرائيلي». لقد فقدت السلطة الفلسطينية كلّ الأسُسِ الأخلاقية فيما يتعلقُ بتمثيلِ القضيةِ الفلسطينية»، هذا ما قالته ديانا بوتو، الناشطة الحقوقية الكندية الفلسطينية التي تفاوضت جنبًا إلى جنبٍ مع عريقات مع الإسرائيليين بعد اتفاقات أوسلو للسلام عام 1993. وأضافت بوتو: «لقد فقدَ [الرئيس الفلسطيني] محمود عباس ارتباطَه مع أرضِ الواقع»، وألقى باللومِ على قائدِه الذي بلغَ عقده الثامن لتصرّفه وكأنه جهة مُنفذة لإسرائيل فيما يتعلّقُ بالأراضي المُحتلّة. وقالت بوتو: «لقد حانَ الوقتُ للقادةِ الجدد، بداية جديدة لإعادةِ ضبطِ الكفاحِ الفلسطيني وإعادةِ بنائه على أرضِ الواقع لملايينِ الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال; حيث ولدت الغالبية العظمى منهم بعد توقيعِ اتفاقاتِ أوسلو للسلام».

خمسة وخمسون في المئة من السُكانِ الفلسطينيين الذين يعيشونَ في المناطقِ المُحتلّة وقطاعِ غزة الذي انسحبت منه إسرائيل في عامِ 2005، لكنها لا تزالُ مستمرة في حصاره أرضًا وبحرًا، إلى جانبِ حصار مصر هم دونَ سنّ الرابعة والعشرين. وأضافت بوتو «الشعب الفلسطيني يريد مُستقبلًا خالياً من الاحتلالِ الإسرائيلي وآثارِ الماضي مثل محمود عباس».

قد تبدو العلاقة بين المُهمشين ومن هم في السلطة واضحة، كما هو الحال بالنسبة لأولئك الذين ليس لديهم حقوق، مثل الفلسطينيين الذين يقفونَ أمامَ النخبِ من الداخلِ والخارج، لنقلِ مطالبهم من الأطرافِ الخارجية إلى مركزِ النزاع. لكن غالبًا ما تكونُ هذه الخطوط غير واضحة، خاصةً عندما يتعلقُ الأمرُ بالوسائلِ التي يتم تقديم هذه المطالب عبرها. الصحفيون هم من بينِ العديدِ من الوسائلِ التي يمكنُ من خلالها للمهمشينَ أن يطالبوا الأقوياءَ بحقوقهم، ومع ذلك، أثناء أداءِ هذا الدور، غالبًا ما يصبحُ المراسلُ هدفًا للقمع.

استهداف الصحفيين في باكستان

في باكستان، قُتلَ أكثرُ من أربعين صحفيًا أثناء أدائهم لمهامهم منذ عامِ 2011. وقد

قُتِلَ معظمُ هؤلاءِ المُراسلين أثناء أو بعدِ الإبلاغِ عن قصصٍ تنتقدُ المؤسسة الحكومية أو النخبة، مثل الهجومِ الإرهابي على منشأةٍ عسكرية في أكبرِ مدنِ باكستان في مايو 2011. كان لتغطية تلك القصة عواقب وخيمة على واحدٍ من أفضلِ المراسلين الأمنيين في باكستان، سيد سليم شهزاد.

كان شهزاد رائدًا من نوعه عندما يتعلقُ الأمرُ بتغطيةِ القضايا الأمنية في منطقة تُسمّى «آف باك» [اختصار لأفغانستان وباكستان]، وتخصّصَ في تغطيةِ القاعدة في جنوب آسيا. وقد صادفَ تفاصيلَ تجريمِ المطلعين داخل الجيش الباكستاني أثناء تغطيته لهجومِ PNS مهران في عامِ 2011، وكشف كيفَ تم التخطيط للهجومِ من قِبل أفراد البحرية الباكستانية تعاطفاً مع تنظيم القاعدة الإرهابي. بعد يومين من نشرِ القصة، فُقدَ شهزاد خارجَ منزلِه في إسلام أباد ثم اكتشفت جثّته في ممرٍ مائي على بُعدِ مئاتِ الأميالِ إلى الجنوب.

في يومِ اختطافه، كان شهزاد سيظهرُ على شبكةٍ تليفزيونية محليّة للحديثِ عن النتائجِ التي توصّل إليها والتي تزعمُ وجودَ صلاتٍ بين عسكريين من الجيش وتنظيمِ القاعدة في التخطيطِ للهجومِ في كراتشي ودعمه. قبل أيامٍ من اختفائه، دخلَ شهزاد إلى مكاتبِ هيومن رايتس ووتش في إسلام أباد وأخبرَ مديره أنّ أجهزة المخابراتِ الباكستانية كانت تقتفي آثاره. وقالَ إنّ الاتصالاتِ مع أجهزة المخابرات كانت تتصلُ به بلا هوادة منذ صدورِ تقريره.

وجاءت وفاة شهزاد عقب مقتلِ العشرات من المُراسلين الباكستانيين الذين كانوا يُغطّون ما يُسمّيه الأمريكيون «الحرب على الإرهاب». إنّ الصدمة المُرتبطة بالصحافةِ في أماكن مثل باكستان، يشعرُ بها الصحفيون بعد فترةٍ طويلة من تلاشي القصة. هذه هي الحقائقُ المؤسفة للحياة في الصحافة، حيث يمكنُ أن يُؤثر الإجهاد اللاحق للصدمة على الحياة الشخصية لرواة القصصِ أنفسهم.

الثمن العاطفي للمراسلين

أتحدّثُ من خلالِ تجربتي الشخصية عن «فقد السيطرة» على أكثرِ الأمورِ الدنيوية، كلّ يومٍ بعد الأحداثِ المذكورة في هذا الفصل، مثل احتجاجات السترات صفراء. كانت

قذائفُ الغازِ المُسيلِ للدموع تطيرُ بسرعة مثل الرّصاص المطاطيّ، والصخورِ التي ألقاها المحتجّون وكادت أن تُصيبَ رأسي عدة مرات. حاولتُ الثبات، لكن مع الوقت وبعد المسافة، بدأت تطفو المشاعر المكبوتة المرتبطة بتلك الأحداث، أحيانًا دون سابقِ إنذار. قد يكونُ التعايشُ مع هذه المشاعرِ بمثابة صحوة وقِحة للصحفيين الذين غالبًا ما يضطرّون إلى قمعِ العواطفِ في محاولةٍ لنقلِ القصصِ التي يغطونها.

يمكن أن يكونَ التوازنُ هنا مجرّد وهمٍ عندما يتعلّقُ الأمرُ بالحالةِ العاطفية للصحفيّ، فكيفَ يمكنُ التوفيقُ بين قصةِ ماجدة البالغة من العمرِ سبع سنوات ـ التي فقدت ساقيها في قصف النظام السوري ـ مع الجغرافيا السياسية في سوريا؛ مع إيران وروسيا والتي تدعم القوى التي كانت مسؤولة عن الخسارة الفظيعة لهذه الفتاة باسمِ خوضِ الحربِ على الإرهاب؟

كيف يتصالحُ الصحفيّ مع كونِه شاهدًا وناقلًا لأحداثِ المُعاناة الكبيرة والمأساة والخسارة؛ مع حقيقةِ كونك إنسانًا له عواطف كأب أو أم أو زوجة أو زوج، دون أن ينفصل عن المشاعرِ المُرتبطة بكلّ الأدوارِ الشخصية والمهنية؟ هذه هي التكلفة الإنسانية ذاتها للذين يروون قصصَ المُهمّشين، مع تحمّلِ مسؤولية عدمِ تهميش أنفسهم في هذه العملية. هذا الصراعُ حقيقي.

بعد أربعةِ عقودٍ من تدريسِ الصحافة وتوجيه الصحفيين، توفي ديفيد كلاتيل في عام 2016 عن عمرٍ يُناهزُ الستين. لو كان على قيدِ الحياة اليوم، كان سيحثّ طلابه بقوة على سردِ قصصِ المظلومين والمُهمّشين، للتركيزِ على الرواياتِ الشخصية من أجلِ المقاومة ضد التمييز.

كما كان سيطلبُ كلاتيل من طلابه إبرازَ شعورِ الإنسانية المُشتَرَكة التي تجعلُ اليهودَ الأميركيين يقفون إلى جانبِ المسلمين الأمريكيين لأسبابٍ مشتركة. وهذا ما يجعلُ الباكستانيين مثل سلمان تيسير ـ مِن الأغلبية المهيمنة ـ يقفون إلى جانبِ الفئة الأكثرِ تهميشًا، مثل آسيا بيبي، على الرغمِ من التهديداتِ على حياتهم. كان يجادلُ بأنه إذا نُشرت هذه القصص، فإنها ستتجاوزُ أي وسيطٍ لتُصبحَ نوعًا من التنفيسِ الجماعي؛ تجربة يمكن أن تؤدي إلى استجابةٍ جماعية ضد الكراهية والتمييز.

تقارير اللاجئين والمهاجرين

رؤية من خط المواجهة

بقلم ميريام فرانسوا

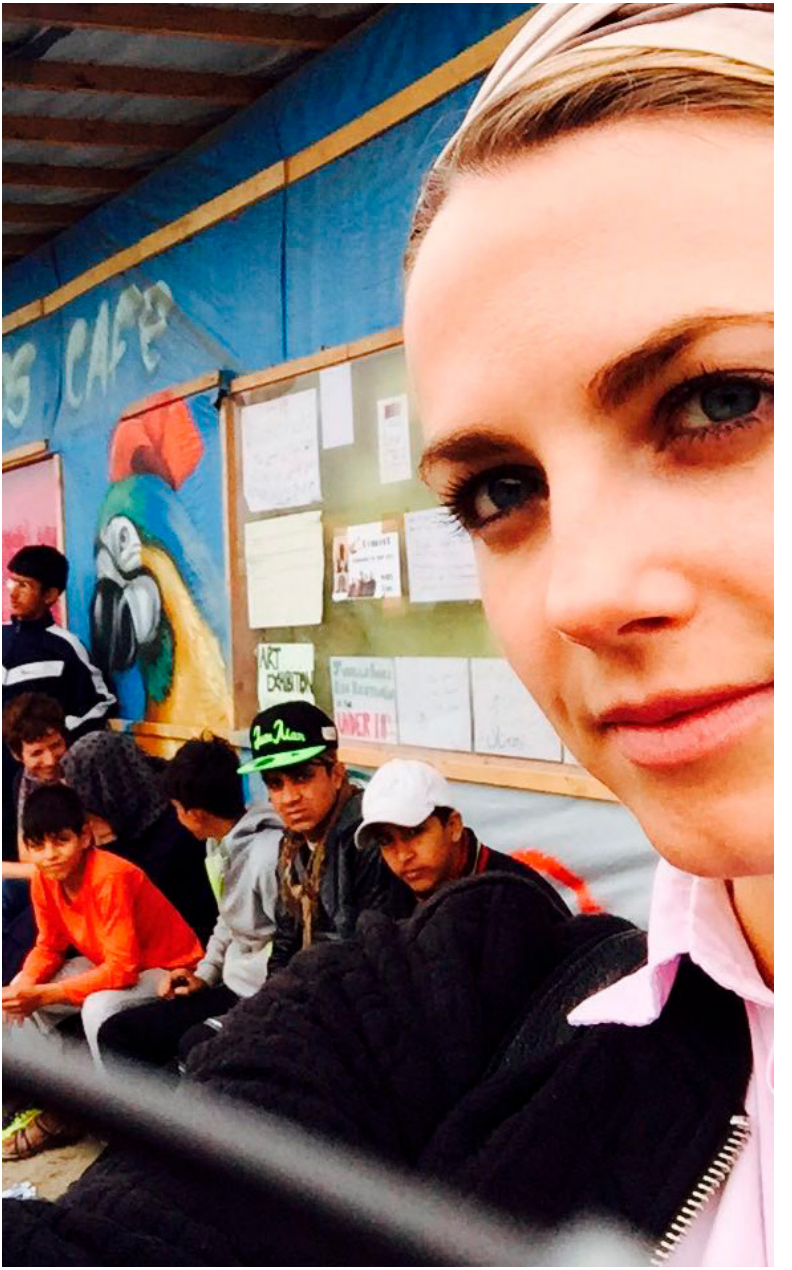

ميريـام مع بعض الأطفـال اللاجئين في "أدغال كاليه" (قبل الهدم)

لسنوات، وكمراسلة تي آر تي العالمية لأوروبا، كان لي شرفٌ كبير في تغطيةِ ما توصفُ عادة بأنّها «أزمة المهاجرين في أوروبا» أو «أدغال كاليه» حيثُ استقرّ الكثيرون الذين كانوا يأملون في الوصولِ إلى المملكة المتحدة. يشكّلُ الرأي العام بطبيعةِ الحال البيئة التي يتمّ فيها تلقي القصة؛ كما يؤثرُ مناخُ الخوفِ والقلقِ والعداء تجاه المهاجرين واللاجئين على نطاقٍ أوسع على نوعِ ونبرةِ القصص التي يتمّ بثها في أوروبا. بالنسبة للكثيرين منا الذين تحدّثوا عن الأزمة، كان التحدي هو مقاومة سحب الأطراف المُستقطَبة ومحاولة تقديم حقيقة ما نشهده.

إنّ نُسختي أدغال كاليه تعرِضا الانقسام الحقيقي داخل أوروبا حول كيفيّة التعامُلِ مع أولئكَ الذين تم تهريبهم إلى الشواطئ الأوروبية. كان البعض ينظر إلى كاليه على أنها مغناطيس للمهاجرين الاقتصاديين الذين يسعون لتجاوزِ أنظمة الهجرة الأوروبية واستغلالِ أطرِ حقوق الإنسان الخاصة بهم من أجلِ الدخول إلى بلدانٍ مُحدّدة. وغالبًا ما جاءَ هذا المنظور بافتراضِ أنّ المهاجرين كانوا يسعون إلى استغلالِ نظامِ الرعاية "السخي" في أوروبا. في هذه الرواية، غالبًا ما يُنظرُ إليهم على أنّهم "سربٌ" غيرُ مُتمايز، وهو مصطلحٌ استخدمَه رئيسُ وزراءِ المملكة المتحدة ديفيد كاميرون في خطابٍ ألقاهُ عام 2015.

وقد تردّد صدى اللغة اللاإنسانية المُتمثلة في مُكافحةِ الآفاتِ والهوامِ في بعضِ أوساطِ الصحافة السائدة، حيثُ عزّز كتاب الأعمدة المخاوفَ من «فتحِ أبوابِ جهنّم الهجرة» التي سوف تمحقُ الثقافة الأوروبية وتضعُ الإرهابيين وسط أوروبا. وقد تفاقمت هذه المخاوف بسببِ الحوادثِ التي تُظهِرُ أنّ الإرهابيين كانوا يستغلون الفوضى بشأنِ وصولِ المهاجرين إلى أوروبا؛ وتم دعم تقارير الاعتداءاتِ الجنسية وأعمالِ العُنفِ التي يرتكِبُها بعض اللاجئين كدليلٍ على التّهديد الضمني الذي يُمثله "اللاجئون" ككل.

مِن جانبٍ آخر، كان أولئك الذين لم يتمكنوا من رؤيةِ المهاجرين إلا من خلالِ عدسة اللاجئين. الفرق في المصطلحاتِ مهم، على الأقل بسببِ تداعياتِ ذلك على وضعِ كلّ فرد. في حين أجبر اللاجئون على مغادرةِ بلادهم هربًا من الحربِ أو الاضطهادِ أو الكوارثِ الطبيعية، يتمُّ تعريفُ المهاجرين على أنّهم أولئكَ الذين يسعون لإيجادِ عملٍ أو ظروفٍ معيشيّة أفضل. هذا التمايز ليس بأيّ حالٍ من الأحوال حكمًا قيمًا على مدى جدارة هذا الأخير، ولا للأسبابِ المفهومة وهي أنّ الكثير منهم يسعون للحصولِ على حياةٍ أفضل لهم ولأسرِهم. ومع ذلك، فإنّ للفرقِ آثارًا قانونية، وبالتالي آثارًا على كيفية صياغة المراسلين لتلك القصص.

إنّ كبح العواطف مهمٌ للغاية أثناء التغطيةِ الصحفية، لأنّه مع الاحترام الكامل للقوانين الحالية (سواء كنا صحفيين، نتّفقُ معهم أم لا!) ، لا يتمتّعُ اللاجئون ببساطة بنفسِ الوضعِ القانوني الذي يتمتّعُ به المهاجرون. على هذا النحو، كان علينا في تقاريرنا موازنة قوانين الهجرة في كلّ بلد، وموقفِ الاتحاد الأوروبي من الهجرة أثناء تطوّره، والقصصِ المؤثرة في كثيرٍ من الأحيان عن أولئك الذين قد يُطلقُ عليهم لقب "المهاجرون الاقتصاديون". إنّ عدم التمييز بين لقبِ "لاجئ" و "مهاجر" هو ضربٌ من التعسّفِ والظلم. في تلك الحالات، تظهرُ مسألة التغطية "المحايدة" جليّاً. بدا لي آنذاك، كما هو الحال الآن، أنّ تسليط الضوء على أوجه الظلم الظاهرة في كيفيةِ تطبيقِ القانون كان في كثيرٍ من الأحيان أفضلَ طريقةٍ لحلّ هذه المسألة.

ما جعلَ قصصَ كاليه أكثر تعقيدًا هو مسألة القاصرين غير المصحوبين بذويهم، وهو موضوعٌ قمتُ بتغطيته عدّة مرّات، حيث سلطّتُ الضوءَ على محنةِ أولئكَ الذين تُركوا ليدافعوا عن أنفسهم في ظروفٍ غير آمنة وغير صحية، وغالبًا تحت رحمة المُتاجرين بالبشر. ألقينا الضوء على النضالِ الذي واجهه العديد من المراهقين لإثباتِ تاريخ ميلادهم حيث وصلَ الكثيرون ومعهم القليل من الملابسِ على ظهورهم، وبالتالي لم يتمكّنوا من إثباتِ أعمارهم. كان علينا أيضًا أن ننتبه لحقيقة أنّ العديد من مقدمي الرعاية كانوا ينصحون المهاجرين واللاجئين بعدمِ الإفصاحِ عن سنّهم الحقيقي إذا ما كان فوق السن القانوني، وذلك حتى يتسنّى لهم الحصول على فرصةٍ أفضل للبقاء. من الواضحِ أنّ مثل هذه القضايا الحسّاسة كانت بمنزلة مادة دسمة لوسائلِ الإعلام القومية، لذا فإنّ تحديد كيفية إيصال الحقيقة الكاملة لما حدث كان موضِعَ تركيزٍ حادّ، مع العلمِ بأنّ المعلومات يمكنُ إساءة استخدامها لتحقيقِ مكاسب شعبويّة.

على الرغمِ مِن أنّ المحادثاتِ الوطنية كانت تركّزُ إلى حدٍ كبير على اللاجئين السوريين، فإنّ العديدَ مِمّن قابلناهم في باريس وكاليه كانوا من أفغانستان وباكستان وإريتريا، وغيرها من البلدان. كان من الصعبِ العثورُ على لاجئين سوريين بالنسبة للكثيرين منّا الذين وصلوا أولاً إلى مخيم كاليه، وهذا بالتأكيد انتقصَ من الرواية القائلة إن أولئك الذين يصلون إلى هناك كانوا يفرّون من سوريا التي مزّقتها الحرب. الأقرب إلى الحقيقة أنّ بعض الناس كانوا يفرّون بالفعلِ من الحربِ والاضطهادِ والمجاعة، بينما كان آخرون يبحثون ببساطة عن حياةٍ أفضل. غالبًا ما كنا نسمعُ زورًا عن السخاءِ الأوروبي في التعاملِ مع اللاجئين. أعربَ العديدُ من القُصَّرِ غير المصحوبين من ذويهم الذين تمّت مقابلتهم عندما وصلوا إلى المملكة المتحدة عن أسفِهم للتّناقُضِ الحادّ مع ما كانوا يتوقعون العثور عليه. بالنسبة للكثيرين، بدا النظامُ أكثرَ قسوة، والناس أقلّ ودية، والثروة والفرص لا تزالين بعيدتا المنال. أخبرنا شابٌ أنّه يريدُ بالفعلِ العودة إلى أفغانستان.

إحدى الحالات التي تابعناها عن كثبٍ هي حالة المُتطوّعة، ليز كليج، التي كانت تديرُ مركز النساء والأطفال في مخيم كاليه والذي يُعرَفُ باسمِ «the Pied Piper of the Jungle». بعد نشأتها مع مجتمعِ الغجر في المملكة المتحدة، من الواضحِ أنّ ليز كانت أكثرَ راحة من الآخرين في تأقلمها مع الظروفِ الصعبة والمرافقِ المؤقتة؛ كان المركز نفسه في حافلة مُعدّلة. كان هذا مكاناً آمناً للقُصَّرِ الذين يمكنهم أن يكونوا مجرّد أطفال فيه. في زوايا هذه الحافلة كان القَصّر على سجيّاتهم، في لحظة ضعف يضحكون أو يبكون، أو ببساطة يحتاجون إلى عناق.

تخلّلت العديد من التحديات تغطية قصص القُصَّرِ غير المصحوبين من ذويهم. كانت هناك مخاوف مشروعة تتمثلُ في أن يتم استغلالهم من قِبل وسائل الإعلام أو أن يتمّ استخدامُ قصصهم ضدّهم، إلى تعقيداتِ موافقة الوالدين على التواجُدِ على الشاشة في غياب وصي. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك عقبات حقيقية للغاية تتمثلُ في الصدماتِ النفسية والحواجز الثقافية أمام التواصل إضافة إلى التحدّيات اللغوية، حتى مع وجودِ مُترجم. إلى جانبِ التحديات التقنية، كان السؤالُ عن الهدفِ الذي تخدمه هذه القصص في محاولة لشرحِ ما كان يحدثُ في كاليه نفسها، ولكن أيضًا من حيث الصورة الأوسع لما يُسمّى بأزمة اللاجئين.

بدا حينئذٍ، كما يبدو الآن، أنّ قصصًا أخرى عن الصدمةِ والنضال، عن الحربِ والخسارة، لم تبلغ مسامعَ عامّةِ الناس الذين يساورُهم القلقُ الشديدُ مِن أنّ الهجرة قد تُغيّر مِن هويّتهم الوطنية. والأكثر من ذلك، ربط تلك القصص الفردية بالمواضيع الأوسع مثل حصص الاتحاد الأوروبي لكلّ بلد، وصعودِ اليمين المُتطرّف في أوروبا والنغماتِ الشعبوية الأوسع في الاتجاه السائد، قد طرحَ أسئلة حول مسؤولية كلّ منا، وكيف يمكنُ استخدامُ القصص الفرديّة في تعزيزِ بعضِ هذه الأجندات. أثارت أسئلة حول مسؤوليتنا كصحفيين في نشرِ قصصِ الأشخاصِ المُستضعفين، وخاصةً قصص القُصَّر غير المصحوبين من ذويهم، بطُرُقٍ لا تزيدُ من إثارةِ العداء تجاههم. وهذا، بطبيعةِ الحال، لم يكن تمامًا مُتوقعًا.

بالعودةِ إلى المملكة المتحدة، عملنا أنا وزملائي على قصصِ اللاجئين الذين شقوا طريقهم هنا، إمّا من خلالِ مُخطّطاتٍ حكومية، كتلك التي ابتكرها اللورد دوبس، أو مِن خلالِ وسائلٍ أقلّ «تقليدية». تابعنا قصةَ شابٍ تمّ نقله تحت جناحِ ليز كليغ أثناء وجوده في كاليه، وتمكّن بطريقةٍ ما مِن العثورِ على طريقه إلى منزلها في برمنغهام بعدَ أن قفزَ مِن على ظهرِ شاحنة بمُجرّدِ عبورِه إلى المملكة المتحدة. كانت القصة مُعقّدة للصحفيين الذين حاولوا تغطيتها، بالنسبةِ للكثيرين الذين تمكّنوا أخيرًا من الوصولِ إلى المملكة المتحدة بعد هذه الرحلة المُهمّة، لم يكونوا يريدون إلقاءَ الضوءِ على حياتِهم الجديدة، وعلى صداقاتهم التي تتعرّضُ لهزّات. التفاصيل الصغيرة التي تمّت مشاركتها، مثل حذاءٍ جديد قاموا بشرائه، يمكن تقديمها على أنّها "استغلالٌ" للنظام. كانت الحساسية ضرورية في عرضِ التحديات الشخصية مثل الصعوبات في الدراسة باللغة الانكليزية، أو التعارض مع مقدّمي الرعاية الذين لا يتشاركون دائمًا نفسَ القواعدِ الثقافية مع قضايا مثلَ حظرِ التجوّلِ في الليل أو أدوارِ الجنسين.

سعينا دائمًا إلى سردِ هذه القصص لتعكسَ خطورة وضعهم القانوني؛ يمكنُ إعادة القُصَّر غير المصحوبين من ذويهم، وغالبًا ما يتم إعادتهم بمجرّدِ بلوغهم سنّ الرشد في حالِ تم رفض طلباتِ اللجوء الخاصّة بهم. الضغوط على هؤلاءِ الشباب هائلة، وهم بالأصلِ يعيشون معضلات المراهقين، والنظر إليهم على أنهم مختلفين، وتتمّ مضايقتهم والابتعاد عنهم لكونهم يحملون صفة «لاجئ»، حيثُ يتمّ الاستهزاءُ بهم على نطاقٍ واسع. حاولنا أن ننقلَ، قدر الإمكان، النضال الإنساني الذي دفعهم إلى البحثِ عن حياةٍ جديدة على بُعدِ آلافِ الأميالِ من بيتهم، وحدَهم دون اتصالٍ واضح أو ثابت مع عائلاتهم. كانت مشاهدة المراهقين الكبار ضخمي البنية، ذوي الوجوه الصارمة في العادة، على وشك البكاء لأنهم قالوا لنا إنهم يرغبون فقط في رؤية أمهاتهم، كان بمثابة نافذة على قصصهم التي سعينا لالتقاطها. ولكنه كان أيضًا ممّا لم يرغبوا في مشاركته علناً.

بالنسبة للكثيرين منا، كان التحدّي الآخر هو الهروبُ من زاويةِ قصصِ الحرب والمأساة التي كانت في كثيرٍ من الأحيان نقطة البداية الواضحة في شرحِ قصصِ اللاجئين والمهاجرين. قد يتسبّب هذا في «التعبِ من التعاطف» عند الجمهور لعدة أشهر، إن لم يكن لأسابيع، أثناء التغطية الصحفية لما كان يبدو أنّها قصصٌ مُتشابهة يتمُّ إعادة سردِها بطرُقٍ مُختلفة؛ لكن إلى متى؟ كيف يُمكن أن نستمرّ في تبادلِ التجاربِ المأساوية للأشخاصِ الذين كنا نقابلهم، ولكن مع إيجادِ طرقٍ جديدة لإشراكِ الجمهور الذي يبدو أنه قد أصبح قاسيًا في نظرته للمأساة؟ كانت إحدى الاستراتيجيات التي استخدمتُها هي سرد قصصِ اللاجئين خارج أوروبا، ومحاولة إعادة إدخال نطاق الهجرة وتسليط الضوء على الطرقِ التي غالباً ما كانت تمرُّ عبرَ البلدانِ الأكثر فقراً، في إفريقيا وآسيا، وتتأقلمُ مع تدفقِ أعدادٍ كبيرة من الأشخاصِ المُحتاجين بشدة.

في أواخرِ عام 2017، سافرتُ إلى كينيا لمقابلة اللاجئين الذين كانوا جزءًا من برنامجِ المفوضيّة المُصَمَّم لمساعدةِ الفنانين الذين أصبحوا نازحين. في ذلك الوقت، كانت كينيا موطِنًا للعديدِ من مخيمات اللاجئين، بما في ذلك ثاني أكبرِ مُخيّم للاجئين في العالم. من أجلِ تغييرِ أسلوبِ سردِ قصصِ اللاجئين، قرّرنا تسليط الضوء على مخططٍ ابتكره أحدَ أشهرِ الفنانين في كينيا، المعروفِ باسم أوكتوبيزو.

نشأ أوكتوبيزو وترعرعَ في الأحياءِ الفقيرة في كيبيرا. لذلك فهو يعرفُ جيّدًا أنّ التميزَ يظهرُ في بعضِ الأحيان تحتَ الضغط، وبصفته موسيقياً أرادَ أن يُسلّطَ الضوء على المواهبِ التي تعيشُ في مخيماتِ اللاجئين في كينيا. وبمساعدة من مفوّضية الأمم المتحدة لشؤونِ اللاجئين، قامَ بإنشاءِ

«اللاجئون لديهم موهبة»، وهي مسابقة المواهب يتم إجراؤها داخل المخيّمات والتي تهدفُ إلى منحِ الفنانين اللاجئين فرصة للتألق.

من خلالِ سلسلة من تجارب الأداء، قام أوكتوبيزو ومعه لجنة التحكيم باختيارِ فنانين للتعاونِ في ألبومٍ بعنوان «Refugeenius»، الذي سعى إلى قلبِ السردية التي كثيرا ما نسمعُها عن اللاجئين؛ وما تتضمنه من تبعية ومأساة وعجز وحاجة. فبدلاً من اعتبارِ اللاجئين عبئًا على المجتمع، تهدفُ مسابقة المواهب هذه إلى إظهارهم كمجموعة من المواهب غير المُستغلة التي يمكنُ توجيهها في عدّة مجالات، بما في ذلك المجالات الإبداعية. في إطارِ جهودٍ مدروسة للغاية لتسليطِ الضوء على نوعٍ مُختلف من قصصِ اللاجئين، تابعنا حياة ثلاثة لاجئين في مراحل مُختلفة من رحلتهم. كان أحدهم مغني الراب الشاب الطموح المعروف باسم SKEGI، والذي اتخذه أوكتوبيزو كتلميذٍ له، وكان حلمه الكبير في الأداءِ على مسارح لامعة يتضاربُ بشكلٍ صارخ مع حظرِ التجوّل الذي كان يواجهه كلما غادر مخيّم كاكوما للاجئين. أثارت قصته نفسها تساؤلاتٍ حول ما إذا كانت مخيمات اللاجئين يمكن في الواقع أن تخنقَ المواهب؛ تلك المواهب التي تبحثُ ببساطة عن فرصة للتألّق.

قابلنا أيضًا إريك، وهو لاجئ من جمهورية الكونغو الديمقراطية، تم اختيارُه أيضًا من قِبل أوكتوبيزو، وقد تحقّق حلمه في إنشاء مدرسة للموسيقى. أثناء العيش كلاجئ في نيروبي، قمنا بتصويرِ إريك مع طلابه في المدرسة التي أنشأها من أموالِ الجائزة التي فازَ بها في مسابقة المواهب. من خلالِ إجراء مقابلاتٍ مع هؤلاء الشباب، الذين رأوا في المدرسة ساحة تدريب مهنية في الموسيقى، قدمنا للمُشاهد فرصةً لمعرفةِ ما يمكنُ أن يحققه اللاجئون باستثماراتٍ صغيرة نسبيًا، وكيف ألهمت التجربة الشخصية لإريك مساعدة الآخرين. حيث قدّمَ إريك منحًا دراسية للاجئين آخرين لمساعدتهم في تحقيقِ أحلامهم.

في قصتنا الثالثة، نعرضُ قصة امرأة شابة، تُدعى فلورا، التي هربت من الخدمة العسكرية في إريتريا وهي في سن المُراهقة، وبنَت حياة جديدة لنفسها كفنانة تهتمُّ بالفنونِ المرئية. بينما شاهدناها تبيعُ رسوماتِها الأولى في معرضٍ ساحر في وسطِ نيروبي، كنا نأملُ، بصفتنا مخرجين، أن نُبرِزَ الإمكانات الحقيقية لهؤلاءِ الفارّين من الصّراع. هؤلاء الذين غالبًا ما يتمُّ تقزيم رصيدهم تحت مُسمّى لاجئ، لم يبنوا أنفسهم فحسب، بل قاموا أيضًا بإعطاءِ بلدهم المُضيف، وأصبحوا بالفعل جزءًا من نسيجٍ يثريه.

شـعار في مدخل أدغال كاليه يقول «لندن تنادي»

LONDO
CALL

إنّ سرد قصص اللاجئين، سواء كمراسلٍ صحفي أو كمُخرجٍ سينمائي، فيه تحديات مُختلفة، ولكن في النهاية، يبدو أنّ الهدف الأكثرَ أهمية في كلّ حالة كان دائمًا سرد قصصٍ حقيقية، والتي تعكسُ في جوهرِها بدقة ونزاهة رحلة الشخص والواقع الذي واجهه في تلك العملية، يؤثرُ استقبالُ الجمهورِ والمحادثات السياسية الأوسع نطاقًا على كيفيّة صياغةِ هذه القضايا بالضرورة من قِبل وسائل الإعلام من أجلِ حمايةِ المُستضعَفين من الاستغلالِ السياسي.

كانت أفضلَ القصصِ بالنسبةِ لي دائمًا تلك التي تعمّقُ الفهم بين عوالم مُختلفة جذريًا وتبني التعاطف مع الآخرين مُتخطّية الخطوط الثقافية والدينية واللغوية. لقد كان أملي في أن تكون تقاريري قد أسهمت إلى جانبِ غيرها في إحداثِ تغييرٍ في التغطية الصحفية عن الأشخاصِ الذين نشيرُ إليهم بوصفِ «لاجئين» وأن نفهمهم بشكلٍ أفضل.

رحلتي كصحفي

بقلم أحمد علي أوغلو

كانت زوجتي على وشكِ أن تلدَ طفلنا، لكن قعقعة القذائفِ والصواريخِ ـ وهي ضربات غريبة تُسمَعُ أثناءَ انقطاعِ التيّارِ الكهربائي والصلواتِ في المسجد ـ تسبّبت في حالةٍ من الذعر. كان ذلكَ يناير 2009 في قطاعِ غزة. في تلكَ الأيامِ، كان من الصعبِ على المرءِ أن يُشاهدَ الأخبارَ بسببِ انقطاعِ التيارِ الكهربائي بشكلٍ دائم. كصحفي، كان عليّ مُراقبة التطوّراتِ في الأخبار، وكان مصدرُ المعلوماتِ الوحيد لدي هو راديو السيارة.

متظاهـر فلسـطيني يلتقـط قنبلـة مسـيّلة للدمـوع أطلقتهـا القـوات الاسرائيليـة التـي كانـت تحـاول اعـتراض مسـيرة العـودة الكـبرى بالقـرب مـن حـدود غزة-إسرائيـل في رفـح، بغـزة بتاريـخ 5 نيسـان 2019.

ذاتَ مـرّة، أثنـاء تدويـنِ الملاحظـاتِ للقصـصِ التـي أغطّيهـا في جريـدة لـوس أنجلـوس تايمـز والبـي بي سي، كانـتِ الأنبـاءُ العاجلـة قـد لفتـت انتباهـي؛ قُتـل ثلاثـة أشـخاص؛ اسـتُهدفت امـرأة حامـل وزوجهـا ووالدتهـا بصـاروخِ مروحيـة أثنـاء توجههـم إلى مستشـفى لـواء الأقـصى، المـكان الـذي كانـت زوجتـي سـتنجبُ فيـه قريبًـا. إشـعاراتُ المـوتِ المنتـشرة عـلى جـدرانِ الزقـاقِ ترفـرفُ وتنفجـر، ويتـم اسـتبدالها بسرعـة بأخـرى جديـدة. إذا كان الشـخصُ محظوظًـا، في يـومٍ جيّـد، يمكنـه العثـور عـلى سـيارةِ إسـعافٍ لنقـلِ زوجتـه المريضـة الحامـل إلى المستشـفى. كان النـاسُ في ذعـرٍ شـديد إذ تهاطلـت القنابـلُ وسرعـانَ مـا بـدأ حفـرُ القبـور.

لحسـنِ الحـظ، انتهـتِ الحـربُ قبـل الـولادة بيومـين. منعـت القـوات الإسرائيليـة الصحفيـين الدوليـين مـن الوصـولِ إلى المنطقـة المُحـاصَرة. واضطـرّ الصحفيـون المحليّـون والمسـتقلون إلى تـولي القيـادة وتغطيـةِ القصـص. اهتمامـي كان دائمًـا قصـص الأشـخاصِ العاديـين الذيـن يعيشـون تحـت جنـونِ القـوة المُفرطـة لإسرائيـل واسـتخدامها غـير المسـبوق للهجـماتِ الجويـة. في تلـك الأيـام، كانـت التقاريـر الإخباريـة عـن سـبعين مدنيًـا قُتلـوا في يـومٍ واحـدٍ تـضربُ عـلى الوتـر؛ قـد يـؤدي إلى اجتـماعٍ عاجـل لمجلـسِ الأمـن التابـعِ للأمـم المتحـدة. كان سـكانُ غـزة محظوظـين لأنّ وحشـية الديكتاتوريـين العـرب، والهجـمات الكيميائيـة للنظـامِ السـوري، لم تسـبق حـرب غـزة في 2008-2009. حيـث أصبـحَ الإسرائيليـون أكـثر جـرأة في الحـربِ القادمـة، في عـامِ 2014؛ والتـي كانـت الحـرب الأشـدّ فتـكًا عـلى غـزة.

وحتـى خـلالِ فـتراتِ وقـفِ إطـلاق النـار المتقطّعـة، كانـتِ الطائـراتُ والصواريـخُ تخـترقُ الأجـواءَ فـوقَ الشريـطِ السـاحلي. كانـت السـماء وكأنهـا معـرضٌ فنـيٌّ غريـب. كان الدخـانُ يفـوحُ كالزهـورِ بلـونِ الفحـم، والأنـوارُ البيضـاء المُتوهّجـة تنفجـر، وأعمدتهـا معلقـة عـلى المـدنِ والبلـدات. في أحـدِ الأيـام خرجـتُ مـن أجـلِ تغطيـةِ حيـاةِ النـاس في مسـقطِ رأسي. مـن الصعـبِ عـليّ أن أنـسى قصـة عائلـة واحـدة قضيـت معهـا يومًـا واحـدًا.

يعيـشُ يوسـف نقـلا، البالـغُ مـن العمـرِ 42 عامًـا، في قريـة الزوايـدة القريبـة في منـزلٍ مـع وَلديـه المُراهقـين، واثنـين مـن إخوتـه الصغـار وعائلاتهـم. البنـاء غـيرُ مكتمـل، حيـث أنّ حصـارَ المنطقـة المُحيطـة بغـزة منـذ عـامِ 2007 منـعَ وصـول إمـداداتِ الهـاون والإسـمنت وغالبـاً مـا تتـسرّبُ الأمطـار، ولكـن الفنـاء كبـير، يوجـدُ فيـه حديقـة ودجـاج. في طريقـهِ للخـروجِ للتسـوّقِ، أخـبرني نقـلا «هـذه الحيـاة غريبـة حقًّـا، كـما تـرى. لقـد قُتـل أخوتنـا ونحـن

نتسوقُ الآن». عند العودة من سوقٍ مؤقت، بدأت الأصوات الصاخبة تتداخلُ ببعضِها كأنّ الجميعَ يسألُ معًا: «متى سينتهي كلّ هذا؟».

هناك اعتقادٌ واسعُ النطاقِ بين الفلسطينيين بأنّ لا أحد منهم يولدُ غير مُسيّس. إذا سألتَ مواطناً عادياً في غزة سؤالاً سياسياً، فلن تحصلَ على إجابة فقط؛ بل سيشرحُ الأمرَ في سياقِ تقييمٍ سياسيّ واسعِ النطاق، بخلفيةٍ أيديولوجية للصراع، ونماذج الأطرافِ المُتحاربة، والقائمة لا تنتهي أبدًا. في منزلِ عائلة نقلا، تجمّعَ الأخوة وبدأوا التقييم والجدال ومحاولة إيجاد منطق للخططِ القتالية والقرارات الدبلوماسية؛ ويتذكّرون كيف قاتلَ الشبابُ الفلسطينيون منذ سنوات الإسرائيليين بالبنادقِ والحجارة.

هذا النقاشُ السياسي لا يزالُ يتردّدُ في ذهني. «على الرغمِ من حقيقةِ أننا قد لا نقبلُ استراتيجياتهم وتكتيكاتهم، فإنّ مُقاتلي حماس شجعان وكالأسودِ في المعركة»، هذا ما قاله أحد الإخوة. وأضافَ «تصدِّق الدعاية الإسرائيلية حولَ تدميرِ البنية التحتية لحركة حماس، فستكون ساذجًا إذا ما اقتنعتَ بذلك». قاطعه شقيقه الأصغر قائلاً «أنت على حق، لكن هل يستحقُ ذلك الخسائرَ الكبيرة التي يعيشُها شعبنا؟» لقد كان غاضبًا من خالد مشعل، زعيم حماس الذي كان في المنفى في سوريا في ذلك الوقت. قال الأخ الأصغر: «يظلُّ مشعل يقول، يا أمتي الفلسطينية، عليكِ أن تتحلّي بالصّبرِ وتتحمّلي المعاناة للوصولِ إلى الحرية، هذا هو طريق الحرية. لماذا لا يأتي مشعل ويحارب بدلاً من تركِ شعبه؟» وأخيرًا يقول يوسف لإخوته: «لا تتشاجروا».

أصبحت غزة معزولة بالكامل. المياه تُنقل بالدلاء، والتيار الكهربائي منقطع، الجنازات حولنا والمرضى مكدسون في المستشفيات، والحرائق تشتعل في الليل، ومنشورات الإخلاء ترفرفُ على الأرض، والمسلّحون يتسلّلون على طولِ الجدران ويزحفون عبر الأنفاقِ إلى كمينِ الدبابات الإسرائيلية. قال رجلٌ إن كلّ يومٍ يُشبه صفعة في الوجه ـ وفي انتظار صفعة قادمة نعلمها ولكن دون معرفة وقت محدد لتجنبها.

الانضمام لتي آر تي العالمية

كان هناك نقطة تحول رئيسية في حياتي في عامِ 2016 وهي عندما التحقتُ بمؤسسة تي آر تي العالمية، أول قناة تركية دولية باللغة الإنجليزية. أصبحتِ الحرب في سوريا وقصص الناسِ من هناك هاجسي الجديد. انضممتُ إلى طاقمِ تصويرِ تي آر تي العالمية الذي كان من أوائلِ من دخلوا محافظة إدلب في شمالِ سوريا منذ سنوات. طوالَ النزاعِ السوري، تم استهدافُ عددٍ من المستشفيات في غاراتٍ جوية، والعديد منها في جنوب إدلب.

ما زلتُ أتذكّرُ الطرقَ الترابية المُتعرّجة التي نقلتنا إلى مخيمِ قطمة للاجئين في إدلب، حيثُ تعيشُ 90 ألف أسرة. كان معظمُهم قد نزحوا من محافظاتٍ مختلفة هرَبًا من الضرباتِ الجوية للنظام. كلّ واحدٍ منهم لديه قصة فريدة من نوعها. هناك بدأتُ أفهمُ الصراعَ الخطير بين مهنتي كصحفيّ يبحثُ عن «قصص»، وعواطفي العميقة كلاجئ فلسطيني شاهدَ بشكلٍ مباشر ما حدثَ لأجدادي عندما تمّ إجلاؤهم قسراً من منازلهم وقراهم منذ عقود.

أم علي من حماة، أتت إلى إدلب لتلقي العلاج لابنها. كان يعاني من مشاكلٍ في التنفسِ منذ سنوات. أخبرتني «لا توجدُ صيدليات. حتى إنني لجأتُ إلى الطبّ البديلِ واستخدمتُ الأعشابَ لعلاج ابني». تذكرتُ زوجتي وأمي عندما وافقتا على إحضارِ قابلة إلى منزلنا لأنهما كانتا خائفتين من الذهابِ إلى المستشفى خلالَ الحربِ في غزة، بعد أن سمعتا عن الأسرة التي قتلت.

كما هو الحالُ في أيّ حرب، كانَ الأطفالُ دائمًا الأكثرَ ضعفًا. إدلب هي محورٌ أساسي لاتفاقِ أستانا، الذي من شأنه إنشاءُ مناطق خفضِ التصعيدِ في سوريا. روسيا وإيران وتركيا اتفقا على ذلك، وقالتِ الحكومة في أنقرة إنها قد تسمحُ للمزيدِ من المنظماتِ الخيرية بتقديمِ المساعداتِ لملايينِ المُحتاجين. أثناءَ التحدّثِ إلى الناسِ في المستشفياتِ والمدارسِ المؤقتة والمخيماتِ والأسواق، أصبحَ من الواضحِ أنّه لم يكن لديهم اهتمام كبير بالنقاشاتِ السياسيّة حولَ بلدِهم في خضمِّ الأحداثِ التي كانت تجري على بعدِ آلافِ الكيلومترات. كانت أولويّتهم ببساطة رعايةُ أطفالِهم. إنه جيلٌ عاشَ خلال الحرب، وهم يأملون ألا يعيش الجيلُ القادمِ في سوريا ذلك الألم.

رحلتي إلى تركيا

في عام 2011، انتقلتُ إلى إسطنبول في تركيا. بسببِ اهتماماتي الأكاديمية، وجدتها كمنصّة جيّدة من أجلِ كتابة المقالات والأوراق الأكاديمية حولَ اللاجئين الفلسطينيين. كانت القصة التي لا تُنسى هي قصة (أبو جهاد)، رجل الأعمالِ الفلسطيني الذي عاشَ في إسطنبول منذ أكثرَ من خمسة وعشرين عامًا، حيث قامَ بتصديرِ البضائعِ إلى غزة طوالَ ذلك الوقت. وقال وهو يحتسي القهوة «من أجلِ الله، لماذا يجبُ أن أدفعَ كل هذه الأموال إلى مصلحةِ الجمارك الإسرائيلية؟ لماذا لا يوجدُ لدينا ميناء بحريّ خاص بنا مع مراقبين دوليين إذا كانت إسرائيل خائفة جدًا من تهريبِ الأسلحة؟ »وتابعَ قائلاً: « على الرغمِ من كلّ القيود الإسرائيلية، كل حربٍ تخوضها على شعبِ غزة تجعلُ حماس تظهرُ بقوة، فلماذا تواصلُ سياستها الغبيّة المُتمثلة في محاصرةِ غزة؟»

وذكر أبو جهاد أنه وفقًا لاتفاقِ أوسلو، تعهّدَ المجتمع الدولي بميناءٍ بحريّ لغزة. «لماذا لم نحشد كل الجهودِ لتجديدِ هذا الوعد؟» وأصرّ على أنّ هذه الخطوة ستكونُ مهمّة للغاية، من الناحية العملية والرّمزية. وأضاف: «إنّ إسرائيل تضغطُ على شعبنا اقتصاديًا من خلالِ السّيطرة على كلّ شيء، ومن خلالِ فرضِ الضرائب على منتجاتنا. من خلالِ حبسِ شبابنا في أكبرَ سجنٍ مفتوح في تاريخ البشريّة، هذا سيجعلُ الشبابَ الفلسطيني يفقدُ إيمانه بقيمةِ حقوقِ الإنسان. لهذا السبب يجبُ كسرَ هذا الوضعِ الراهن ويجبُ على المجتمعِ الدولي أن يجدَ طريقة لفكّ الحصارِ على غزة».

بالنسبة للفلسطينيين في غزة، سيكونُ الميناءُ العائم سبيلاً للسيادةِ الحقيقية. فهو تجسيدٌ لطموحِ إنهاءِ الحصارِ الخانقِ على القطاع. مثل هذا المنفذ من شأنه أن يُمهّدَ الطريقَ لاستقلالٍ اقتصاديّ من شأنه أن يقللَ من اعتمادِ القطاعِ على الجيرانِ الذين يزدادون عدائية، مع وجودِ إسرائيل من جانب، ومصر من جانبٍ آخر. عندما اقترحت أوسلو هذا المفهوم في عام 1993، كانت مصر والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة تدعم الرصيفَ البحري العائمِ تحتَ إشرافٍ دولي، لتخفيفِ المخاوفِ الأمنية الإسرائيلية. لسوءِ الحظ، لم يتمّ اتخاذُ أي خطواتٍ ملموسة على الإطلاق وتم تجميد الفكرة لسنوات.

في سـوتشي، ناقـشَ قـادة روسـيا وإيـران وتركيـا خطـة لإنهـاءِ الحـربِ السـورية. بينـما تـمّ التفـاوضُ حـولَ شروطِ الاتفـاقِ السـياسي هنـاك، يـرى الكثـيرُ مـن السـوريين داخـلَ البـلادِ مسـتقبلًا لبلادهـم وفـقَ شروطهـم. كانـت إدلـب تُعـرفُ ذاتَ يـومٍ باسـمِ إدلـب الخضراء قبـل الحـرب. في ذلـك الوقـت، كانـت معروفـة في جميـعِ أنحـاءِ البـلاد بزراعتِهـا وحرثِهـا. الآن، عـلى الخريطـة التـي تُظهـرُ القـوى المتنافسـة في سـوريا في الحـرب، لا تـزالُ إدلـب مُحاطـة باللـونِ الأخـضر، ولكـن هـذا يعنـي الآن أنّهـا تحـتَ سـيطرةِ المُتمرّديـن. لقـد تـم تقسـيمُ البـلادِ الآن عـلى طـولِ الخطـوطِ الأماميّـة العنيفـة. ليـس هنـاكَ شـكٌ في أنّ السـوريين يريـدون السـلام، لكنّـه يتـمَ التفـاوض بشـأن إمكانـاتِ حـدوثِ ذلـك مـن قبـلِ دولٍ أخـرى، خـارجَ سـوريا. الجمـودُ في تلـكَ الصفقـاتِ محسـوسٌ عـلى الأرض؛ هـذه المحادثـات تؤثـرُ تأثـيرًا مبـاشرًا في حيـاةِ النـاسِ في المخيـماتِ وأماكـنِ اللجـوء.

قـد يكـون بعـض أطفـال سـوريا لا يعانـون جسـدياً، لكـن جسـديًا، إلا أنّ آثـارَ الحـربِ غالبًـا مـا تكـونُ عميقـة. أخبرتنـي وئـام بـدر خـان، المخرجـة والمدرّسـة المشـهورة ، «أحـاولُ أن أفعـلَ شـيئًا للأطفـالِ في موضـوع التعليـم، وأحـاولُ أن أفعـل شـيئًا مـن أجلهـم كطريقـةٍ وديـة لإعادتهـم إلى طفولتهـم. أعتقـد أنّهـم فقـدوا الكثـيرَ مـن هـذه الأشـياءِ التـي هـي طبيعيـة بالنسـبةِ لأطفـالٍ آخريـن خـارج سـوريا». تعـرفُ خـان الوضـع الطبيعـي الـذي يعيشُـه الكثـيرُ منـا خـارجَ حـدودِ سـوريا. تـمّ التصفيـقُ بحـرارة لمدرّسـة المرحلـة الابتدائيـة مـن حمـص التـي وصلـت لمهرجـانِ كان السـينمائي لعـامِ 2014 عـن فيلمهـا الحائـز عـلى جائـزة، سـيلفيرد ووتـر، والـذي يوثـقُ حصـارَ النظـامِ لمدينتهـا.

تديـرُ خـان الآن حضانتهـا مـن داخـلِ مخيـمِ قطمـة للاجئـين. «لا أريـدُ المغـادرة. بالتأكيـد، أنـا لا أريـد. كنـتُ في فرنسـا عـدّة مـرات. زرتُ ألمانيـا وبلجيـكا وكنـدا. لكـن في النهايـة عـدتُ إلى منـزلي، إلى المـكانِ الـذي أنتمـي إليـه». سـألتُها عـمّا إذا كانـت تشـعرُ بـأنّ العـالمَ يتجاهـلُ سـوريا. قالـت، «نعـم. إنهـا مسرحيّـة كبـيرة. إنهـا مسرحيّـة كبـيرة. لكنّـني لا أهتـمُّ بذلـك. أنـا أؤمـنُ بمـا تقـومُ بـه يـداي و مـا تـراهُ عينـاي».

غيـدا الحسـين، التـي تـدرسُ في مخيّـمٍ للنازحـين، تثـقُ في حواسِـها أيضـاً، فقـد أخبرتنـي أنهـا تعتقـدُ أنّ مسـتقبلَ بلدِهـا مُـشرِق. «نحـن نحـن نسـعى لبنـاء مُختلـفٍ تمامًـا عـمّا يريـدهُ النظـام. يريـدُ النظـامُ جيـلاً تافهًـا وخـاسرًا. عـلى العكـسِ مـن ذلـك، نريدُهـم أن يكونـوا جيـلًا قديـرًا مُخـوَلًا لبنـاء بلدنـا. لقـد اعتبرنـا أنفُسَـنا الجسـرَ الـذي سـيمُرّ عـبرَهُ هـذا الجيـل، وسـيكونُ أطفالنـا العمـودَ الفقـريّ لإعـادةِ بنـاءِ مجتمعَنـا «.

لقد تمّ اقتلاعُ نصف سكانِ سوريا تقريبًا جرّاءَ هذا الصراعِ الذي يقتربُ من عامِه السّابع. ثم تابعَت «إذا غادرَ جميعُ الأطباءِ السوريين، فلن يكونَ هناكَ أحدٌ لعلاجِ جروحِ الناس. إذا غادرَ جميعُ المعلّمين، فسيتمُّ التخلّي عن أطفالِنا. إنهم بريئون لا علاقة لهم بما يحدُث». بمرورِ الوقتِ، تغيّر الخطابُ السياسي للمجتمعِ الدولي. بالنسبةِ للعديدِ من السوريين، لقد أصبحَ مُختلفًا جدًا عمّا كان عليه الحالُ في السّابق، كما هو الحالُ في معظمِ ما تبقّى من وطنِهم.

عبد العزيز العجيني كان أستاذًا للّغةِ الإنجليزية عندما بدأتِ الحرب. شاركَ في المظاهراتِ المبكّرة ضدّ النظام. أثناءَ حديثِه وهو يحتسي القهوة، أوضحَ رؤيته كإصلاحيّ وثوريّ. وفيما يتعلّقُ بالسياسة، قال: «بالنسبةِ للأشخاصِ العاديين هنا، لم يعودوا يؤمنون بأيّ شيء. تعلمون أنّ سبعَ سنواتٍ ليست فترة قصيرة، لأنّ الناسَ يواصلون الاعتقادَ بأنّ الأمورَ تحدثُ على المستوى السياسي؛ لذلك يقولون إنهم لا يهتمّون بأستانا وجنيف. نريدُ أن نعيشَ بسلام، بدونِ النظام، وبدونِ قتل، وبدون طائرات ودبابات وبنادق في الشوارع. هذا كلّ ما يحتاجه الناس. «سواء في أستانا أو جنيف أو بدونها. هذا ما يفكّرُ فيه الناس». ثم قالَ إنه قد مرّت السنوات دونَ تغييرٍ جوهريّ على الأرض، «وهذا أمرٌ مُحبِطٌ حقًا».

يقولُ إنّ أكبرَ أسفِه هو أنّ النظامَ قد حرّض السوريين ضدّ السوريين. ومع ذلك، فإنه متفائل بشعبه كما كان في عام 2011، عندما خرجَ كثيرون إلى الشوارع. «في عامِ 2011، بدأنا القتال من أجلِ حريتنا، من أجلِ كرامة بلدنا. وقال «هذا لا يتماشى مع فكرةِ الفرارِ من البلاد». «أنا شخصياً شاركتُ حقًا في الثورةِ منذُ البداية، وما زلتُ أصرُّ على حقي في الحصولِ على بلدٍ ديمقراطيّ حرّ وسوريّ للجميعِ هنا في سوريا، وسأبقى هنا إلى الأبد.»

هذه مجرّد بعض وجهاتِ النظرِ للمدنيين السوريين حولَ ما أصابَ وطنهم. خلالَ الحربِ، كان يُنظرُ إلى إدلب على أنّها معقلٌ للمعارضة؛ والتي تشكّلت من خلالِ مجموعاتٍ مُتعدّدة، بما في ذلك الجيش السوري الحرّ المُعتدل. بعدَ شهورٍ من الاقتتالِ والاشتباكات، أصبحَ الجيش السوري الحرّ تحتَ سيطرةِ هيئةِ تحريرِ الشام، وهي مجموعة قويّة كانت مُرتبطة سابقًا بالقاعدة. إنهم مُدجّجون بالسلاحِ وما زالوا صامدين ضد قوّاتِ الرئيس بشار الأسد. الناسُ يريدون السلام، لكن مَن هي المجموعات التي تتشكّلُ منها

المعارضة بالضبطِ فسوريا؟ يبقى أمرًا غامضاً. إلى أن يتمّ حلُّ ذلك، من الصعبِ أن نرى كيف يمكنُ تحقيق هذا السلام. معظمُ المدنيين يتوقون إلى إنهاءِ النزاع، قبلَ أن يفوتَ الأوان بالنسبةِ لهم.

منذ زيارتنا الأولى للمنطقة، هدأ القتالُ في محافظةِ إدلب التي يُسيطرُ عليها المتمرّدون، وبدأ الأشخاصُ الذين يعيشون هناكَ في التركيزِ على العودةِ إلى الحياةِ الطبيعية. بالطبعِ للقيامِ بذلك، فهم بحاجة إلى وظائف. كانت إحدى مجموعاتِ الإغاثة تحاولُ إعادةَ تشغيلِ الناسِ من خلالِ إعادتهم إلى الفصولِ الدراسية. حيثُ يتمُّ توفيرُ الفصولِ الدراسية بواسطةِ شاين، وهي مؤسسة مُخصَّصة لتمكينِ المواطنين. أحد الشخصيات المُلهِمة التي كتبتُ قصّتها كانت رانيا كايزر، وهي رائدة أعمال أمريكية سورية تترأسُ المؤسسة، وكانت تعملُ في شمالِ سوريا لمدة خمس سنوات.

تعتقدُ كايزر وزملاؤها أنّ إحدى الطرقِ الإيجابية لحلِّ العديدِ من المشكلاتِ هي التّعليم. أخبرتني، «السببُ وراءَ إنشاءِ هذه المدرسة هو أنّنا ندركُ الحاجة إلى إعادةِ تأسيسِ الوضعِ الاقتصاديّ مرّة أخرى. نريدُ أن يذهبَ الناسُ إلى المدرسة بسرعة، وأن يكونوا قادرينَ على الحصولِ على وظيفةٍ بسهولة. السبب الأكثر أهميّة هو أننا لا نريدُ أن يصبحَ الشبابُ متطرّفين، نريدَهم أن يشاركوا في الحياةِ المدنية. يقدّمُ الهلالُ الأحمر التركي وهيئة إدارة الكوارثِ والطوارئ التابعة له (آفاد) الدعمَ المالي لمؤسسةِ شاين. لكنّ الناس في شاين يأملون في إيجادِ المزيدِ من المانحين لجلبِ المزيدِ من السوريين إلى الفصولِ الدراسية لمنحهم إحساسًا مُتجدّدًا لهدفِهم في الحياة.

ذهبنا إلى مخيّمٍ أقيمَ حديثًا في موقعٍ آخر في محافظة إدلب، وهو مخيمُ القاح، والذي كان يضمُّ 90 ألف نازحٍ سوري، كثيرٌ منهم مِن النساء. على الرّغم من محدوديّةِ الموارد، تمّ إنشاءُ مركزَ تدريبٍ مهنيّ للنساءِ من أجلِ النساءِ السوريات للالتقاءِ وتبادلِ الأفكار وتعلُّمِ مهاراتٍ جديدة. لقد تدمّرت المحافظة بعدَ سبعِ سنواتٍ مِن الحرب. لإعادة بنائها، سيكونُ الاعتمادُ الأكبر على شعبِها، وبالطبع النساء. لكن في ثقافةِ محافظة مثل هذه، قد يكونُ هذا صعبًا. ولذلك تسعى بعضُ المخططاتِ مثلَ مركزِ التدريبِ المهني إلى تحدّي ذلك.

جاءت فاطمة إلى المخيمِ منذُ عامٍ بعد أن فقدَت زوجها وابنها خلال حصارِ حلب. إنّها حريصة على المشاركة في أيّ برنامجٍ يرفعُ من شأنِ النساءِ ويُشجّعهن على لعبِ دورٍ أكبر في المجتمع. يديرُ المركز بشكلٍ أساسي متطوّعون أجانب شبّان مثل أمينة، وهي ناشطة بريطانية جاءت إلى إدلب في عامِ 2016. وهي تعتقدُ أنّه على الرّغمِ مِن المشكلاتِ العديدة في المخيّم، يجبُ أن يكونَ تمكينُ المرأةِ دائمًا أولوية.

التدخل التركي

كانت عمليّة تركيا عبر الحدود، أي (عملية درع الفرات)، تجربة فريدة راقبناها في جرابلس في سوريا، حيثُ كانَ الناسُ يحاولون التخلّصِ من آثارِ سيطرةِ داعش. كانت المدينة تُعاني من شحٍّ الموارِدِ الحيوية، ومع اقترابِ فصلِ الشتاء، لم يكن الذين يعيشون في مخيّمات النازحين هم فقط الذين يُناضلون. كان ذلكَ في وقتٍ مُبكّر من صباحِ أحدِ الأيّام عندما قابلنا أم أحمد، التي كانت تعدّ الشاي لعائلتها.

كان منزلها يفتقرُ للمرافقِ الرئيسية لمدةِ ثلاث سنوات، ورغمَ أنّ درجاتِ الحرارة كانت مُعتدلة، فإن فصل الشتاء بدأ يقترب. «هذه الغرفة هي منزلٌ لأربعِ عائلات، والآن بالكادِ نتّسع. تزدادُ الأمورُ سوءًا في فصلِ الشتاء، خاصّة مع انعدامِ الكهرباء والوقود». لقد مرّ أكثر من عامٍ على القتالِ العنيفِ الذي ألحقَ أضرارًا بالمباني والبنية التحتيّة، وأجبرَ تنظيمَ داعش على الفرار. لقد تحسّنتِ الأمورُ بعضَ الشيء، لكن الآلاف من النازحين ما زالوا في المخيمات وبعضهم يائس.

بعد الغاراتِ الجوية والتفجيرات، يتمُّ إعادة بناء جرابلس بشكلٍ مُستمر، لكن استعادة الغاز والمياه والكهرباء أصبحَ أمرًا صعبًا. كان هناكَ القليلُ من أعمالِ الصيانة التي تمّت أثناءَ النزاع، لذلك سوفَ يستغرِقُ الأمرُ سنواتٍ لإعادةِ بناءِ هذه المدينة. كانت وكالات الإغاثة على الأرضِ تحاولُ بذل قصارى جهدها من خلالِ حِزَم المساعداتِ من الأغذية والملابس والبطانيات. أخبرني أبو سراج، رئيسُ إحدى المنظمات، أنّ التغييرَ الموسميّ سوفَ يجلِبُ المزيدَ من التحدّياتِ التي ستُبدِّد موارده. «نحن نبذلُ قصارى جهدنا، لكنّ

عـددَ المحتاجـين يفـوقُ قدراتِنـا. نحـن نركّـزُ بشـكلٍ أسـاسي عـلى النازحـين الجـدد، وهـذا يجعـلُ الآخريـن غاضبـين». الـشيء الوحيـد الـذي لا تسـتطيعُ وكالات الإغاثـة إعطـاءه لهـؤلاءِ الأشـخاص هـو العـودة إلى سـوريا آمنـة. هـذا حلـمٌ بعيـدُ المنـال، والآن ليـس لديهـم سـوى واقـعٍ مـن المُحتمـلِ أن يكـون أكـثرَ بـرودة وأكـثرَ قسـوة.

تتعاملُ تركيـا مـع واقـعِ أنّ ملايـين السـوريين أصبحـوا لاجئـين داخـلَ حدودِهـا، هـذا بالإضافـة لمئـاتِ الآلافِ مـن النازحـين داخليًـا. كانـتِ العمليـة الضّخمـة الثانيـة لتركيـا مُعلقّـة في ذلـكَ الوقـت، عندمـا أفـادت الأنبـاء الـواردة مـن سـوريا أنّ امـرأة قـد قُتلـت وأصيـبَ عـشرات الأشـخاص بعـدَ إصابـةِ مركـزٍ طبّـي بقذائـفِ الهـاونِ في أعـزاز، شـمالِ سـوريا. تـمّ إلقـاءُ اللـومِ عـلى الجماعـة الكرديـة المُسـلّحة، حـزب العـمال الكردسـتاني، المُرتبـط بوحـداتِ حمايـةِ الشـعب، وهـي الميليشـيا ذات الأغلبيّـة الكرديـة في سـوريا. وقـعَ الحـادثُ قُبيـلَ الهجـومِ المُخطّـط لـه لإزالـةِ وحـداتِ حمايـةِ الشّـعب مـن منطقـةِ عفريـن في سـوريا.

كان هـذا المركـزُ الطبـيَ يقـدّمُ الرعايـة لأكـثرِ مـن 300 مريـضٍ نفـسي. وقـد تـمّ إحضـارُ معظمَهـم إلى هنـاك بسـببِ المـوتِ والدمـارِ الـذي تعرّضـوا لـه. عندمـا سـقطت قذائـفُ الهـاونِ أُجـبرَ الكثـيرون، وبشـكلٍ مأسـاوي، عـلى أن يمـرّوا مـرّة أخـرى بالفظائـعِ التـي ظنّـوا أنّهـم فـرّوا منهـا. قـالَ أحـدُ المـرضى وهـو يُغـيّر ملابسَـه «شـعرتُ بالخـوفِ الشّـديدِ عندمـا سـمعتُ صـوتَ القنبلـة». هـذا المشـفى للأمـراضِ النفسـية هـو الوحيـدُ مـن نوعِـه في المناطـقِ التـي تُسـيطرُ عليهـا قـوّات المعارضـة المدعومـة مـن تركيـا. يتلقـى المـرضى مـن المناطـقِ التـي تسـيطرُ عليهـا وحـدات حمايـةِ الشـعب مثـل عفريـن العـلاج هنـا. «نحـن خائفـون؛ نحـن بحاجـة إلى الأمـن. إنّهـم يقصِفوننـا».

قـال مديـرُ المشـفى إنّ وحـداتِ حمايـةِ الشـعب تعـرِفُ إحداثيـاتِ المُجمّـع ولكنهـا لا تـزالُ تسـتهدفه. وأضـافَ المديـرُ أنّ الكثيريـن يعتقـدون أنّ الهجـومَ كان بمثابـةِ ضربـةٍ وقائيّـة مـن قِبـل وحـدات حمايـةِ الشـعبِ قبـل التدخّـلِ الـتركي المُخطّـطِ لـه في أعـزاز. تسـبّبَ القصـفُ في احتجاجـاتٍ عفويّـة ضـدّ وحـداتِ حمايـةِ الشـعبِ في أعـزاز. أرسـلت الميليشـيا إشـارة مُتحديّـة تركيـا، لكـن الغضـب مـن الأضرارِ والإصابـات والخسـائرِ في الأرواحِ بـدا وكأنّـه جـاءَ بنتائـج عكسـيّة. تـمّ نقـلُ المـرضى إلى برِّ الأمـان، ولكـن مـع اشـتدادِ التوتـرِ بـين تركيـا وقـواتِ حمايـة الشـعب الكرديـة، كان مـن الصعـبِ ضـمانُ السـلامة.

شملت تغطيتي لعمليةِ غصن الزيتون، وهي حملة لتطهيرِ المناطقِ الحدوديّة الشماليّة من عناصرِ وحداتِ حمايةِ الشعب، قصّة أبو صطيف، الذي أجبره إرهابيّو وحداتِ حمايةِ الشعبِ على مغادرةِ منزله في شمالِ سوريا في عام 2016. انتهى به الأمرُ في مخيّمِ النازحين في أعزاز، حيثُ يعيشُ بعيدًا عن أسرته، الذين ينتشرون الآن في كلٍّ مِن تركيا وسوريا، ولا يُعرفُ بالضبطِ مكانهم. قال: «اعتدتُ أن يكونَ لدي خمسة متاجرَ للأجهزةِ الكهربائيّة. اضطررنا إلى تركِ أعمالِنا ومنازلنا وقريتنا. هاجمتنا ميليشيا وحداتِ حمايةِ الشعب وطردتنا. حتّى هذه اللحظة لا نعرفُ السبب». قال أبو صطيف إنّ عائلته عانت في ظلّ داعش، لكن الحال لم يكن أفضل من وحداتِ حماية الشعب. «قيل لنا إنه كان من المفترضِ أن تمرّ وحدات حماية الشعب عبرَ قريتنا لمحاربة داعش. كان هذا ادعاؤهم، لكنهم كانوا أسوأ من داعش».

انتقدت منظمة العفو الدولية وحدات حماية الشعبِ بسببِ إجبارهم الناسَ على تركِ منازِلهم وهدمها، وأضافت أنّ هذه ترقى إلى جرائمِ الحرب. استولت وحدات حماية الشعب على قرية أبو صطيف، منغ، بدعمٍ من القوات الجوية الروسية. القرية قريبة من الحدود التركية وفيها قاعدة جوية للنظام. أطلقت تركيا العملية في يناير لإخراجِ وحداتِ حماية الشعب والسماح للناس بالعودة. جميع أبناء أبو صطيف الثلاثة يقاتلون الآن مع الجيش الحر، إلى جانب القوات التركية. «عملية غصن الزيتون هي معركة مهمّة للغاية»، يقولُ أبو صطيف، «أطفالنا في الجيشِ السوري الحر يُضحّون بأرواحِهم لتحقيقِ العدالة واستعادة أرضنا. إنها معركة من أجلِ حقوقنا ومن أجلِ العدالة».

ينتظرُ أبو صطيف اليوم الذي سيستطيعُ فيه لمّ شملِ أسرته في قريتهم. «هل يمكنك أن تتخيّل أنني لا أعرفُ مكانَ أطفالي؟ ليس لدي فرصة لرؤية أحفادي. كلّ ما أتمناه هو أن أنسى هذه الأيام. أتمنى أن أتمكن من حذفِها من ذاكرتي، لكنني لستُ متأكدًا من أنني سأكونُ قادرًا على ذلك». يعتقدُ البعضُ أنّ الثورة الشعبيّة كانت بمثابةِ فخ، فيما يُصرُّ آخرون على أنّ داعش ووحداتِ حماية الشعب قد اختطفوا انتفاضتهم، وأنّهم هم أنفسهم المسؤولين جزئيًا عن ذلك. لكن الشيء الوحيد الذي اتفقوا عليه جميعًا هو أنّهم خاضوا ما يكفي من الحرب التي لم يكونوا يرغبون في البدءِ بها.

اللاجئون هربوا من داعش

ذهبتُ إلى جنوبِ تركيا لأفهمَ مِن اللاجئين أنفسهم ماذا كانت تعني هزيمة داعش بالنسبة لهم. طُرد آلاف الأشخاص من ديارهم من قبل الجماعة الإرهابية؛ هربوا إلى الصحراء دون مأوى أو طعام أو ماء. العديد من هؤلاء الأشخاص كانوا الآن في مخيمات، ينتظرون بفارغ الصبر مغادرة الخيمِ المؤقتة وشمس الصحراء الحارقة، لكن القوات الديمقراطية السورية المدعومة من الولايات المتحدة، والتي تسيطرُ على المخيمات، لا تسمحُ لأيّ شخصٍ بالمغادرة. الكثير مِمّن قابلتهم في مدنٍ تركية مثل كيليس وأورفا وهاتاي والريحانية تمكّنوا من الفرارِ في وقتٍ مُبكّر.

معمر الحميد مهندسٌ زراعي عاشَ تحت حُكمِ داعش في الميادينِ لأكثرِ من عامين. هربَ إلى مدينة كيليس الحدودية في تركيا. أخبرني «كنا نعاني من نوعين من الإرهاب؛ على الأرض، كان علينا أن نواجه وحشية داعش». ومع ذلك، قال: «يجبُ ألا ننسى إرهاب روسيا والنظام السوري والتحالف الذي تقوده الولايات المتحدة. في غارةٍ جوية واحدة فقط، قتلوا أكثر من مائة مدني. لم تقتل داعش هذا العدد من الناس خلال الفترة التي حكموا فيها الميادين». قال السوريون الذين فرّوا من المدينة الشرقية إن مدينتهم قد أصبحت مدينة أشباح. كثيرٌ ليس لديهم خطط فورية للعودة. تمكّن الحميد وعائلته من الفرارِ من الحربِ المستمرة في المناطقِ التي تسيطرُ عليها داعش، لكن لا يزال كثيرون آخرون محاصرين. إنهم يخشون أنه إذا تمّ هزيمة داعش، فلا يوجد ضمان بأنّ النظام لن يُعاقبهم جماعيًا.

بعد زوالِ داعش، تمّ إعادة تأهيل بعض مقاتليها السابقين في سوريا. كان صبي سوري يبلغُ من العمرِ 14 عامًا قد خرج لتوّه من مركزِ التأهيلِ الوحيد في البلاد، ويعودُ تدريجيًا إلى الحياة كما كان يعرفها. كان خليل عبد الغفور طفلاً عندما أُجبر على الانضمامِ إلى داعش. بعد هزيمته، التحق بالمركز وتلقى دروساً في مكافحة الغلو والتطرّف. كان يتخرّجُ في اليومِ الذي التقيته فيه. قال لنا: «سأتذكّرُ دائمًا الأيام الجميلة التي قضيتُها مع الرجالِ هنا. من الصعبِ مغادرة هذا المكان بعدَ قضاءِ تسعة أشهر مع هؤلاء الأصدقاء. جزى الله خيرًا الناس الذين ساعدونا في هذا المركز».

كان خليل واحدًا من أكثرِ من مائة رجلٍ يتلقون دوراتٍ تدريبية هناك. حيث أصبح يُدركُ تمامًا كيف أساءت داعش استخدامه. وأوضحَ أنّ «أهم شيء تعلّمته في هذا المكان هو أنّه لا ينبغي لأبي بكر البغدادي أو أتباعِه أن يختطفوا عقولنا. نحن ببساطة لا نعرفهم، ولا ماذا يمثلون، ولا من أين أتوا. أخطط للعودة إلى الحياة الطبيعية والانضمام إلى مدرستي». لقد أعطى المركز الأمل للعديد من العائلات مثل خليل.

أخبرنا والده أنه سعيدٌ بعودته. «الشكر لله. بعد تخرجه، أصبح خليل مختلفًا تمامًا. إنه يتعاملُ مع الناسِ بطريقةٍ جيدة. لم يعد لديه عقلية مريضة وأيديولوجية مُتطرفة». وأضافَ أنه يأملُ أن يعودَ ابنه إلى المدرسة ويتابع ما فاته. «سنقومُ بالتسجيلِ للصف التاسع، فهو ما يزالُ مراهقًا. لقد خدعوه وجعلوه يتّبعُ طريقهم». أكثر من مائة من مقاتلي داعش السابقين مثل خليل يتم دمجهم في مجتمعاتهم. يقولُ الموظفون في المركز إنه ربما يوجد آلاف آخرون في سوريا ولكن لن يتمكنوا من الوصولِ إليهم.

رحلتي إلى الصومال

من المعروفِ أنّ الصومال عانى من سلسلةٍ من حالاتِ الجفاف والهجمات المُدمّرة من قِبل حركة الشباب الإرهابية، والتي قتل فيها مئات الآلاف من الناس. غطّيتُ أعمال مجموعة إغاثية كانت تُحدِثُ فرقًا كبيرًا بالنسبةِ للعديدِ من الصوماليين الذين فقدوا عائلاتهم ومنازلهم. تم توفير المأوى والطعام للأطفالِ الصوماليين في دارِ الأيتام هذه. كان أسامة عثمان علي أحد هؤلاء الأطفال في المخيم. لقد فقد والده المريض قبلَ أربعِ سنوات، لأنه لم يكن هناك دواءٌ مُتاح لعلاجه. الآن يعيشُ علي في دارِ الأيتام مع إخوته وأخواته. يتم تقديمُ وجباتِ الطعام الخاصة بهم عن طريقِ الهلال الأحمر التركي. أخبرني علي، «بالطبع، أنا سعيدٌ لأنني هنا أحصلُ على طعامٍ لذيذ. أودُّ حقاً أن أشكرَ هؤلاء الأشخاص من تركيا الذين أتوا إلى هنا لمساعدتي أنا وأصدقائي».

كان الصومال يواجِهُ مجاعة ثالثة منذ خمسة وعشرين عامًا. مات أكثر من ربعِ مليون شخص في آخرِ مرة. عندما وقعت الكارثة في عام 2011، كان الهلالُ الأحمر التركي من

أوائـل مجموعـات الإغاثـة الدوليـة التـي قدمـت المسـاعدات حيـث لم يغـادر الصومـال منـذ ذلـك الحـين. هـذا واحـدٌ مـن سـتة وعشريـن داراً للأيتـام يقـدّمُ فيـه الهـلال الأحمـر الـتركي وجبـاتٍ يوميـة. الأطفـال موجـودون هنـا مـن أجـلِ الحصـول عـلى التعليـم، ولكـن الحاجـة الأكـثر إلحاحًـا هـي الغـذاء. لـدى 22 عامـلاً صوماليـا بوظائـف في المخابـز والمطبـخ. يخبـزون 4000 رغيـف خبـز يوميًـا ويوزعونـه عـلى النازحـين. كـما يقومـون بمسـاعدة 75 ألـف شـخصٍ يعيشـون الآن عـلى مشـارفِ مقديشـو حيـث فـرّوا مـن الجفـاف أو مـن هجـمات مـن قِبـل جماعـة الشـباب.

حسـن شـيخ عمـر هـو طبـاخٌ يعمـلُ مـع الهـلال منـذُ سـتة أعـوام. قـال «أعمـلُ عـلى مسـاعدةِ الصوماليـين ضحايـا الحـرب والمجاعـة. هـذا الخبـزُ السـاخن يجعلُهـم سـعداء حقًـا». كـما يقـومُ عمـر وزمـلاؤه بالطهـي مـن أجـلِ الأطفـالِ في دارِ الأيتـام، لكـن قريبًـا سـيكونُ لديهـم الكثـير مـن العمـلِ للقيـام بـه. أخبرنـا فاتـح جوليتـش، منسّـق الهـلال، «نحـن نوفـرُ الطعـام لنحـو خمسـة ألاف يتيـم. في الأشـهرِ المقبلـة، لدينـا خطـط للوصـول إلى 20 ألفـاً. كـما تـرى، الظـروف مروّعـة حقًـا. فقـد الأطفـال أسرهـم بسـببِ الحـربِ المسـتمرة. إنهـم بحاجـة إلى المسـاعدة».

الطبيعـة الأم لم تكـن لطيفـة مـع الصومـال. يتذكـرُ النـاس هنـا كيـف جـاعَ أقاربهـم حتـى المـوت في المجاعـاتِ السـابقة. لـن يحـدثَ هـذا لهـؤلاءِ الأطفـال، لأنّ لديهـم جمعيـات تقـدّم لهـم المسـاعدة، ولكـن إذا لم تنضـم المزيـد مـن وكالاتِ الإغاثـة إلى هـذه الجهـود، فمِـن المؤكّـد أنّ الكثـير مـن النـاسِ سـيموتون.

الصحفيون والقصص الإنسـانية

في علاقتنـا «التكافليـة»، يصبـحُ عـمال الإغاثـة مصـادر، ومحرريـن ينتقـون مـا يجـبُ تغطيتـه مـن أخبـار، وعيونـاً مفتوحـة للصحفيـين. غالبًـا مـا يشـتكي عـمّال الإغاثـة مـن عـدمِ فهـمِ الصحفيـين لتعقيـدات القضايـا الإنسـانية التـي يتناولونهـا. كـما يكرهـون مـا يعتبرونـه تغطيـة غـير كافيـة لأنشـطتهم. معظـم الصحفيـين الذيـن يقومـون بتغطيـةِ الأزمـات الإنسـانية

عموميـون؛ عـددٌ قليـلٌ منهـم مراسـلو حـرب. لذلـك مـن المؤكـد أنّ البعـض ليسـوا مُسـتعدّين لفهـمِ العـدد الـذي لا يُحـصى مـن التقنيـات والـضرورات في عمليـة المسـاعدات، ومعظمهـم لا يُقـدّرون التفاصيـل الدقيقـة للآثـارِ الاجتماعيـة والثقافيـة والسياسـية للتدخـلِ الإنسـاني، عـلى الرّغـمِ مـن أنّ هـذا هـو المـكان الـذي توجـدُ فيـه القصـص غـير المسـتغلة في معظـمِ عمليـات المسـاعدات.

يتطلّـبُ مـشروع «سـفير»، الـذي يحـدّدُ معايـير عمليـات الإغاثـة، أن يكـون عـمّال الإغاثـة عـلى معرفـة بثقافـة وعـادات السـكان المُتضرّريـن مـن الكـوارث. ولكـن في رأيـي يجـبُ أن ينطبـقَ هـذا المعيـار أيضًـا عـلى الصحفيـين. الصدمـة والظـروف القاسـية تتطلـبُ حساسـية كبـيرة. بعـد قـولي هـذا، وجـدتُ أنّ معظـمَ عـمّالِ الإغاثـة سـينهالون بالـشرحِ عـمّا إذا كان الصحفـي يسـتغرقُ وقتًـا لإظهـارِ التعاطـف وبعـض الوعـي الأسـاسي بمـا تنطـوي عليـه مهامهـم.

عرائس سوريا في البقاع

بقلم ماري صليبا

أطفال سوريون بالقرب من مكب النفايات في مخيم للاجئين السوريين في منطقة سهل البقاع، شرق بيروت في لبنان بتاريخ 12 آذار 2017.

المقدمة

سأكون مفترية إذا كتبتُ عن اللاجئين السوريين عن بُعد، باستخدامِ المفاهيمِ الموضوعيّة الصحفية والتقاريرِ الإخبارية. لم يكن هذا هو الحالُ على الإطلاق خلال زيارتي للبنان في ربيعِ عام 2014، عندما التقيتُ عدداً من اللاجئين السوريين وأجريتُ مقابلاتٍ معهم أثناءَ العملِ في مؤسسةٍ إخبارية بارزة في المنطقة. كان زملائي يُصمّمون موقعًا تفاعليًا للشبكة يروي القصصَ الشخصية للاجئين السوريين الذين فرّوا إلى لبنان من سوريا. كان البعضُ يفرّون من العنفِ الذي اندلعَ مع الثورة السورية، بينما هربَ البعضُ الآخر لأنهم فقدوا منازلهم، وخطّط آخرون للعودة لمحاربةِ الحكومة السورية. انضممتُ إلى مهمةِ إنتاجٍ ميداني حيث ظنّ زملائي أنه باستطاعتهم الاستفادة منّي للتواصلِ مع اللاجئين أثناء المقابلات، بالنظر إلى أصولي السورية.

كان تعـرّفي وتفاعـلي مـع اللاجئـين السـوريين في لبنـان مـن التجـاربِ العاطفيـة والشـخصية للغايـة. والـدتي سـورية، وُلِـدتْ في أوائـل الخمسـينيات مـن القـرن المـاضي في بلـدةٍ مسـيحية صغـيرة تدعـى زيـدل الواقعـة في محافظـة حمـص. كانـت مدينـة حمـص مـن أوائـل المـدن التـي انتفضـت ضـد الرئيـس السـوري بشـار الأسـد في أوائـلِ عـام 2011. وبحلـولِ أواخـرِ الخمسـينيات مـن القـرنِ العشريـن، كانـت عائلـة والـدتي قـد انتقلـت إلى وادي البقـاع في لبنـان عندمـا كانـت في السادسـة مـن عمرِهـا، إلى مدينـة مسـيحية أخـرى، زحلـة، التـي تُعـرَفُ باسـمِ «عـروسِ البقـاع».

مثـلَ العديـدِ مـن العائـلاتِ السـورية الأخـرى قبـل الحـربِ الأهليـة في لبنـان عـام 1975، انتقـلَ الكثـيرُ مـن السـوريين إلى البقـاع الغنـي بالزراعـة. والمعـروف أنهـم مزارعـون ناجحـون، وبطبيعتهـم مترابطـون ومحبّـون، فقـد اندمجـوا بشـكلٍ طبيعـي في المشـهدِ اللبنـاني. اشـتهرَ السـوريون بأنهـم مـن العـمال الصادقـين والمهـرة، وأخـذوا وظائـف مختلفـة في البنـاء، والضيافـة، وكذلـك الفنـون والحـرف. شـخصيتهم الذواقـة وطبيعتهـم العاطفيـة والموسـيقية جعلتهـم ملائمـين للبنـان بشـكلٍ عـام. هـذا الشـغف والإشراق وحـب التجمعـات الموسـيقية كان موضِـعَ ترحيـبٍ حـار في مدينـة زحلـة.

كانـت هـذه الخلفيـة الأيقونيـة هـي المـكان المثـالي لـزواجِ والـديّ السـري والسريـع في صيـف عـام 1976. ومثـل العديـد مـن الفتيـات السـوريات، كانـت أمـي معروفـة بجمالهـا، وقـد لفتـت نظـر والـدي عندمـا كانـت مراهقـة صغـيرة. كان الـزواجُ مثـيرًا للجـدل لأنّ والدهـا لم يوافـق عـلى ذلـك لدرجـة أنّـه اتهـم والـدي بخطـف والـدتي. لكـن بالنسـبة لأمـي، كانـت موافقـة عاطفيـة؛ لأنهـا في خضـمِّ المثاليـة السـاذجة والرومانسـية، أرادت بشـدة هـذا الرجـل اللبنـاني الديناميـكي والقـوي البنيـة.

في الخمسـينيات والسـتينيات، سـافرت العائـلات ـ مثـل عائلـة والـدتي ـ ذهابًـا وإيابًـا بـين لبنـان وسـوريا بسـهولة وبشـكلٍ مُتكـرّر. كان الـركابُ يسـافرون بالحافلـة العامـة، حيـث كان الطريـقُ يسـتغرقُ أقـلّ مـن سـاعتين مـن كلا الطرفـين. كان هنـاك حافـلات تنقـلُ النـاسَ يوميًـا مـن زحلـة إلى دمشـق وحمـص. كان التنقـلُ والعبـورُ والعـودة أمـرًا طبيعيًـا، مـما تسـبّبَ في هجـرةٍ طبيعيـة وتـزاوجٍ مـع اللبنانيـين، حيـث اسـتقر العديـد مـن الأسرِ السـورية في زحلـة، وشـاهدت أطفالهـا يكـبرون ويتزوجـون مـن عائـلات لبنانيـة مثلـما فعلـت والـدتي وشـقيقتها. يعكـسُ التدفـق هـذا بـين الحـدودِ علاقـة مُتناغمـة بـين السـوريين واللبنانيـين، ولكـن مـع

أحداثٍ مثل الحرب الأهلية في لبنان وتدفق اللاجئين السوريين بعد عام 2010، انقلبت الضيافة اللبنانية إلى الشكوك والعدوانية.

خلال زياراتي الدورية إلى لبنان من الدوحة بين عامي 2010 و 2015، استمرّ عدد اللاجئين السوريين في الازدياد، ممّا جعل شكاوى اللبنانيين أعلى وأكثرَ استياءً. ادّعى بعض اللبنانيين بأنّ «الحكومة اللبنانية كانت تقدمُ كلّ شيء للسوريين»، بينما كانوا هم في أمس الحاجة إليها. في عام 2014 كان هناك استياء علني تجاه اللاجئين السوريين في زحلة، حيث كان اللاجئون يجلسون في منازل لبنانية مهجورة، بعضهم لا يدفعُ الإيجار، بينما كانوا يحصلون على قسائم غذائية من الأممِ المتحدة ومنظماتٍ غير حكومية.

شعرتُ بخيبةِ أملٍ بعدَ أن شاهدتُ هذا الكم من العداء اللبناني، وأجبرتُ نفسي على التزامِ الصمتِ في مواجهة الشكاوى القاسية التي وُجّهت ضد السوريين. لا يبدو أنّ أحداً في زحلة يتعاطف، وهذا ما جعل بعض الأسئلة البلاغية تدورُ في رأسي: ألم نكن نحن جميعًا شعبًا واحدًا؟ ألم نكن جميعاً سورية الكبرى منذُ وقتٍ ليس ببعيد؟

اللاجئون السوريون في مشهد لبناني

بدأنا مهمتنا في وادي البقاع، خارج زحلة حيثُ التقينا امرأةً سورية تبلغُ من العمرِ 22 عامًا وطفلها الصغير يعيشان في مأوى يوفره المجلس النرويجي للاجئين. كان من الصعبِ تحديد المركز لعدم وجود لافتات تشيرُ إلى أنه كان منطقة آمنة. أخبرنا أحد مُمثلي مجلس اللاجئين النرويجي أنهم يريدون الحفاظ على مكانهم هادئًا لحماية اللاجئين من التعرّضِ للهجمات واستغلالِ العمال والمضايقات من قبل السكان اللبنانيين المحليين.

قابلتنا المرأة وهي ترتدي بنطالاً أسود، وقميصًا ذا أكمامٍ طويلة وكان حجابها أسود أيضًا. كان لديها ابتسامة عريضة وشخصيتها كانت مرحة. كانت مُتحمّسة للقاء صحفيين والحديث إليهم بقصتها. كانت تعيشُ هنا في هذه الغرفة العارية غير المفروشة مع طفلها البالغِ من العمرِ عامين. لم أستطع رؤية أيّ أثاث أو حمام، ولم يكن هناك مطبخ،

ولكـن كان هنـاك مغسـلة وموقـد كهربـائي صغـير محمـول كانـت تسـتخدمُه لغـلي المـاء. أحـضرت لنـا الشـاي والمـاء عـلى صينيـة فضيـة اللـون؛ كنـا نجلـسُ بالفعـلِ عـلى الأرض ووضعـت الصينيـة بيننـا ثـم جلسـت. ذكّـرني المشـهد بجـدتي السـورية، وهـي تـشربُ الشـاي عـلى أرضيـة غرفـة المعيشـة أثنـاء نشـأتها في سـيدني في أسـتراليا حيـث انتقلنـا.

أعربـت الأم الشـابة عـن سـعادتها لكونهـا محميّـة مـن قِبـل المجلـس النرويجـي للاجئـين. وقالـت إنّ الموظفـين يخططـون لتزويدهـا بالمهـاراتِ والتدريـب مـن أجـلِ دعـمِ اللاجئـات الأخريـات، وسـيعلّمونها اللغـة الإنجليزيـة. كانـت مُتحمّسـة بشـكلٍ واضـح لتعلّـمِ اللغـة الإنجليزيـة؛ كانـت مُتحمسـة للغايـة وأعربـت عـن حماسِـها واسـتعدادها لتمكـينِ المـرأة في مواقـف مُماثلـة.

اسـتمرّ حماسـها حتـى سـألها زميـلي عـن مـكانِ زوجهـا. أخبرتـه أنّ زوجهـا كان غاضبًـا جـدًا معظـم الوقـت، وأنـه لم يتمكـن مـن العثـورِ عـلى عمـلٍ في لبنـان. لقـد اختفـى لعـدة أيـام في كلّ مـرة، ولم تكـن تعـرفُ مـكانَ وجـوده ومـا الـذي يفعلـه أو مـن كان معـه. عندمـا يعـودُ إلى مركـز اللاجئـين، يكـون عدوانيًـا، وإذا اسـتجوبته عـن مـكانِ وجـوده، كان يضربهـا. توالـت الدمـوع عـلى وجههـا ودمّعـت أعيننـا أيضًـا. لقـد اسـتمعنا بصمـت. قالـت إنـه لم يكـن هكـذا في سـوريا، وأنـه قـد تغـير كثـيرًا منـذ قدومهـم إلى لبنـان كلاجئـين.

تركنـا هـذه الأم الشـابة وانتقلنـا للقـاءِ لاجـئ سـوري كان يعمـلُ في منظمـةٍ غـير حكوميـة لبنانيـة لحقـوقِ الإنسـان، تُدعـى إنسـان. كان لـدى هـذا الرجـل تعليـم عـال ويتحـدثُ الإنجليزيـة جيّـدًا. قابلنـاه في مقهـى في زحلـة حيـث حدّثنـا عـن بعـضِ تجـاربِ اللاجئـات السـوريات في لبنـان. كانـت إحـدى القصـص المرعبـة قصـة أم سـورية وابنتهـا البالغـة مـن العمـرِ سـتّ سـنوات. تعرّضـت الطفلـة للاعتـداء الجنـسي والاغتصـاب مـن قِبـل رجـلٍ لبنـاني يكبرهـا سـنًا. وكان مالـك الشـقة التـي كانـوا يعيشـون فيهـا. كانـت الأم عـلى علـمٍ بإسـاءة معاملـة طفلتهـا لكنهـا ظلـت صامتـة، مُترددة في تقديـمِ تقريـرٍ للشرطـة فالرجـل ألغـى رسـوم الإيجـار. عندهـا شـعرتُ بالغضـب وشـعرتُ بالعجـزِ رغـمَ معرفـةِ أنـه حتـى منظمـة إنسـان كانـت عـلى علـمٍ بهـذا الأمـر والعديـد مـن الحـوادثِ المماثلـة، لكـن لم يكـن لديهـا القـدرة عـلى حمايـةِ الأطفـال أو مقاضـاةِ الجنـاة بسـببِ فشـلِ النظـامِ القضـائي اللبنـاني.

المسيحيون والمسلمون تحت سقف واحد من الحب

بينما كان معظم اللبنانيين في البقاع معادين لجميعِ اللاجئين السوريين، كان المسيحيون معادين بشكلٍ خاص للاجئين المسلمين. كانت زحلة على وجهِ الخصوص فخورة بثقافتها المسيحية بصلبانٍ كبيرة وتماثيل بالحجمِ الطبيعي تصطفُّ على شوارعها، مما يشيرُ إلى مدى هيمنة الثقافة المسيحية في زحلة وأنها ستبقى على هذا النحو.

ومع ذلك، كان هناك استثناءٌ واحد لمثلِ هذا العداء ـ أسقف كاثوليكي يوناني يُدعى عصام درويش، والذي وُلد في دمشق في سوريا، لكنه خدمَ الكنيسة بشكلٍ رئيسي في لبنان. أردتُ زيارة كنيسته في زحلة بعدما سمعتُ أنه كان يقدّمُ مساعداتٍ إنسانية لجميعِ اللاجئين السوريين، بغضّ النظرِ عن دينهم. لقد تذكرته منذ طفولتي حيث قضى بضعَ سنواتٍ في سيدني وهو يعملُ في كنيسة كاثوليكية يونانية لبنانية ينتمي إليها أقربائي.

بعد عودته إلى لبنان، اكتسبَ درويش شهرة لكونه إنسانياً ودبلوماسيَّ سلامٍ إقليمي ومعلماً. في دولة طائفية ومُسيّسة بشكلٍ كبير مثل لبنان، كان استثنائياً في تقديمه المساعدات والدّعمِ لأيّ شخصٍ مُحتاج، ولم يميّز ضد أي دين.

عند وصولي إلى كنيسته في زحلة خلال زيارتي لعام 2014، رصدتُ العديد من الرجالِ وهم ينقلون فرشاً من شاحنة إلى الفناء. اقتربتُ من رجلٍ واحد كي أسأل عن ماذا كانوا يفعلون. وأوضح أنه تم تسليم الفرش ومواد أخرى مثل البطانيات والألعاب للاجئين السوريين. عندها وجدتُ نفسي في حيرة من أمري، حيث لاحظتُ علامة الإغاثة الإسلامية على سترته التي كان يرتديها، ورأيت من على مسافة زوجين مسلمين يسيران إلى مكتب الكنيسة.

شرح لي درويش لاحقًا أنّ المؤمن الحقيقي بالله لا يفرّق بين معتقدات الناس. لقد كان فخورًا وحازمًا للغاية أثناء تنسيقه مع منظمة الإغاثة الإسلامية حول تقديمِ المساعدات الإنسانية للاجئين السوريين في زحلة ووادي البقاع. كما أكّد أنّ كنيسته مفتوحة أمام كلّ شخص، وأنه كان بنفسه مُلتزِمًا بتقديم المساعدات، خاصّة للمسلمين المُحتاجين.

بين عالمين: الوقوف عند معبر زحلة - دمشق

لقد تواصلتُ مع زملائي في وسطِ مدينة زحلة حيثُ كان من المقرّرِ أن نزورَ جزءًا آخرَ من الوادي المتاخم لسوريا والأقرب إلى دمشق. كان زملائي قد سمعوا عن زوجين عجوزين يعيشان هناك وكانا يعانيان من مرضٍ شديد وإهمالٍ طبي. ركبنا في الشاحنة وقلت وداعًا لبلدة والدي زحلة ولأقربائي هناك. كانت زياراتي لزحلة دائمًا مشحونة عاطفيًا، لكن في كلّ مرة غادرتُ فيها، حملتُ معي شعوري بالانتماء.

بعد وصولنا واستعداد زملائي لزيارة الزوجين المسنين، كنتُ لا أزالُ مُنفعلة عاطفيًا لمغادرةِ زحلة، وقلتُ لهم إنّني سأستغرقُ بضع دقائق قبل الانضمامِ إليهم. في تلك الأثناء، لاحظتُ بعض النساء المُسنّات يمشين على الطريق. عندما اقتربتُ منهن، استطعتُ أن أرى أنهن يظهرن منهكات. كانت ملابسهن مُتّسخة وشعورهن غير مغسولة وبشرتهن غير نظيفة، ومع ذلك كانت نضارة الشباب على وجوههن. اقتربتُ منهن وأنا أتحدّثُ باللغة العربية. كانت السيدة الأكبر سناً تستجيبُ بحرارة وهي أخبرتني على الفورِ أنها أتت للتوّ من دمشق.

سألتها، «هل أنتِ لاجئة؟ أجابت المرأة: «نحن كنا دائمًا نخرجُ من لبنان ونعود إليه، لكن الآن مع المشكلات في سوريا، نأتي أكثر، لدينا أوراق لبنانية.« لم تكن تحملُ شيئًا، ولا حتى حقيبة. أشارت إلى فتاة بدت في سن الرابعة عشرة والتي كانت تحملُ طفلاً عمره عام واحد قائلة: «هذه هي ابنتي وهذا حفيدي».

بدأتُ بالانفعالِ أكثر. لمستُ يد الطفل محاولة تجاهل حالته غير الصحية ونقص النظافة. كان الجوّ مُشمسًا وحارًا جدًا في الصباح حيث تراكمَ العرقُ على وجوهنا. وبينما كنتُ ألاعبُ الطفلَ، قالت المرأة الأكبر سناً عن ابنتها، «لقد زوّجتُها عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، حتى قبل أن تبلغ الثالثة عشرة».

شعرتُ بالارتباكِ العاطفي. اعتقدتُ أنّ الجو كان حارًا، لكن عقلي يرجع إلى والدتي في سيدني، وحالتها الحزينة الحالية على أخي الذي توفي فجأة في حادثٍ العام الماضي.

تخيّلتُ أمي كزوجة سورية شابة تحملُ أخي السمين عندما كان طفلاً. لقد شعرتُ بالألمِ في قلبي لفقدانِ والدتي وألمها ومحاكماتها وفقدانِ شبابها، بعد أن أنجبت إخواني وأخواتي الأربعة في سنّ العشرين.

الألم الجماعي والحداد لهؤلاء النساء السوريات وجميع هذه العائلات اللائي في حداد على حياتهن وشبابهن ووطنهن وأزواجهن، كلّ هذا جعلني أبكي. بينما وقفتُ عند هذا التقاطعِ بين لبنان وسوريا، مع أفكارِ اليأس العاطفي لوالديّ، بكيتُ على كل حزنِ الأسر التي فقدت أطفالها في ظروفٍ غير عادلة ولكل العائلات التي كانت تعاني، سواء أكانت لبنانية أم سورية.

مقاتل المعارضة السورية في شمال لبنان

بدأنا رحلتنا إلى شمالِ لبنان باتجاه طرابلس حيث قمنا بزيارة مُخيّم للمُفوضيّة السامية للأممِ المتحدة لشؤونِ اللاجئين ومقابلة اثنين من المقاتلين السوريين. الأوّل كان عضوًا في الجيشِ السوري الحر، الذي كان يحاولُ الإطاحة بالدكتاتور السوري بشار الأسد وإقامة سوريا ديمقراطية. لم يكن فقط من مسقط رأسِ والدتي في حمص، لكنه كان يمتلكُ أحد المقاهي الحديثة المُزدحمة هناك، مقهى بلو ستون، الذي قمتُ بزيارته عدة مرات مع أقربائي.

كان شعر أبي صالح أشقر وكانت عيناه كبيرتين زرقاويتين. عندما دخلنا الشقة كانت ملجأ له ولعائلته، كان الترحيب والدفء مع كرمِ الضيافة السوري المعروف. المثيرُ للدهشة أنه كان منزلًا طبيعيًا، ولم أشعرُ أنني كنتُ بين المقاتلين. كانت غرفة الجلوس نظيفة حيث جلستُ مع زملائي على كراسٍ خشبية. كان أطفال أبي صالح هناك، وكانت زوجته الصغيرة تُعدّ طعام الغداء في مطبخٍ صغير.

جلسَ ابنه الأصغر محمود البالغ من العمرِ عشر سنواتٍ معنا. قدمني زميلي وقال إنني لبنانية أسترالية وإن أصل أمي من حمص. أضاءت عينا أبي صالح وقال باللغة

العربيـة، «أعـرف فـيروزة جيـدًا. وقـال إنّ المقهـى الـذي كان يمتلكـه هنـاك قـد ذهـب منـذ الحـرب».

تحدثنـا عـن حمـص، وكيـف ذهبـتُ إلى هنـاك مـع والـدتي عـدة مـرات. تحدثنـا عـن الحلويـات وعـن دفء الثقافـة المحليـة. كان الأمـرُ مثـل التحـدّثِ مـع أحـدِ الجـيران أو مـع صديـقٍ قديـم للعائلـة. لم يكـن هنـاك شيء عنيـف فيـه أبـدًا. لقـد بـدا أنـه أبٌ مُحـبٌ، وزوجٌ مسـؤول وعضـوٌ مهـمٌ في المجتمـع. كان الجـو حميميًـا وشـعرتُ أننـي في منـزلي. بـدا أبـو صالـح مُرتاحًـا وسـعيدًا لاسـتقبالنا.

سـألنا أبـا صالـح أولاً كيـف أصبـحَ مُقاتـلاً في الجيـش السـوري الحـر، فقـال «عندمـا بـدأت الثـورة سـمعنا أنّ الجنـود السـوريين يهاجمـون ويغتصبـون النسـاء في حمـص». «جننـتُ عندمـا سـمعتُ ذلـك، تركـتُ كلّ شيء. كنـتُ أعلـمُ أنـه كان عـليّ القتـال مـن أجـلِ حمايـة أخـواتي مـن هـذا الرعـب». لقـد سـمعَ أنّ جنـود الحكومـة السـورية كانـوا يعذّبـون النـاس. «لـن أتـركَ هـذا يحـدث لشـعبي»، قـال هـذا بشـكلٍ مثير وصـارم.

خرجـت زوجتـه مـن وراءِ السـتار الـذي كان يفصـلُ الغـرفَ عـن بعضهـا. بـدت فخـورة بخيـارات زوجهـا. كان مـن الواضـحِ أنهـا نظـرت إليـه عـلى أنـه بطـل وشـخصٌ شريـف في مجتمعهـم السـوري. سـألها زميـلي عـمّا إذا كانـت توافـقُ عـلى قـرارِ زوجهـا. قالـت «نعـم، قـام بذلـك لوجـه الله».

«هـل حصلـتَ عـلى أيّ تدريـبٍ عسـكري؟» أكـد أبـو صالـح أنـه أتـمّ الخدمـة العسـكرية الإلزاميـة عندمـا كان أصغـرَ سـنًا. قـال بثقـة «أعـرفُ كيـف أسـتخدمُ السـلاح». سـألته لمـاذا جـاء إلى لبنـان، ومـاذا كان يفعـلُ هنـا. «عندمـا كنـا نقاتـلُ استُشـهد أخـي. وفي المعركـة نفسـها، أصيبـت ذراعـي»، قـال لنـا، وهـو يُظهِـرُ لنـا تشـوّه سـاعده، الـذي كان لا يـزالُ أحمـر متورمـاً. أخبرنـا أنـه جـاء إلى هنـا لإجـراءِ عمليـة جراحيـة في مستشـفى لبنـاني، وأنـه بمجـرّد شـفاء ذراعـه، يخطّـط للعـودة إلى حمـص لمواصلـة القتـالِ مـع الجيـش السـوري الحـر. «وسـوف آخـذ محمـود ليحـارب معـي، وإذا شـاء الله، فسـيكون شـهيدًا».

لقـد كنـتُ مصدومـة وفي حـيرة عندمـا سـمعتُ هـذا. طلبـتُ منـه أن يُكـرّر مـا قالـه للتـو عـن ابنـه البالـغ مـن العمـر عـشر سـنوات. بـدأتُ أشـعرُ بالارتبـاك والغضـب تجـاه الأب، لكننـي ظللـتُ صامتـة. التفـت زميـلي إلى الصبـي وقـال: «واو. أنـت تريـدُ القتـال، أليـس كذلـك؟»

ابتسمَ محمود وقال بكلّ فخرٍ نعم، أومأ بطريقة تشبه الرجل. أخبرنا أبو صالح أنّ محمود يعرفُ كيف يستخدمُ السلاح. كانوا سعداء بخطّتهم البطولية لمحاربةِ حكومة قمعيّة وللدفاعِ عن الشعب السوري.

عدنا بعدها للأسئلة الموضوعية للمقابلة، سألتُ أبا صالح، «لماذا تفكّرُ في القيامِ بذلك؟ لماذا تريدُ العودة والقتال؟ ماذا لو حدث لك شيء؛ من سيعتني بزوجتك؟ لديك أطفال، وفقدت أخاك بالفعل. ومحمود يبلغ من العمرِ عشر سنوات فقط؛ لديه حياته كلها أمامه. لماذا تريدُ أن تأخذ ذلك؟» قلتُ إن الأمرَ لا يستحقُّ حياة ابنك، فهذه الحرب مجنونة!

نظرَ أبو صالح إليّ بهدوء وعمق. تعاطفي قد لفت انتباهه. سألته: «لماذا لا ترى ما إذا كان يمكنك الحصول على تأشيرة إنسانية والتقدم بطلبٍ للحصول على لجوء في مكانٍ آخر مع عائلتك، وربما يمكنك بدء حياة جديدة؟»، بدأتُ بإقناعه، «أطفالك وزوجتك ما زالوا في أوّل عمرهم. لا تعد إلى سوريا للقتال». رفع أبو صالح حاجبيه، كما لو أنه لم يكن يعرفُ هذه الاحتمالات من قبل. «حقا؟ هل تعتقدين أنهم سوف يمنحونني تأشيرة لنقل أسرتي إلى بلدٍ آخر» سأل وعيناه الزرقاوان مبتهجتان كلهما.

«نعم، يجب أن تحاول. يجبُ أن تعرفَ ما إذا كان يمكنك بدء حياةٍ جديدة مع عائلتك بعيدًا عن هذه الحرب. قلتُ له: لن تنتهي هذه الحرب قبل فترة طويلة طويلة ومن يدري ماذا سيحدث لسوريا». أومأ صديقه محمد في انسجامٍ معي وقال: «نعم هذه الحرب مروّعة، لقد دمّرت حياتنا». لقد تغيّر المزاج في الغرفة إلى الصمت والتفكير؛ لقد خفّ دافعُ القتالِ الآن من أجلِ ثورة.

في تلك اللحظة، تذكرتُ لماذا كان يكره والدي اللبناني الحكومة السورية، مثل العديد من اللبنانيين من جيله. لقد نظروا للنظام السوري على أنه سلطوي، لا يخنقُ السوريين وحدهم، بل اللبنانيين أيضًا، ويحرمهم من حرّياتهم الشخصية. كنتُ أعرفُ أيضًا أنّ والدي الذي عادَ إلى سيدني لن يوافق على أن يجلسَ في منزلِ أبي صالح، وهو مقاتلٌ غيرُ شرعي يخطّط لاستشهاد طفله واستخدام لبنان كملاذٍ آمن ومستشفياته للتعافي أثناء التّخطيط لمرحلةِ الحرب القادمة.

عـادت أفـكاري إلى غرفـةِ الجلـوس عنـد أبي صالـح. كان هنـاك صمـتٌ قصـير لكننـا اتفقنـا جميعًـا عـلى أننـا نتـوقُ لأن تعـود سـوريا لمـا كانـت عليـه مـن قبـل؛ جميعنـا نريـدُ انتهـاء الحـرب. بدأنـا نقـولُ وداعًـا ونقـدّم الشـكر لكـرمِ الضيافـة. قبّلـتُ الزوجـة مـن وجنتيهـا، وصافحـتُ محمـداً، وحدّقـتُ في محمـود، الطفـل المُحبـب ذي المظهـرِ الجميـل، والـذي كان يرتـدي سـترة ضيّقـة، وتسـاءلتُ عـن مصـيره.

المقاتل السـوري في طرابلس

عندمـا عدنـا إلى شـاحنتنا، اعترفـتُ لزمـلائي بمشـاعري وغضبـي تجـاه أبي صالـح الـذي كان يُفكّـرُ في جعـلِ ابنـه شـهيدًا. لقـد كان لزمـلائي خـبرة أكـثر بكثـيرٍ منـي في هـذا المجـال وفي هـذه المنطقـة، وبـدا أنهـم أقـلّ تأثـرًا. انطلقنـا للقـاءِ مقاتـلٍ سـوري آخـر، هـذا المقاتـل كان يقاتـلُ مـع جبهـة النـصرة، وهـي جماعـة كانـت فرعًـا لتنظيـمِ القاعـدة الإرهـابي.

أخـذ السـائق العديـد مـن المنعطفـاتِ المُتعرّجـة قبـل دخولنـا إلى حـي منعـزل. لم تُرمَّـم المنـازل منـذ أيـامِ الحـرب الأهليـة في لبنـان. كانـت هنـاك جـدرانٌ مهجـورة وآثـار واضحـة مـن الرصـاصِ الكبـير. كانـت الجـدران الخرسـانية مـن بقايـا منـزلِ شـخصٍ مـا؛ كانـت المبـاني العشـوائية تشـبه مـدن الصفيـح. لم أكـن عـلى درايـة كاملـة حـولَ تفاصيـلِ المـكان الـذي كنـا فيـه أو بالضبـط مَـن هـم الذيـن سـنلتقيهم. انتظرنـا في الشـاحنة التـي كانـت متوقفـة في الشـارع أمـام مجموعـة مـن المنـازل التـي بهـا فتحـات في الجـدران. كان هنـاك كـمّ كبـير مـن القمامـة مـن حولنـا. أيـن نحـن بحـق السـماء؟

بـدت هـذه البيئـة أكـثرَ مُلاءمـة لمقاتـلٍ مُتشـدّد. كانـت خشـنة وشـعرتُ بخطـرٍ قليـل. لم يكـن هنـاك أيّ شـخصٍ حولنـا، فقـط القمامـة. كانـت قطـع غيـار السـيارات والسـيارات المُحطّمـة في الشـوارع. كانـت ملقيـة خـارج منـزلٍ مُتهالـك، ولم يكـن يبـدو أن أيّ شـخصٍ يمكـن أن يعيـش هنـاك. تسـاءلتُ عـما اذا كانـوا يجلسـون بوضعيّـة القرفصـاء كل الوقـت. شـعرتُ بعـدمِ الارتيـاح للانتظـارِ في هـذا الحـي. لم أكـن أعـرفُ أيّ نـوعٍ مـن الأشـخاصِ الذيـن كنـا سـنلتقي بهـم؛ أحـد أعضـاء جبهـة النـصرة التـي لهـا ارتبـاط مـع أيديولوجيـة القاعـدة؟

ربما تسبّبت البيئة المحيطة القاتمة والمزعجة في جعلي أشعر بالخوف، لكنني كنتُ أعرفُ بالفعل أنني لا أحب هذا المقاتل. كيف يمكنني؟ كيف يمكنني التعاطف مع الناس الذين تبنوا تفسيراً مُتطرفًا للإسلام وأرادوا هذا لسوريا؟ كيف ستعيشُ عائلتي في سوريا بسلام في ظلّ هذا الحكم المُتشدّد وهذه الأيديولوجية؟ كيف سيكون مستقبلهم، وهذا ما جعلني أشعرُ بالقلق.

أثناء انتظارِ هذا الرجل، شعرتُ مرّة أخرى بالاستياء تجاهه، لأنه كان مقاتلاً عنيفًا داخل لبنان، ولجأ إلى اللبنانيين، وتسبّب في الإرهاب في سوريا. تراكضت الكثير من الأفكار في رأسي. كانت هناك أيضًا حالة من العصبية بين زملائي في السيارة تساءل زميلي «أين هو؟».

أخيرًا، ظهرَ رجلٌ طويل القامة ذو ظلٍ خفيف من أحدِ المنازل المُدمّرة. كان وجهه محفورًا، ذا خطٍ فاصل قوي وملامح حادة، وكانت عيناه الخضراوان الثاقبتان يعلوهما حاجبان كثيفان. كان يشبه السوريين. عندما دخل إلى الشاحنة، كان وجهه بلا تعبير وكانت عيناه فارغتين. بدا وكأنّ عقله مشوش وخطير للغاية ومتوتر. لقد وتّرني وجوده وتساءلتُ عما إذا كان يتعاطى المخدّرات. جاء لاصطحابنا لمقابلةِ فتاة سورية، هي أيضاً من حمص، قالت إنّ الجنود السوريين اغتصبوها. بمجرّد أن وصلنا إلى المقهى الذي كنا سنقابلها، اختفى المقاتل في الظلام ولم نره مرة أخرى.

البدو من حمص في ملجأ الأمم المتحدة

زرنا مخيم المفوضية في طرابلس. لم أذهب إلى مخيمٍ رسمي للاجئين من قبل، لذا لم أكن متأكدة مما يجب توقعه، لكنني تخيلتُ أنّ المخيم سيوفرُ مأوى آمنًا. إنطباعي الأول كان صدمة حيث كانت القمامة في كلّ مكان، ولم تكن كذلك قمامة حديثة بل كانت قديمة تتحلل وتتمدد مثل بطانية على الأرض. كنتُ أحاولُ فهم حالة هذا المخيم الفلسطيني. نظرتُ عن كثب ولكني لم أتمكن من تحديدِ مكان المخيم الفعلي، كل ما رأيته كان قمامة وإطارات سيارات.

ثـم رأيـتُ أشـخاصًا يمشـون باتجـاه الإطـارات ويدخلـون داخلهـا بالفعـل. أخبرنـا السـكان المحليـون أنّ الفلسـطينيين يعيشـون تحـت الأرض. أخـيرًا رأيـتُ المخيـم الفلسـطيني الـذي سـمعتُ عنـه طـوال هـذه السـنوات. كنـتُ في حالـة صدمـة، إذ كيـف يمكـن لعائلـة أن تعيـشُ في تلـك البيئـة! وكنـتُ متأكـدة مـن أنهـا ليسـت بيئـة معيشـية مناسـبة أو صحيـة لأيّ أسرة. ثـم رصـدتُ رجلـين كبيريـن في السـن جالسـين عـلى الكـراسي فـوق القمامـة. كانـت صدمـة بالنسـبة لي أنّ النـاس يمكـن أن يعيشـوا هنـا، ناهيـك عـن البقـاء. شـعرتُ بـالأسى عندمـا رأيـتُ ذلـك في وطنـي.

مشـينا نحـو الخيمـة البلاسـتيكية الصنـع وكانـت مثبتـة بقطعـة مـن الخشـب. خرجـت امـرأة مُسِـنّة مـن وراءِ سـتار الخيمـة. كانـت اللاجئـة التـي مـن المُفـترِض أن نلتقـي بهـا. كان هـذا الحيـز البلاسـتيكي هـو خيمتهـا في مخيّـم المفوضيّـة والتـي تعيـشُ فيهـا مـع عائلتهـا بأكملهـا، بمـا في ذلـك البنـات والأحفـاد. مـرّة أخـرى، لقـد صُدِمـت مـما كنـتُ أراه.

كانـت الجـدة السـورية مضيافـة ودافئـة جـداً ورحّبـت بنـا. أخرجـت بعـض بناتهـا إلى الخـارج حيـث كان هنـاك العديـد منهـم. ابنـة واحـدة لديهـا طفـل عمـره عامـان. كان زوجهـا قـد غـادرَ المخيـم عندمـا انتقـل إلى لبنـان أثنـاء النـزاع. كانـت البنـات جميـلات ومبتسـمات وسـعيدات بزيارتنـا. يبـدو أنهـن كـنّ يعشـن حيـاة يوميـة طبيعيـة، ويقمـن بترتيـبِ مـكان معيشـتهم، والتفكـيرِ في طـرقٍ لجمـعِ الأمـوال مـن أجـلِ الطعـام. لقـد كـن قبيلـة، وفي وقـتٍ لاحـق خـلال مناقشـاتنا قلـن لي إنهـن بـدو مـن حمـص.

المـرأة العجـوز دعتنـا لداخـلِ المخيـم. لقـد بذلـتُ جهـداً للاسـتجابة بشـكلٍ طبيعـي، حيـث لم أرغـب في إظهـارِ انزعاجـي لظروفهـم. كان داخلهـا رطـب ومغبـر. جلسـنا عـلى سـجادة قديمـة وقـذرة كانـت رائحتهـا رطبـة كأنـه تـم تركهـا تحـت المطـر. تحـت السـجادة كانـت الأرض، لم يكـن هنـاك تغطيـة للأرضيـات. كان هنـاك ظلمـة، لكـن ضـوء النهـار الـذي دخـل مـن مدخـل الخيمـة سـاعدنا عـلى رؤيـة وجـوه بعضنـا البعـض.

عـلى جانـبٍ واحـد مـن الخيمـة كان هنـاك شرشـفٌ يُسـتخدم لفصـلِ المـكان. تـم إغـلاقُ منطقـة المطبـخ أيضًـا بمـلاءة سريـر واحـدة. كان حقًـا مجـرّد ثقـب صغـير في الظـلام. لم يكـن هنـاك حـمام في الأفـق، ولم أكـن متأكـدة مـن المـكان الـذي يسـتخدمون فيـه المرحـاض أو

يجدون الماء للاستحمام. كان هناك الكثير من الفتيات في الأسرة، ولم يكن لدي أي فكرة عن مدى اتّساعهن جميعًا هنا، ناهيك عن النوم.

قالت الجدة إنّ المفوضية العليا لشؤون اللاجئين قد قدّمت لهم صفيحة بيضاء من البلاستيك وبعض الألواح الخشبية. قالت إنها لم تكن كافية، وشرحت لنا ظروفهم المعيشية الصعبة. أخبرتنا أنّ موظفي الأمم المتحدة سوف يوزّعون ألواحًا من الخشب أو قطع من البلاستيك كلّ بضعة أشهر. القسائم المقدمة للاجئين لا تشتري لهم سوى عدد قليل من الضروريات. تم العثور على بقية المواد الموجودة في المخيم في القمامة أو عن طريقِ أشخاصٍ قاموا برميها. قالت الجدة بصبر»نحاولُ أن نفعل ما نستطيع، لكن هذا لا يكفي على الإطلاق لنا جميعًا».

يخرجُ الأولاد في المخيم لجمعِ الأموال عن طريق بيعِ العلكة. أثناء وجودنا هناك، عاد الأبناء بعد الخروج طوال اليوم، وقد شعرتُ بالحزن لسماع أنهم كانوا يعملون طوال اليوم.

أثناء الحديث، ذكرتُ أنّ والدتي كانت في الأصل من حمص. تلقى البدو هذه المعلومة بقدرٍ كبير من الإثارة. قلتُ لهم إنها من زيدل في فيروز. كانت هذه العائلة تعيشُ كبدو في المزارع في زيدل. «يأتي طبيب الأسنان من زيدل لفحصِ أسناننا من حينٍ إلى آخر، وهو يأتي من زيدل. إنه رجلٌ جيد». أخبرتني الجدة. «نحن لا نعطيه أي شيء، إنه يفعلُ ذلك من قلبه فقط». ابتسمتُ عند سماعي عن أشخاصٍ يساعدون بعضهم البعض. كنتُ سعيدة لسماعِ أنّ اختصاصياً طبيًا كان يتفقدُ القبيلة على الأقل.

قالت إحدى الفتيات وهي تحمل طفلها «أريد فقط العودة إلى سوريا». عندما وصلوا إلى هنا، غادر زوجها المخيم ولم يعد. قالت: «لا نعرف، لقد غادر ببساطة وتركني أنا والرضيع». قالت لي: «تزوجته عندما كان عمري أربعة عشر عامًا، لكننا أنجبنا الطفل لاحقًا». نظرتُ إلى الأم وأومأت برأسها وقالت «هذا ما تعانيه ابنتي، لكن لا يوجد شيء يمكننا القيام به».

هـذه الابنـة، مثلهـا مثـل كل اللاجئـين السـوريين الذيـن قابلتهـم، ليـس لديهـا أيّ تعليـم، ولا خـبرة في العمـل، ولا مهـارات في اللغـة الإنجليزيـة. بخـلافِ بيـعِ شيءٍ مـا في الشـارع أو في متجـرٍ لبنـاني، لم يكـن لديهـا أيّ وسـيلة لكسـبِ المـال. لقـد سـمعنا أنّ بعـض اللاجئـين السـوريين في لبنـان لجـأوا إلى الدعـارة أو عرضـوا خدمـاتٍ جنسـية. لقـد شـعرتُ بالغثيـانِ والغضـبِ مـن الصدمـة التـي يعـاني منهـا هـؤلاء النـاس. تحـاولُ منظمـة غـير حكوميـة لبنانيـة تُعنـى بحقـوقِ الإنسـان مسـاعدة هـذه الأم، لكـن المحاكـم اللبنانيـة كثـيراً مـا تتخـذُ قـراراتٍ غـير قابلـة للتنفيـذ.

لم يعـرب أحـد مـن قبيلـة البـدو عـن أيّ مشـاعر تجـاه النـزاع أو الثـورة. قالـت الأم بشـوق: «نريـدُ فقـط أن ينتهـي هـذا، نريـدُ العـودة إلى سـوريا».

وداعًا لبنان

بقيـت فكـرة بسـيطة راسـخة في ذهنـي بعـد مغـادرتي لبنـان في عـام 2014. اللاجئـون ليسـوا بعـضَ الأشـياء الأجنبيـة أو الظواهـرِ الخارجيـة التـي يتـم جمعهـا مـن أجـلِ إحصـاءات الأمـم المتحـدة، أو تجـارب سـيناريوهات النـزوح كـما تتعامـل معهـم وسـائل الإعـلام الرئيسـية لتشريحهـا. هـؤلاء كانـوا طبيعيـين، أناسـاً عاديـين، يشـبهون أيّ واحـدٍ منـا أكـثر مِـمّا يمكـنُ تصـوّره. إنهـم آبـاء وأمهـات وأطفـال وعائـلات بأكملِهـا، مُحـاصَرون في ظـروفٍ لم يكـن أي منهـم يتوقعهـا أو يرغـب فيهـا.

كان هـؤلاء هـم الضحايـا، وليـس الجنـاة، وكان أولئـك الذيـن يلجـأون إلى العنـفِ في سـوريا منبوذيـن، معتقديـن أنّ الانتقـام هـو الطريقـة الوحيـدة لبقائهـم عـلى قيـد الحيـاة. لقـد تُـرِكَ هـؤلاء اللاجئـون ليدافعـوا عـن أنفسـهم بعـد أن فشـلت الحكومـة السـورية في حمايتهـم، وبعـد أن فشـلت الحكومـة اللبنانيـة في توفـيرِ الحمايـة الكافيـة لهـم، وبعـد أن تخلّـت الأمـم المتحـدة عنهـم. كانـوا وحدهـم تمامًـا.

TRT WORLD
research centre

مركز البحوث في تي. آر. تي العالمية هو مركز بحثي غير ربحي مقره في اسطنبول تركيا. هدفنا الرئيسي هو تقديم أبحاث وتحاليل شاملة من خلال تقديم وجهات نظر متعددة حول القضايا الإقليمية والدولية الهامة. وينظم مركز البحوث فعاليات بشكل منتظم يستضيف خلالها خبراء من مختلف المجالات من أجل تعميق الفهم في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية ذات الصلة باهتمامات المركز. من ضمن أهم الفعاليات التي ينظمها المركز المنتدى العالمي السنوي لـ تي. آر. تي، الذي يجمع قادة العالم من سياسيين وواضعي السياسات وأكاديميين ومفكرين ونشطاء لمناقشة أهم قضايا العصر.

TRTWORLD
research centre